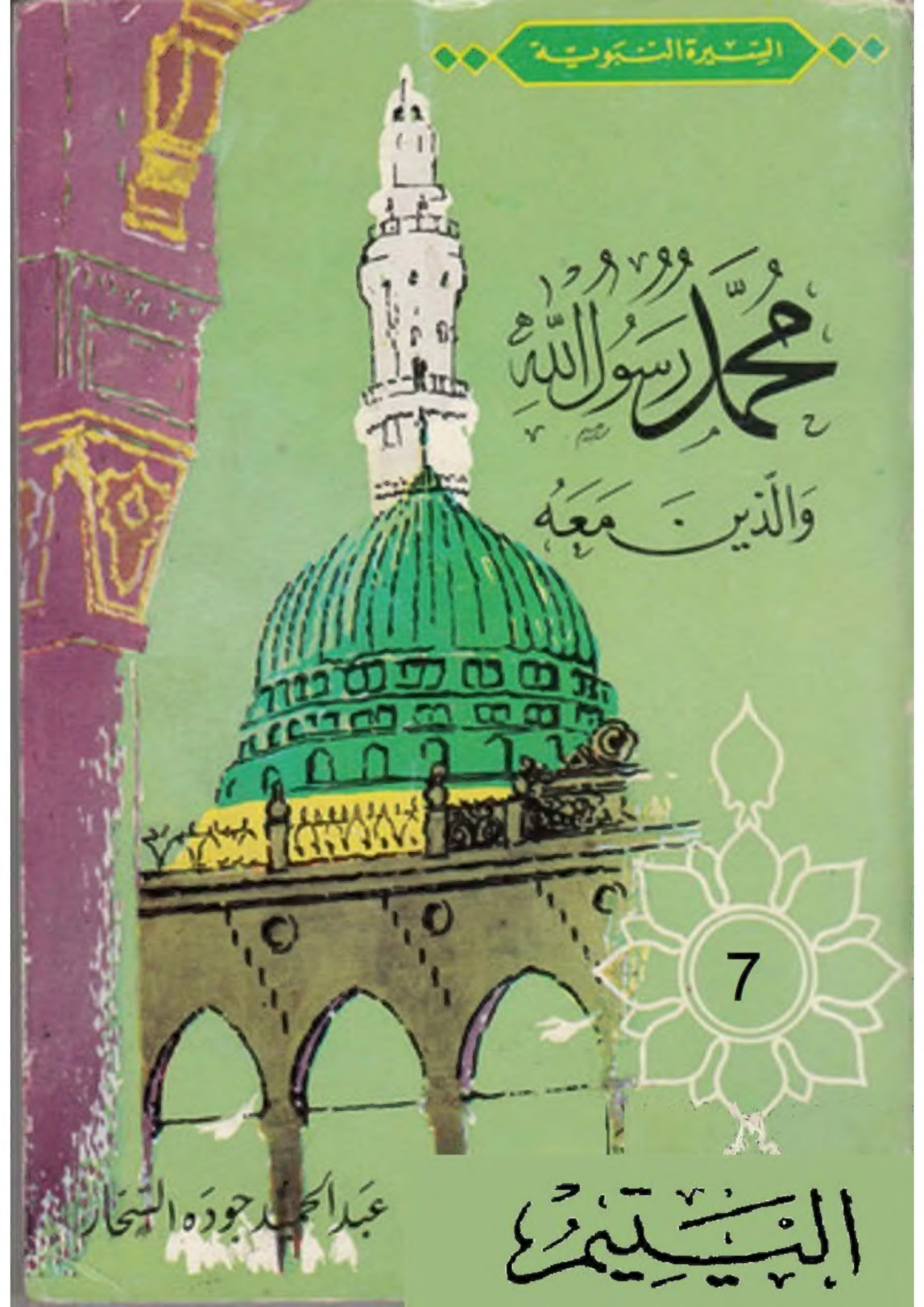

السيرة النبوية
محمد رسول الله
والذين معه
7
عبد الحميد جوده السحار
اليتيم

السيرة النبوية



اليتيم

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ .

(قرآن كريم)

— ١ —

سجى الليل ، وراحت الشهب صغيرها وكبيرها تتزاحم فى رقعة السماء وتتنافس فى التألق واللمعان ، فبدت كبساط زمرد نثرت عليه دنانير تخالطها دراهم ، وأحدقت نجوم الثريا بالهلال كأنها تريـد أن تسبقه ، وبات الهلال فى معصم الظلام سوارا وعلى مفرق الدجـى إكليلا ، ومحمد بن عبد الله جالس تحت الشجرة فى أعالى مكة يرنو إلى السماء وفى ذهنه انبهار ، وفى نفسه عجب وإعجاب ، وفى وجدانه إشراق ، يستشعر كأنه ذاب فى الوجود ، أو كأن الوجود كله قد انسكب فى فؤاده .

كان يسير مع أمه حليمة وأبيه الحارث فى طريقه إلى مكة ، لتعيده حليمة إلى أمه آمنة بنت وهب بعد أن شب ومضى من عمره أربع سنوات ، وقد سقط عليهم الليل فى أعالى مكة ، وتدفق سيل الحجيج إلى بيت الله العتيق ، وجرف الركب الصغير فإذا به يجد نفسه فى بحر من الناس ، فراح يتلفت فلم يجد حليمة ولا الحارث وضل الطريق ، فلم يفزع و لم ينخلع قلبه رعبا ، بل راح يشق طريقه فى الجموع ، حتى إذا ما بلغ شجرة جلس تحتها هادىء النفس ينتظر أوبة حليمة ، أو مجىء من يحمله إلى أهله عند الحرم .

وراح محمد يقلب وجهه فى الكون وهو مسرور ، كأنما كانت روحه الفتية القوية تمتص حكمة الوجود . وأرهف سمعه ، وأصاخ للأصوات

المنبعثة من وقع أقدام الناس وارتطام حوافر الدواب بالأرض وحنين الإبل ووسوسة النسيم فى أوراق الشجر ، فانشرح صدره وتهلل بالفرح قلبه ، لكأنما كان يصغى إلى ترانيم وتسبيحات .

لم يعرف الوجود الغمض ولم تغمض عينا الصبى ولم يقف ذهنه ولم ينم قلبه ، بل راح يتذكر أيامه فى بنى سعد ، تلك الأيام السعيدة التى أمضاها فى دار حليمة مع إخوته عبد الله وأنيسة والشيماء ، وقفزت إلى ذهنه لعبته المفضلة ، لعبة العظمة البيضاء التى كان يلعبها مع أنيسة وعبد الله ، وقد كانوا يأتون بعظمة ناصعة البياض ، وفى الليالى المظلمة يلقون بها بعيداً إلى أقصى ما تستطيع يد أحدهم ، فمن يبصر بها على بعدها يصبح رئيس الجماعة . ورفت على شفتيه بسمة هادئة فقد رأى نفسه وهو زعيم أنيسة وعبد الله .

وتذكر ذلك اليوم الذى كانت تحمله فيه الشيماء على ظهرها تلاعبه وتداعبه ، وقد أسرفت فى ملاعبته فمال برأسه وعضها عضة قوية فى ظهرها ، فندت منها صرخة أفزعته ، فغامت صفحة وجهه الجميل بالأسى وهو تحت الشجرة ، فما كان يحسب فى ذلك اليوم أن عضته تلك تسبب لأخته مثل ذلك الألم ، وقد ظل كلما رأى أثر عضته فى ظهرها يتألم وتترقرق الدموع فى عينيه .

وبات محمد فى شروده وأحلامه وتعاطفه مع الوجود وتناسقه مع كل ما حوله ، بينا كان عبد المطلب وورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وأبو الحكم بن هشام (أبو جهل) ومتعقبو الأثر منتشرين فى أعلى مكة ينقبون عن ابن عبد الله ، الذى أضلته مرضعته حليمة فى ليلة شديدة الزحام .

كان عبد المطلب على صهوة فرسه ينطلق إلى وادى تهامة ، وهو يتلفت وقد انقبض صدره وربما خوفه خشية أن يكون محمد قد انجرف مع تيار الحجيج ، أو أن يكون حاج غريب عن الديار قد التقطه ، وزاد من قلق شيخ قريش لما وجد نفسه ضالاً فى بحر من الناس لا يعرف أين منطلقه ، ففرسه تدور مع الجموع ليس له عليها سلطان .

وأحس عبد المطلب عجزه فرفع عينيه إلى السماء وراح يبتهل فى حرارة إلى ربه أن يرد ولده محمداً ، وانسابت من فؤاده مشاعر رقيقة ملأت جوانحه فسالت على خديه العبرات .

وسار ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل على راحلتيهما يتلفتان فى الظلام ينقبان عن محمد بن عبد الله ، الصبى القرشى الذى جاءت مرضعته تقول إنها أضلته فى أعالى مكة ، وقد انطلق ورقة وزيد معا فقد كانا صديقين لا يفترقان أبدا إلا فى أمر ما يعتنقان من دين ، اتفقا على تسفيه دين الآباء وأعرضا عن عبادة الأصنام وساحا فى الأرض بحثا عن دين الحنيفية دين أبيهم إبراهيم الخليل ، فقال لهما أحبار اليهود وكهان النصارى أن الذين يعرفون ذلك الدين قد ذهبوا ، وأن نبيا سيعيد ملة إبراهيم قد أظلهم زمانة ، وأنه سيبعث فى البلد الحرام الذى جاءا منه ، فرأى ورقة أن يتنصَّر إلى أن يبعث ذلك النبى الأمى ، وآثر زيد أن يستمر على دينه وأن يجتهد فيه ينقيه من الشوائب والأساطير التى لحقت بالحنيفية السمحة ، لعله يصل ببصيرته إلى ملة أبيهم إبراهيم .

وانساب أبو الحكم بن هشام على بعيره يقلب وجهه فى الجموع المتدفقة من أعالى مكة إلى الحرم ، فإذا برأسه يدور وقد زاغ بصره ؛ كانت جحافل الناس تندفع إلى البيت العتيق وقد ضجت بالتلبية لرب

البيت وشركائه الذين يقربونهم إليه ، وقد ثار النقع وانتشر الغبار كأنما سحابة قد ملأت بين السماء الأرض ، فلم يملك أبو الحكم إلا أن يتلثم حتى يستطيع أن يتنفس ، ثم راح يجاهد لينأى بنفسه عن الكتل البشرية التى تشتد فى سيرها لتبلغ غايتها وتستكين نفوسها إلى الأمن والسلام والراحة .

وانتشر منقبو الأثر فى الوادى المقدس ينقبون عن آثار أقدام محمد بن عبد الله ويشمون ريحه ، ولم يكن الأمر سهلا فالحجيج يأتون من كل فج عميق يمحون كل أثر ويذهبون بكل ريح . وراح الذين خرجوا يلتمسون الصبى القرشى يضربون فى أرجاء الوادى ، وما دار بخلد أحدهم أن ذلك الصبى الذى يبحثون عنه هو دعوة إبراهيم وبشرى عيسى الذى تنتظر الأمم رسالته .

ووقف ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل عند الشجرة اليمنى بوادى تهامة ، فإذا بصبى قائم تحتها يجذب غصنا من أغصانها ، وإذا بنور الكواكب ينعكس على وجهه الجميل فيزيد الصبى سحراً ، فراح ورقة وزيد يرمقان الصبى برهة ثم قال زيد :

— من أنت يا غلام ؟

— أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

فمال زيد واحتمله بين يديه ووضعه أمامه على راحلته ، وسار به وورقة إلى جواره وانطلقوا ليعودوا إلى مكة .

وغارت صغار النجوم وبقى أحسنها وأضوؤها وأكبرها ، ولم تبق نابتة إلا فاحت روائحها وضحكت السماء من جوانبها ، ولم يبق طائر إلا غرد . وبلغ الركب الصغير الحرم فأناخ زيد راحلته ونزل عنها

واحتمل محمدا بين يديه ثم وضعه على الأرض ، وهبط ورقة عن راحلته ، ثم انطلقوا قاصدين شيخ بنى هاشم .

كان بعض النسوة واقفات على باب المسجد وقد ارتفعت أصواتهن يلتمسن ثيابا طاهرة يطفن بها ، وراحت كل منهن تقول :

— من يعيرنا مصونا ؟

— من يعير ثوبا ؟

— من يعيرنى تطوافا ؟

وكان رجال يرتدون ثيابا طاهرة اكتروها من الحمس فى طريقهم إلى الكعبة ، بينا كان رجال آخرون قد خلعوا ثيابهم وراحوا يطوفون حول الحرم عرايا ، اعتقادا منهم بأنه لا يجوز لهم عبادة الله فى ثياب أذنبوا فيها .

وراح رجال يسوقون الهدى أمامهم ليذبحوه عند إساف ونائلة قربانا للآلهة ، وراح آخرون يقدمون الفرع للذبح وقد زينوه وألبسوه ، والفرع أول نتاج الإبل والغنم ، وكانوا يعتقدون أنه نصيب الآلهة .

وراح الصبى محمد بن عبد الله ينظر فى انبهار إلى تلك الحشود الهائلة التى تكدست فى بيت الله ، ومد عينيه إلى الأصنام التى وضعت خارج الكعبة ، فرأى تمثال أسد ولم تكن هذه أول مرة يراه فقد رآه فى أرض هوازن ، فهو إلههم يغوث الذى يعبدونه فيما يعبدون من أصنام ، ووقعت عيناه على تمثال نسر رمز الإله نسر ، وعلى فرس رمز الإله يعوق ، وعلى تمثال رجل رمز الإله ود ، وعلى صورة امرأة رمز الإلهة سواع ، واستمر يقلب وجهه فى أصنام قبائل العرب فقد صارت الكعبة بيتا للأصنام .

وراح ورقة وزيد بن عمرو بن نفيل ومحمد بن عبد الله يطوفون

بالبيت ، ولم يجد ورقة الذى ترك دين الآباء واعتنق المسيحية حرجا من الطواف ، فالمسجد الحرام أول بيت وضع للناس ، وقد عرف الطواف فى كل الديانات ، وإنه ليذكر قول داود فى مزاميره : « أغسل يدى فى النقاوة فأطوف بمذبحك يارب » .

وطافوا سبعة أشواط ثم دخلوا فى جوف الكعبة يبحثون عن عبد المطلب ، ولم تكن هذه أول مرة يدخل فيها محمد الكعبة فقد دخلها يوم أن عادت به حليمة إلى أمه عقب أن فطمته وكان عمره آنذاك سنتين ، ولم يدم النظر طويلا إلى تمثال هبل فى ذلك الوقت ، أما هذه المرة فقد راح يتفرس فيه . إنه تمثال من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب ، أمامه سبعة أقداح لاستشارته فى أمر السفر والزواج والثأر و نسبة المواليد إلى أهلهم وفى كل ما يحتاج إلى رأى الإله فى شئون الدنيا ، وقد تكدست حوله تماثيل كثيرة كأن كل من خرج من العرب إلى مصر من الأمصار جلب منها تمثالا ، وألقاه بين أيدى آلهته فى البيت العتيق .

كانت التماثيل مصنوعة من المعدن ومن الخزف ومن الحجارة ومن الخشب ، وكانت عند أقدام هبل بئر تعرف بالغبغب ترمى فيها العطايا والنذور ، وقد راح الناس يلقون فيها الدراهم والدنانير وبعض طرف جاءوا بها من الحيرة وبصرى ومنف وصنعاء وكل سوق من الأسواق التى نزلوا بها فى فارس والشام ومصر وجزيرة العرب .

وخرج ورقة وزيد والصبى من جوف الكعبة ، وما أن ألقى محمد بصره إلى إساف ونائلة حيث يذبح الناس القرابين حتى رأى الأعراب يطوفون حول الذبائح ، ورأى أحواض الأدم التى وضعت عند زمزم

وقد ملئت بالماء وبث فيها عبد المطلب التمر والزبيب ، وازدحم الناس حولها وراحوا ينهلون منها وقد لاح على وجوههم السرور .

وسار الثلاثة فى الحرم يبحثون عن عبد المطلب ، وجذب بصر محمد أكثر من مرة غلام صغير يرتدى صوفا أبيض فى الحر الشديد وقد ترك بالقرب من الكعبة وحده ، ولم يدر محمد حكمة ذلك ولم يعرف فى ذلك الوقت أن ذلك الغلام قد وهبه ذووه للكعبة وأنه ربيط ، وأنه إذا شب عن الطوق أصبح من طبقة الصوفية الذين يتولون خدمة البيت العتيق .

ولمح ورقة عبد المطلب قادما يشق طريقه فى الزحام فهتف فى فرح :

— عبد المطلب !

ومد زيد بصره إلى حيث كان ورقة ينظر فألفى عبد المطلب يتلفت وفى وجهه أسى عميق ، فقد عاد من بحثه دون أن يعثر على حفيده أو يجد له أثراً . وأحس زيد شفقة نحو الشيخ الجليل فوسع من خطوه وراح يجد فى السير ، ولولا ذلك الزحام الذى يسد عليه الطريق لهرول إلى شيخ بنى هاشم ليفضى إليه بنبأ عثورهم على الصبى حتى يستريح قلب الشيخ الواله الحزين .

ودنا زيد من عبد المطلب وقال ورقة فى رقة :

— وجدناه .

وما إن مس الصوت أذنى عبد المطلب حتى طفرت من عينيه الدموع وقال فى لهفة :

— وأين محمد الآن ؟

وما انتهى من قوله حتى كان ورقة بن نوفل وفى يده محمد بن عبد الله

أمامه ، فمال عبد المطلب واحتمل محمداً بين يديه وضمه إلى صدره وراح يقبله فى حب شديد ، وقد سالت عبراته حتى بللت لحيته .

وجاءت حليمة وزوجها الحارث ، وما كادت عيناها تقعان على محمد وهو فى أحضان جده حتى خنقتها عبراتها وهتفت فى وجد :

— ولدى ! ولدى الحبيب !

وتناولت محمداً من جده وراحت تمطره بقبلاتها ، ثم سارت به والحارث إلى جوارها إلى دار آمنة بنت وهب لترد إليها ابنها وتؤديه إليها ، وبينا هم سائرون أخذ محمد ينظر إلى الحشود التى فرغت من السعى بين الصفا والمروة واتخذت طريقها إلى الكعبة ، وإلى قباب الجلود وقد جلس فى ظلها الحمس من أهل مكة ، فما كان الحمس يستخدمون فى موسم الحج خيام الشعر والوبر .

كان محمد ينظر إلى ما يجرى حوله بعينين مفتوحتين وذهن صاح ، فما يراه الساعة دنيا جديدة تختلف كل الاختلاف عن دنياه التى عاشها فى صحراء بنى سعد ؛ كان يعيش هناك بين أحضان طبيعة خلابة ، يستنشق الحرية ويذوب فى الوجود بينا يشق هنا الجموع المتدفقة كالسيل ليصل إلى داره عند الصفا ، جموعا جاءت من كل فج عميق من بلاد العرب لتحج البيت ، وتقدم خضوعها وولاءها وعبوديتها لرب البيت .

ووقعت عينا محمد على دار أمه فعرفها وراح يعدو إليها فى لهفة وفرح وقد فاض قلبه بحنان وشوق إلى أمه العزيزة ، وراح الحارث وحليمة يسرعان الخطا خلفه ليلحقا به .

ودق الباب فى لهفة ، وسرعان ما فتحت بركة الباب وما أن رآها حتى لف ذراعيه حول ساقيها فى حب . وفطنت بركة إليه فتهللت

أساريرها بالفرح ، ومالت عليه تقبله هنا وهناك وقلبها يخفق بالرحمة والحنان .

وانفلت محمد من بين أحضان بركة فى الوقت الذى وصل فيه الحارث وحليمة إلى الدار ، وانطلق يجرى إلى حيث كانت أمه وهو ينادى فى لهفة وشوق وحنان :

— أماه ... أماه .

وانسكب صوت محمد فى أذنى آمنة عذبا لكأنه كان رحيق الوجود أو موسيقى السماء ، فتدفقت من كنز فؤادها مشاعر رقيقة حانية ، وسرت فى كيانها رجفة من أثر النشوة العارمة المفاجئة ، فما خطر لها على قلب أن يأتى محمد الحبيب الساعة ليملأ فراغ حياتها بهجة ، وظلام نهارها نوراً وإشراقا .

وهرعت آمنة إليه وقد بسطت له ذراعيها فارتمى فى أحضانها وهو سعيد غاية السعادة ، وراحت تلثمه فى حب وفاض تأثرها فطفرت الدموع لتنفس عن المشاعر الرقيقة الموارة التى ضاق بها صدرها .

واستمرت آمنة وابنها الحبيب متعانقين مدة استشعرا فيها أنهما الوجود كله ، بكل ما فيه من مشاعر حلوة ونبضات فرحة مرحة . وأفاقا من نشوة اللقاء على صوت أقدام بركة وحليمة ، فذهبت آمنة تستقبل مرضعته التى كانت حريصة كل الحرص على أن يمكث محمد معها ، وإذا بها تعيده قبل أن ينقضى الأجل .

ورحبت آمنة بحليمة ثم قالت لها :

— ما أقدمك به يا ظئر (مرضعة) ولقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟

فأطرقت حليمة وقالت :

ـــ قد بلغ والله وقضيت الذى على ، وتخوفت عليه الأحداث فأديته إليك كما تحبين .

ـــ ما هذا شأنك فأصدقينى خبرك .

فراحت حليمة تقص عليها قصة ميله إلى الوحدة وصعوده لمراقبة السماء ، وخشيتها من أن يتردى فى الجبل أو تؤذيه الشياطين ، فقالت آمنة وهى تبتسم :

ـــ أفتخوفت عليه الشيطان ؟

ـــ نعم .

ـــ كلا والله ما للشيطان عليه سبيل ، وإن لبنىّ شأنا .

— ٢ —

كان أبو قحافة يطوف بالبيت وقد بدا فى وجهه رقة وطيبة وهدوء ، ووقعت عيناه وهو فى طوافه على عبد المطلب وهو فى مجلسه فى ظل الكعبة ومن حوله ندماؤه وبعض أبنائه وحفدته ، وابنه حمزة فى حجره يعبث فى لحيته ، فيميل عليه شيخ قريش ويقبله فى حب وقد انبسطت أساريره تعبر عما فى نفسه من سرور ، فإذا بأبى قحافة يستشعر حنينا إلى الولد فقد ولدت له زوجه بنين وبنات ولكن لم يعش له منهم أحد .

كانت الكعبة تموج بالأبناء والبنين فما من أحد من قريش إلا وله قرة أعين ، فعبد المطلب قد عاش حتى رأى أبناء أبنائه وضمهم جميعا إلى صدره ، وأمية وإن كان قد ذهب بصره فإنه يشم ريح أحفاده ، وها هو ذا حفيده أبو سفيان بن حرب يتأهب للزواج ، فإن مد الله فى عمره فسيحتوى بين ذراعيه حفيد ابنه حرب ، وسيطوف به البيت العتيق ، وهى أمنية عزيزة يحلم بها كل رجال مكة . ترى أيأتى ذلك اليوم الذى يطوف فيه بحفيد من حفدته وهو منشرح الصدر متهلل الوجه ؟

كان عثمان الذى عرف بأبى قحافة من قبيلة تيم ، ويلتقى نسبة مع بنى هاشم وبنى أمية عند كعب بن لؤى . وعرفت قبيلة تيم بالرقة وظهر فيها كثير من الشعراء ، وعرفت نساؤها بالحظوة عند الأزواج . ومارست القبيلة التجارة ولكن تجارتها لم تبلغ شأو تجارة بنى هاشم وبنى أمية ، ولكنها مكنت القبيلة من أن تحيا حياة كريمة لم تصل إلى ما وصلت إليه

حياة سراة قريش من ترف، ولم تهو إلى حياة المسغبة التى كان يقاسيها أغلب أهل مكة، والتى كان ينتشلهم منها بين الحين والحين أجواد قريش.

إنه جلس أكثر من مرة حول جفان عبد المطلب وجفان عبد الله بن جدعان ، ولم يكن ذلك لفقره بل ليشارك قومه فى طعامهم وسرورهم ، فقد كانت أيام الطعام وما أكثرها بمثابة أعياد فى مكة يجتمع فيها الشباب للمرح ويتبادل فيها الشيوخ الآراء وكثيراً ما نسقت فيها أعمال القوافل المنطلقة إلى بصرى أو منف أو صنعاء أو الحيرة .

كان أبو قحافة غاية فى الرقة والهدوء وقلما كان يثور ، ولكنه إن ثار ثار ثورة الحليم التى لا تبقى ولا تذر . ولم يكن صاحب مطامع كبيرة فقد كانت كل غايته أن يعيش أيامه فى سلام ، وأن يهب الله له ذرية تملأ حياته غبطة . ولم تشرئب أمانيه بعنقها ولم يشطح به الخيال ليرى ابنا من أبنائه سيداً على قريش ، فكيف يفلت منه زمام أحلامه — وهو الرجل العاقل المتزن — ليرى أحد بنيه شريفا فى مكة وفى القوم بنو هاشم وبنو أمية ؟

كان يرى المنافسة الظاهرة والمنافسة الخفية بين عبد المطلب وأمية وابنه حرب ؛ كان إذا أطعم بنو هاشم الناس سارع بنو أمية إلى أطعامهم ، وإذا واسى عبد المطلب فقيرا أو عاد مريضا هرع حرب إلى المواساة والزيارة ، وإذا مدح شاعر شيخ بنى هاشم أو أحد بنيه أغرى شعراء آخرون بمدح بنى أمية وإظهار مناقبهم ، إنها منافسة عاش عليها كثير من المكيين ولكن أبا قحافة آثر أن ينأى عنها .

انضمت تيم إلى بنى عبد مناف يوم أن كادت الحرب تنشب بينهم وبين بنى عمهم عبد الدار على شرف حجابة البيت وحمل لواء قريش ،

وقد غمس رجال تيم أيديهم فى جفنة الطيب التى وضعت ليقسموا عليها ويتحالفوا على حرب عدوهم فأصبحوا فى حلف المتطيبين على لعقة الدماء ، ولولا أن تداعى الناس إلى الصلح لكان الثأر قائما بين عبد الدار وبنى تيم حتى الآن ، ومن يدرى ما الذى كان يحدث ، فلعل الخطاب كن يتربص بأبى قحافة ليقتله أو لعله كان قد قتله وشفى غليل صدره !

وما دار بخلد أحد يوم أن تداعى الناس للصلح بعد أن امتشقوا الحسام للقتال أن الله قد حبب إليهم الجنوح إلى السلم ، لأن الله كان يدخر حفدة هؤلاء المتحرقين للقتال وسفك الدماء لرسالة عظمى ، بل لأعظم رسالة حملها البشر ؛ رسالة السماء .

كان هوى أبى قحافة مع عبد المطلب ، فقد كان عبد المطلب يمارس الحياة على سجيته دون أن يتكلف أو ينافق مجتمعه ، كان كريما بطبعه يسارع للخيرات بوحى من ضميره ، قد حرم على نفسه أشياء لم تحرمها شرائع قومه ولا تقاليدهم ، فما كان يشرب الخمر ولا يطوف على بيوت البغايا لأنه وجد أن فى مقارفة تلك النواقص حطا من قدره ونيلا من كرامته وثلما لشرفه . ولعل مكارم بنى أمية كانت مجاراة لسيد بنى هاشم ، لم تكن نابعة من وجدانهم بل خشية من أن يذهب منافسهم بالمجد وينفرد بالشرف وحده .

وربط ذهن أبى قحافة بين أشراف قومه وبين ذلك الاعتقاد الذى وقر فى عقول المكيين من أن المرأة التى لا يعيش لها ولد إذا مرت بقتيل شريف يقتل غدرا ، ووطئت ما حوله عاش ابنها . وأن كل أمنيته أن يعيش له ولد ، ولكن أين ذلك الشريف الذى يقتل فى قومه لتتخطاه زوجة المقلاة سبع مرات لعل أولادها يعيشون ، فقد هده الحزن على فقد أولاده ؟

وراح أبو قحافة يقول وهو منصرف من الكعبة إلى داره :

تبـاشرت المقـالت حين قالـوا   ثوى (عمرو بن مرة) بالحفير

ووسع أبو قحافة من خطوه فقد وافى ميعاد ذلك العراف الذى سيزوره فى بيته ليصنع لزوجه حميلة تنفر الجن وتبعد عنها أذى الشياطين ، وتحفظ له ولده الذى فى بطنها والذى أوشك على الميلاد .

ودخل أبو قحافة على زوجه فألفى الهدوء شاملا لا حركة ولا نأمة ، وقد جلست امرأته وقد وضعت رأسها بين كفيها شاحبة اللون يبدو فى وجهها خوف وقلق فقد باتت تخشى أن يلحق البوار ذلك الجنين العزيز الذى تحس بحركته فى بطنها ، وراحت تتلفت كأنما تستعجل قدوم العراف الذى سيكتب لها التميمة المسحورة التى تحفظ حياة وليدها فلا يدهمه الموت كما دهم إخوته الآخرين .

وجاء العراف وقدمت له الضحية فذبحها فى مكان مظلم من الدار ليسكن الجن وتذهب الأرواح الشريرة ، ثم أخرج خرزة ملونة وراح يكتب عليها رموزا وإشارات وينظر إلى الأرض بين لحظة وأخرى ويتمتم كأنما يخاطب الجن الساكن تحت الثرى ، ثم وضع الخرزة فى تميمة وقدمها إلى أبى قحافة لتعلقها امرأته فى عنقها .

وجاء شهرها التاسع فذهبت إلى الكعبة لتبتهل إلى الآلهة جميعا أن تطيل فى عمر وليدها . وبينما هى فى طريقها لتبدأ الطواف من الحجر الأسود رأت الأطفال الذين وهبهم أهلوهم لخدمة البيت الحرام فطافت بذهنها فكرة ، لماذا لا تنذر ما فى بطنها للكعبة إرضاء للآلهة ؟ ومررت يدها على التميمة التى تدلت على صدرها فلم تحس تلك الراحة التى كانت تحسها كلما لمستها بل انبعثت من أغوارها أصوات تهتف بها أن تجعل ابنها

ربيطا للبيت الحرام إن أرادت أن يعيش .

وتعلق بصرها بالحرم وقالت :

ـــ اللهم إنى وهبت لك ما فى بطنى فأطل فى عمره وأبقه لى .

وانهمرت دموعها على خديها .

وحان أوان الوضع فالتف بها نساء بنى تيم مشرقات الوجه على شفاههن ابتسامات تشجيع وفى صدورهن إشفاق وخشية أن يموت الوليد ، وراح أبو قحافة يعدو ويروح فى الدار وهو قلق ما إن يسمع وقع أقدام حتى يلتفت إلى مصدرها فى ذعر ، وجاءت إليه واحدة من بنى تيم هدأت من روعه وشرحت صدره عندما قالت له :

ـــ إذا جاء الولود غلاما فماذا تسميه ؟

واستراح أبو قحافة إلى أنه لم يعد وحده فريسة لمخاوفه ، فقال فى صوت ينم عما كان يكابد من قلق :

ـــ عبد الكعبة .

ـــ وإذا كان أنثى ؟

وتغير لون أبى قحافة ولاح فيه شىء من الأسى وعدم الراحة ، ثم قال :

ـــ لم أختر لها اسما بعد .

وارتفع صوت المولود فتسمر أبو قحافة فى مكانه ، ثم رفع بصره إلى السماء وراح يدعو ربه أن يكون المولود ذكرا ليرثه ويرث آل تيم ، فانفلتت المرأة مهرولة لتعود إليه بالنبأ المثير .

ومرت لحظات حسبها أبو قحافة دهرا ، ثم جاءت المرأة بالبشرى نطق بها وجهها قبل أن يتحرك لسانها ، وقالت فى فرح شديد :

ـــ إنه ذكر .. إنه ذكر .

وفاض سرور أبى قحافة حتى إنه دار فى مكانه من شدة السرور ، ثم راح يقطع المكان صاعدا هابطا لا يستطيع أن يهدأ أو يستقر حتى طلب إليه أن يدخل ليرى وليده ، فتقدم خافق القلب وقد فاضت نفسه بالفرح والسرور .

ووقف برهة يرنو إلى زوجه والوليد الذى نام إلى جوارها وقد تحركت عواطفه وجاشت الرحمة فى وجدانه ، وعجز عن أن يكبح ذلك الحنان المتدفق من سويداء قلبه فمال وطبع على جبين الوليد قبلة أودعها ذوب المشاعر الرقيقة من أغوار النفس وأعماق الفؤاد .

وانفرج وجه زوجه الذابل عن ابتسامة عذبة ، ثم التفتت إلى ابنها الحبيب وقالت :

ـــ إنه جميل ، أليس كذلك ؟

فهز أبو قحافة رأسه وقال :

ـــ بلى هو فى غاية الجمال .

وقد راحت أهازيج الفرح وأناشيد الحياة تخفق بين جنباته ، فقد صار للدنيا طعم لذيذ جديد يرجو أن يدوم .

ومرت أيام وزوج أبى قحافة سعيدة كل السعادة بالصبى ، وفجأة خطر على قلبها فكرة موت الوليد فانقبض قلبها وطافت بها موجة من الرعب والفزع ، فإذا بها تخطف ابنها وتضمه إلى صدرها كأنما تحميه من غوائل القدر ، وكأنما لم يكن ذلك يكفى فاستقبلت به الكعبة ثم قالت :

ـــ اللهم هذا عتيقك من الموت فهبه لى .

وراح الخوف ينقشع رويدا رويدا ليحل الهدوء والطمأنينة والأمن ،

وليتبت الأمل فى الفؤاد الواجب الولهان . ونظرت إلى وجه الصبى فإذا بوجهها يشرق بالابتسام ، وإذا بها تهزه وتقول :

— عتيق عتيق .. ومنظر أنيق .

فبدا لها كأن الكون كله يغني غناء يفوق غناء كل قيان مكة ، ولا غرو فغناء القيان ينسكب من الأذن إلى القلب أما هذا الشدو فهو من الروح إلى الروح ، من قلب الوجود إلى القلب الودود .

وفى اليوم الثامن من ميلاد الصبى حمل أبو قحافة ابنه على ذراعيه وراح يطوف به حول الكعبة ، ثم دخل به إلى جوفها وراح يبتهل إلى هبل أن يطيل فى عمره وأن يهبه له ، واستمر فى دعائه وتحدرت دموعه على وجهه ، وتساقطت على الوليد الذى يضمه إلى صدره فى حنان .

وأولم أبو قحافة وليمة لبنى تيم ، فجاء الرجال والنساء يهنئون بالمولود ، وقال النسوة لأمه :

— ما اسمه ؟

فقالت الأم وقد توجت شفتيها بسمة حلوة ولاح فى وجهها سرور عميق :

— عتيق .

وقال الرجال لأبيه :

— ماذا سميته ؟

فقال الأب فى انشراح :

— عبد الكعبة .

ولم يعرف الوليد فى مستقبل حياته بعتيق ولا بعبد الكعبة ، بل عرف بأبى بكر الصديق .

لاحت شعرة بيضاء فى الدجى ثم انتشر الشيب فى مفرق الفجر ، وقام أبو طالب من نومه وراح فى عماية الصباح يتمسح بتمثال الإلـٰه الذى كان قريبا منه ويدعوه أن يرزقه ، فقد كان أبو طالب كثير العيال .

وانتشر فلق الإصباح وارتفعت الشمس غضة من وراء جبال مكة ، فخرج أبو طالب إلى الحرم وطاف بالبيت ثم انطلق إلى سوق مكة الضيق المسقوف ليفتح دكانه ، فقد كان أبو طالب عطارا وكان خبيرا بأصناف الطيب والبخور والغوالى والندود ، يفرق بين أنواع المسك ما ورد من التبت وهو أفضلها وأرفعها وما ورد من الهند وما ورد الصين ، وبين العنبر وأنواعه ومعادنه ، وبين العود وأنواعه وأصنافه وأوصافه من هندى وسمندورى وقمارى . كان يرى أن العود الهندى هو أرفع أجناس العود وأفضلها وأجودها وأبقاها على النار وأعلقها بالثياب ، ولم يكن ذلك العود معروفا لسواد الشعب بل كان لبعض الخواص من سادات مكة .

وكان أبو طالب يخرج فى قوافل قريش لينتقى أجود أنواع العطارة والطيب ، وكان يترك دكانه فى ذلك الوقت لبعض ولده ، وكان كهنة الكعبة يفضلون شراء البخور من عند أبى طالب ، فاللبان الذى يستورده من اليمن يفوق كل أنواع البخور الواردة من بلاد أخرى .

وقد وسعت مهنة العطارة معارفة عن البلاد فقد كان كل صنف من

أصناف العطارة ينسب إلى البلد الذى ورد منه ، فعرف التبت والهند ومدنها ، والصين ومدنها ، وفارس واليمن ومصر والشام ، وقد يسرت له رحلاته الاحتكاك بأهل البلاد التى نزل بها أو شد الرحال إليها ، فعرف بعض عادات الشعوب وطباع البشر ، واستمد من تجاربه حكمة قلما كانت تتوفر لعربى جاور الحرم ولم يخرج عن نطاق مدينته المقدسة .

وجاء العباس بن عبد المطلب إلى دكان أخيه يلتمس الخضاب لأبيه ، ووقف ينظر إلى ما يفعله أبو طالب فلم تنشرح نفسه إلى ذلك العمل ، فهو على الرغم من حداثة سنه يفضل أن يخرج فى قوافل قريش حتى يصبح من أغنيائها ثم يقرض أمواله بالربا إلى المحتاجين من أهل بلدته ، فهو أحق بذلك من بنى ثقيف الذين يأتون من الطائف لإقراض بنى المغيرة وغيرهم .

وأخذ العباس الخضاب وانساب فى السوق وهو يتلفت ، فما كان يهتم بحوانيت الأقمشة والأثاث والطرف الواردة من كل بلاد الأرض ، وكان يستوقف نظره الصيارفة والمرابون الذين يقرضون الأموال ، وقد يسر له حبه لهذه المهنة الوقوف على كثير من أسرارها ، بل كان ذلك الحب عونا له على الاجتهاد فى تعلم القراءة والكتابة عند الملتزم بين الحجر الأسود وباب الكعبة ، حتى يستطيع أن يبرم العقود ويوقع المواثيق فى مستقبل حياته .

وعاد العباس بالخضاب إلى أبيه فراح عبد المطلب يسود شعره الأبيض الذى ينعى إليه نفسه ، ثم خرج إلى الكعبة وذهب إلى حيث فراشه .

كان ندماء عبد المطلب وبنوه يجلسون حول الفراش لا يجلسون عليه إجلالا لشيخ بنى هاشم ، فقام محمد وجلس على الفراش فلما رأى

أعمامه ذلك أخذوه ليؤخروه عنه ، وإذا بعبد المطلب قد أقبل ورأى ذلك منهم فقال :

— دعوا ابنى فوالله إن له لشأنا .

وجلس عبد المطلب وأجلس محمدا معه على فراشه وراح يمسح ظهره بيده وهو يحدث أصحابه ، وقام محمد ليلعب فجعل عبد المطلب يختلس النظر إليه بين لحظة وأخرى فيشرق وجهه بالابتسام ، فقد كان يسره كل ما يصنع .

وذهب عبد المطلب ليتناول طعامه ، وقبل أن يمد يده إليه تلفت فلم يجد محمدا فقال :

— علىّ بابنى .

فأتوا به إليه فراح عبد المطلب وحفيده يأكلان فى جفان واحد .

وضاق محمد على الرغم من حداثة سنة بحياة الفراغ التى يحياها بمكة ، إنه كان فى بنى سعد يخرج مع إخوته يرعى غنم حليمة ، وكان يذهب مسرورا ويعود مسرورا فقد كان يجد متنفسا لذلك الحنان الفياض فى نفسه ، وكان إذا ما مسح بيده على حمل وديع تحركت فى قلبه الرأفة ، وإذا ضمه إلى صدره أو على يديه أحس أن فؤاده قد لان ، وأن رحابة وجدانه كانت تزداد على مر الأيام وتمتلىء رحمة وسلاما .

إنه يستشعر شوقا إلى السماء ونجومها ، وإلى الجبال ووديانها ، وإلى المراعى الخضر وانبلاج الفجر وغروب الشمس ، وإلى زفير النسيم وهبوب الرياح ، فهو محب لهذا الكون ، وإنه كثيرا ما يذوب فيه حتى يحس أن نبضات قلبه إن هى إلا بعض خفقات روح عظيمة تسرى فى كل الوجود .

وأفضى إلى جده برغبته فى رعى غنم أهله فرحب عبد المطلب وهو مسرور .

وتنفس الصباح وخرج محمد من داره بعد أن قبل أمه وانطلق إلى حيث كان رعاة بنى هاشم ، وذهب معهم ليرعى الغنم فى أجياد .

وراح يرعى الغنم ويتعلم الصبر والأناة ويقضى على ذلك الظلم الغريزى الذى ركّب فى بنى الإنسان ، فقد كان يرعى أضعف البهائم ويتعاطف معها ويفيض عليها من كنوز قلبه ويعيد شاردها إلى القطيع فى هدوء ، فعمرت السكينة نفسه وتسربل قلبه بالوقار .

وصار محمد سعيدا بحياته ، يرتشف حنان أمه إذا ما آوى إليها فى الليل أو فى النهار ، وينتشى فؤاده بالعواطف الرقيقة التى تسبغها عليه بركة الحبشية جارية أبيه عبد الله ، وينعم بالحنان الدافق الذى يغمره به جده عبد المطلب ، وبالحب العظيم الذى يحوطه به أعمامه .

وكان حمزة بن عبد المطلب أقرب أعمامه إلى قلبه فهو فى مثل سنه ، وكان يلعب معه إذا ما جاءت أمه لزيارة ابنة عمها آمنة بنت وهب ، وكان يحب عمه العباس فهو وإن كان أسن منه بسنتين فكثيرا ما كان يمضى أوقات فراغه معه وكثيرا ما ذهب معه إلى دكان عمه أبى طالب .

وحبه لعمه أبى طالب يفوق حبه لأعمامه الكبار ، فالساعات التى يقضيها فى رعاية أبى طالب كانت من أحب ساعات حياتــه ، كان يستشعر فيه حنان الوالد ، ذى القلب الكبير والحنان العظيم .

كان أبو طالب عطارا وكان شاعرا من أفصح شعراء بنى هاشم ، فإذا ما سمر أبناء عبد المطلب كان أبو طالب يقوم فيهم ويلقى قصيدة من قصائده فتتهلل الوجوه بالفرح ، فقد كانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر أتت

القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن بالأعراس ، وتباشروا به لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم .

ولم يكن أبو طالب أول شاعر فى بنى عبد المطلب فقد كان الزبير بن عبد المطلب شاعرا مفلقا شديد العارضة قذع الهجاء ولكن محمدا لم يكن يحس راحة إذا ما سمع هجاء عمه الزبير ، فى حين أنه كان يستريح إلى شعر عمه أبى طالب وإن كان لا يهتم بتعلم الشعر وما ينبغى له .

وكان يستريح إلى امرأة عمه أبى طالب ، فاطمة بنت أسد بن هاشم ابن عبد مناف كانت تهش له وتبش فى وجهه وترحب به ترحيبا صادقا إذا ما جاء لزيارة أبناء عمه ووالدهم العظيم ، وكان شيخ بنى هاشم يفطن إلى علاقة الحب التى بين محمد وعمه أبى طالب وزوجه فاطمة ، فكان يبارك ذلك الحب ويعمل على تغذيته ليكفل أبو طالب حفيده من بعده .

واستمر محمد فى رعى الغنم لأهله فى أجياد ، وإذا بالمراعى تذبل وتصفر ، وإذا بالجفاف ينتشر فى الوديان وعلى سفوح الجبال فقد بخلت السماء فانقطع المطر وباتت الإبل والغنم لا تجد ما تأكله ، ونزل بأهل مكة هم ثقيل فرأوا أن يفزعوا إلى آلهتهم يستسقون بها السماء ويطلبون ببركتها الماء .

وطب الكهنة إلى أصنام الآلهة وأطلقوا البخور وأقيمت الصلوات وارتفعت الدعوات وتجاوبت فى أرجاء مكة الابتهالات ، وراحت العيون ترقب السماء فإذا هى صافية لم تظهر فيها سحابة ولم ينسدل على وجهها نقاب ، فغامت وجوه أهل مكة بالأسى وانتشرت فى قلوبهم الأحزان .

وجاء السحرة يتوسلون بسحرهم ويرجون سقوط المطر ؛ فطالما انحبس فأنزلوه وطالما هطل حتى كاد ينزل بهم البوار فأوقفوه ، فأخذوا حطب السلع والعشر فحزموهما وعقدوهما فى أذناب بقرة وأضرموا فيها النيران وأصعدوها فى جبل قبيس قِبل المغرب ، واندفع الناس خلفها يستمطرون آلهتهم ويدعون أحر دعاء وقد شخصوا بأبصارهم إلى السماء يترقبون أن تبرق وأن يبدو سنا البرق كما بدا سنا النار التى تضطرم فى البقرة . وكتمت الأنفاس وراحت العيون تجول فى لهفة فى القبة الزرقاء وهى تفيض بالرجاء ، إلا أن النار أكلت البقرة وخمدت دون أن يبرق البرق أو يأتى الغيث ، فعاد الناس مطرقى الرءوس قد خاب سعيهم ومزقت الأحزان أحشاءهم .

ونزل بأهل مكة البلاء بعد أن راحت خيولهم وإبلهم وغنمهم تنفق من قلة الطعام ، إنها سنة جدب قد أذابت الشحم وأكلت اللحم وأنقت العظم . ودخلت رقيقة بنت أبى صيفى بن هشام زوجة عبد المطلب لتنام ، فبينا هى راقدة مهمومة إذا بها تسمع هاتفا يصرخ بصوت صحل يقول :

— ألا فانظروا منكم رجلا طوالا عظاما أبيض أشم العرنين له فخر يكظم عليه ، ألا فليخلص هو وولده وليدلف إليه من كل بطن رجل ، فليشنوا من الماء وليسموا من الطيب وليطوفوا بالبيت سبعا ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته ، ألا فليدع الرجل وليؤمن القوم وإلا فغثتم أبداً ما عشتم .

فأصبحت مذعورة قد قف جلدها ووله عقلها ، وراحت تقص رؤياها على من عندها فقال :

— هذا شيبة الحمد .

وذاع خبر تلك الرؤيا فى قريش فانقض الناس على عبد المطلب من كل بطن رجل ، واغتسلوا وانطلقوا إلى الحرم واستلموا الحجر الأسود وطافوا بالبيت سبعا ، ثم تأهبوا ليصعدوا إلى جبل قبيس مع عبد المطلب ومحمد بن عبد الله ، فقد أصر عبد المطلب ألا يبتهل إلى ربه إلا وحفيده معه ، فقد كان شيخ قريش يؤمن فى أغوار نفسه ببركة ابن عبد الله .

وراحوا يرتقون أبا قبيس وقد أحاط الناس بعبد المطلب وحفيده حتى قروا بذروة الجبل ، فقام عبد المطلب فاعتضد ابن ابنه محمداً فرفعه على عاتقه ، ثم قال فى صوت متهدج يفيض بالإيمان :

— اللهم سادّ الخلة وكاشف الكربة ، أنت عالم غير معلم ومسئول غير مبخل ، وهذه عبداؤك وإماؤك بعذرات حرمك يشكون إليك سنتهم ، فاسمعن اللهم وأمطرن علينا مريعا مغدقا .

وشخص محمد ببصره إلى السماء كأنما يسأل ربه أن يستجيب لدعاء الشيخ ، كان يستقبل السماء بكل كيانه ووجدانه وكل خلجة من خلجاته فقد كان فى أعمق صلاة وإن لم تتحرك شفتاه بكلمة .

وهبطوا فى الجبل فإذا بالرياح تسوق السحب ، وما أن عادوا إلى الحرم حتى انفجرت السماء بمائها فانفجرت العيون بدموع الفرح وخر الناس لله سجدا .

وقفت آمنة فى الشباك ترنو إلى الكعبة وترقب الطريق ، فهى تنتظر أوبة ابنها الحبيب لتفضى إليه بما عقدت عليه العزم من أمر السفر إلى يثرب لزيارة قبر زوجها الراحل ، فقد آن الأوان ليعرف محمد مثوى أبيه .

إنها حدثته عن أبيه أحاديث مقتضبة تتفق مع سنه ، ولكنها عزمت أن تقص على ابنها فى هذه الليلة قصة عبد الله ونذر عبد المطلب أن يذبح أحد بنيه لإلـٰهه إذا ما بلغ عددهم عشرة ، والضرب بالقداح على أبناء عبد المطلب وخروج السهم على عبد الله ، وفداء فتى قريش بمائة من الإبل ، ثم خروج عبد الله فى القافلة المنطلقة إلى الشام وموته فى دار من دور بنى النجار أخوال عبد المطلب .

إن ذلك الحديث ينكأ جرح قلبها ويجدد أحزانها ، ولكن كل ألم يهون فى سبيل أن يعرف محمد حقيقة منبته ، وأنه قد جاء من أشرف أبوين وأفضل حيين فى العرب.. زهرة وبنى هاشم ، وأن يعرف تلك الصلة التى تربط بينه وبين الخزرج فى يثرب ، فجده عبد المطلب حريص على أن تظل الأسباب متصلة بين بنى هاشم وبين بنى النجار أخواله ، وقد بان فى وجهه الرضا لما استأذنته فى أن تخرج بمحمد لزيارة قبر أبيه ، وأوصاها بأن تنزل فى دار النابغة فهو سيد أسياد بنى النجار ، وسيسره

أن يستقبل ابن عبد الله فى داره .

ودارت بعينيها فى المكان فأحست كأن أنفاس عبد الله تتردد فيه . انقضى ست سنوات وشهران منذ أن ودعها عبد الله قبل أن يخرج إلى الشام الوداع الأخير ولكن طيفه ظل فى البيت يغدو ويروح . إنه فى خيالها لا يريم ولا ينثنى ، وما أكثر اللحظات التى تناجيه فيها تحدثه عن ابنهما الحبيب ، وما أكثر ما زارها فى منامها وما أكثر ما ذرفت عليه الدموع .

وشعرت بعبراتها تسيل على خديها فمسحتها بظهر يدها ثم عادت ترصد الطريق ، فإذا بمحمد قد أقبل يتكفأ فى مشيته كأنما ينحدر على سفح جبل ، قد وسع من خطوه يسير دون أن يتلفت فلم يعرف منذ نعومة أظفاره التسكع بل كان يقصد هدفه على الصراط المستقيم ، فأضاءت جوانب آمنة بالنور ولعبت النشوة بأوتار قلبها ، فإذا بفرح دافق يملأ وجدانها ويتألق فى عينيها ويتوج شفتيها بابتسامة رقيقة عذبة حلوة تفيض بأنبل مشاعر الوجود .

وخفت آمنة لاستقبال الوافد الكريم ، ففطنت بركة إلى أن محمداً قد آب فانشرح صدرها وهرعت خلف سيدتها لترحب بالصبى الذى تفتحت له نفسها منذ أن احتضنته فى تلك الليلة التى ولد فيها ، وبدا كأن الكون قد أشرق بالنور .

وضمت آمنة ابنها إلى صدرها فى حب عميق ، وظلت بركة ترقبهما فى انفعال شديد حتى بللت الدموع عينيها ، وفطن الصبى إلى وجود بركة فذهب إليها وارتمى فى حضنها فقبلته وراحت تشمه فى نشوة ، فقد

كان ينبعث منه أريج أطيب من المسك وأزكى من كل ما فى الأرض من بخور .

ووضع الطعام وجلست حوله آمنة وبركة ومحمد ، فكانت آمنة تقدم إلى حبيبها أفضله ولكن محمداً لم يكن ليحفل به ، فهو يتناول منه ما يقيم أوده وكثيراً ما كان يكتفى ببضع تمرات ، وكانت آمنة تعجب من أمره فهو ينمو ويغلظ ويشب شبابا لا يشبه من كان فى مثل سنه من الغلمان ، وإن كان قليل الطعام .

وذهبت آمنة ومحمد إلى غرفتهما ، وراحت الأم تقص على ابنها قصة هاشم بن عبد مناف وذهابه إلى يثرب وزواجه من سلمى الخزرجية ومولد عبد المطلب عند أخواله بنى النجار ، وموت هاشم وذهاب المطلب إلى يثرب وعودته بابن أخيه إلى مكة ، وتولية عبد المطلب السقاية والرفادة وحفر زمزم وولادة أبيه عبد الله .

واستمرت تروى قصتها وقصة الذبيح عبد الله فى تأثر وانفعال ومحمد يصغى إليها فى انتباه ويلقى عليها أسئلة ذكية تنم عن رجاحة عقله . كان فى السادسة من عمره ولكنه بدا فى عينى أمه رجلا على استعداد لأن يحمل على كتفيه أضخم المسئوليات ، وأنهت حديثها معه بأنهما ذاهبان إلى يثرب لزيارة قبر أبيه ، ولتوطد الأسباب بينه وبين أخوال جده من بنى النجار فقد يفزع إليهم يوما لينصروه كما نصروا جده يوم أن أراد عمه نوفل أن ينتزع منه شرف السقاية والرفادة ، فجاءوا إلى مكة وأيدوا حق ابن أختهم وقضوا على نوازع الطمع التى كانت قد تحركت لسلب حق عبد المطلب .

وجهزت آمنة راحلتين ، راحلة اعتنت أشد العناية بهودجها الذى صنع من أغصان الشجر لتحمى محمداً الحبيب من لفح الشمس وعصف الرياح . إنه سيكون فى رعايتها على ظهر تلك الراحلة يؤنسها طوال الطريق ويملأ جفاف حياتها نوراً وأملا ، وراحلة لبركة وما يحتاجون إليه من زاد طوال الرحلة حتى يبلغوا يثرب .

وباتت آمنة تنتظر خروج القافلة المنطلقة إلى يثرب فى لهفة فقد كانت فى شوق لزيارة عبد الله لتذرف عليه دموعا لم ترقأ مذ جاء إليها الناعى يحمل إليها أسوأ نبأ قرع أذنيها طوال حياتها . إن أباها وهبا قد مات وقد أحست حزنا لفراقه ولكنها لم تحس تلك النار التى تلظت فى أحشائها بعد أن نعى إليها عبد الله . كانت بضعة من وهب بيد أن ذبيح قريش كان على الرغم من قصر العهد الذى عاشاه معا الروح الذى يخفق بين ضلوعها .

وراح محمد يرقب ذلك اليوم الذى ستخرج فيه القافلة من مكة إلى المجهول فى أمل ورجاء . إنه حمل فى يومه الثامن إلى أرض هوازن وتفتحت عيناه أول ما تفتحت على خيام بنى سعد وعلى الصحراء المترامية التى تمرح فيها حرية لا تحد ، وعلى الجبال السامقة الجرداء بوجهها العابس الذى ينطق بقسوة الحياة ، فراح منذ أن تعلم المشى يحاول أن يقهر تلك الجبال ، وقد استطاع أن يجلس على ذروتها ويرنو إلى السماء فى تطلع ورجاء كأنما تهفو نفسه القوية إلى أن تربط الأسباب بينها وبين ما فوق السموات قبل أن تعود به أمه حليمة إلى أمه آمنة بنت

وهب .

تفتح قلبه فى بنى سعد لأخيه عبد الله ولأخته أنيسة وأخته الشيماء ولأمه حليمة ولأبيه الحارث وغنمات بنت أبى ذؤيب . إنه لا ينسى تلك الأيام السعيدة التى عاشها فى كنفهم . وتفتح قلبه الكبير بعد أن عاد إلى مكة لعمه حمزة وعمه العباس ولصبيان بنى هاشم ، و لم ينسه أهله إخوته الذين شب بينهم فقد كان يحدث آمنة عنهم حديث وفاء وحب ، وما دار بخلده فى تلك الأيام أنه قد شرفهم برضاعته فيهم .

وإن قلبه لعلى أهبة لأن يتفتح لهؤلاء القوم الذين سيشدون الرحال إليهم ، هؤلاء الذين لم تقع عيناه عليهم ولا يعرف الطريق إليهم ، يكفى أن أباه قد لفظ أنفاسه بين أيديهم وأنه قبر فى أرضهم ليحبهم ، فقد كان ذا قلب غنى بمشاعر طيبة رحيمة تفوق كل ما فى الأرض من كنوز .

إنه يحب كل ما يمد إليه عينيه ، السماء بنجومها ، والأرض بجبالها ووديانها ، والنباتات بأشجارها وعشبها ، والطيور أليفها وجارحها ، والحيوان صغيره وكبيره ، والإنسان طيبه وشريره ، فهو يتناسق مع الوجود ويتعاطف مع الكون ويشتهى أن يضم العالم كله إلى صدره أو يحتويه بين ضلوعه .

وحانت ساعة الرحيل فقافلة قريش المنطلقة إلى يثرب قد أناخت خارج الحرم تنتظر إذن عبد المطلب ببدء الرحلة المباركة الميمونة ، فراحت آمنة تلقى على دارها نظرة وداع وإذا بأحداث ذلك اليوم الذى جاءت فيه إلى الدار مع عبد الله أول مرة تطفو على سطح ذهنها . إنها ترى عبد الله وهو يحنو عليها يسير بها فى الحجرات ليريها عش الزوجية الجميل ، كانت سعيدة غاية السعادة.انطلقت فى اليوم أمانيها وأحلامها

من عقالها فراحت تحلق مجنحة فى أجواء مستقبلها ، فرأت عبد الله فى مثل سن عبد المطلب يجلس على فراشه فى ظل الكعبة وحوله بنوه وقد بلغ عددهم عشرة !

كانت رؤى عذبة حبيبة ، وكان عبد الله يغذيها بأعذب التصورات ، ولم يخطر لها على قلب فى تلك الأيام أن الموت يتربص لفتى الأحلام ليقوض كل ما بنت فى الهواء ، ذهب عبد الله دون أن يئوب وترك فى أحشائها جنينا كادت تتلفه الأحزان ، ولكنه بقى لها ليكون عزاء عن قسوة الأيام .

كانت تحلم بأن تنجب عشرة لعبد الله ولكنها لم تلد له غير محمد ، وإنها لترجو أن يكون محمد خيرا من عشرة ، وأن تتحقق تلك الهواتف التى سمعتها ليلة أن حملت به وليلة أن وضعته أن يصبح سيد هذه الأمة ، وفاض تأثرها فضمت محمدا إليها وسالت عبراتها .

وغادرت آمنة الدار ومحمد فى يدها وبركة من ورائها ، وما أن أغلق الباب خلفها حتى انقبض صدر آمنة وأحست كأن باب حياتها قد أغلق . إنها كانت متلهفة إلى الإنطلاق إلى قبر الحبيب ، ولكن ما أن أوشكت الرحلة على الابتداء حتى استشعرت قلقا ورهبة لا تدرى لهما سببا ، ترى أتذهب دون عودة كما ذهب عبد الله ، أم أنها تخشى أن يلحق ابنها الحبيب مكروه فى الطريق ؟

وهبطوا إلى الطريق الذى يقود إلى باب إبراهيم ولاحت لعيونهم الكعبة وبئر زمزم وجبل قبيس ، فراح محمد ينظر إلى البيت العتيق وقد تهلل وجهه بالفرح فسيطوف بالحرم ثم يلحق بالقافلة التى ستحمله إلى قبر أبيه وأخوال جده عبد المطلب من بنى النجار وإلى أناس سيحبهم

ويحبونه . وتحركت شفتا بركة بالدعوات بينا التفتت آمنة خلفها وألقت على دارها نظرة وداع وفى الحلق غصة وفى العينين دموع .

واستلم الثلاثة الحجر الأسود ثم راحوا يطوفون بالبيت . كانت آمنة تبتهل إلى رب البيت أن يحفظ محمداً وأن يبارك لهم فى سفرهم وأن يعيدهم سالمين ، وكان محمد يصغى إلى دعوات الطائفين بينا كانت بركة تسير خلفهما وقد لاح عليها وجوم فقد شغل ذهنها بالرحلة ومتاعبها عن الدعوات والابتهالات والمناجاة ؟

وانتهوا من طواف الوداع فذهبوا إلى حيث أناخت القافلة واتجهوا إلى راحلتيهما ، وقبل أن يعتلوا ظهريهما جاء عبد المطلب يقوده عبده بعد أن ذهب بصره وحوله بعض بنيه ليودعوا آمنة ومحمد بن عبد الله .

مد عبد المطلب يده ومررها على رأس حفيده فى رفق وحنان ، ثم احتمله بين ذراعيه وضمه إلى صدره وقبله فى حب وراح يشمه فى وجد كأنما يريد أن يملأ روحه بريحه ما دام لا يستطيع أن يملأ منه عينيه .

وراح عبد المطلب يحدث الأرملة الشابة فى صوت متهدج يفيض رحمة ، يوصيها بمحمد ويحملها سلامه إلى أخواله من بنى النجار ثم يتمنى لها أطيب التمنيات . وحان أوان الرحيل فتقدم أعمام محمد ليودعوه فأحست آمنة رقة تكتنفها فسالت من مآقيها العبرات .

وسارت القافلة فالتفتت آمنة خلفها وألقت نظرة طويلة على الكعبة فاستشعرت وحشة وكأن يداً قوية تهصر فؤادها ، وعجبت لذلك الحزن الذى ران عليها ولتلك الوساوس التى انبعثت فى صدرها تفح فحيح الأفعى تهمس بأن نظراتها التى تلقيها على الوادى المقدس هى آخر ما بينها وبين ذلك الوادى الحبيب ؛ إنه فراق لا لقاء بعده .

وحاولت آمنة أن تنتزع نفسها من تلك المشاعر التى تهجس فى وجدانها فراحت تداعب محمداً الذى كان إلى جوارها فى هودجها وتبش له وتحادثه وتصغى إلى حديثه ، إلا أنها ألفت نفسها تلتفت خلفها وترنو إلى جبل قبيس رنوة طويلة كأنما تقبله بعينيها قبلة فيها رحيق الروح وذوب النفس وكل ما فى الفؤاد من عواطف الرقة والتعاطف والوداد .

وفطنت بركة إلى كثرة تلفت سيدتها فحسبت أنها تكثر من التلفت لتعود ، فقد كان القوم يعتقدون أن كثرة التلفت توجب العودة ، فرفت على شفتى بركة بسمة هادئة وراح قلبها يبتهل إلى الوجود أن يرحم ضعف الأم ووحيدها .

وسرت القافلة فى الكون العريض ومحمد يرعى نجوم السماء فى الليل ويبتهج قلبه للشروق وتتهلل نفسه بالفرح وهو يرقب الغروب ، إنه يذوب فى الوجود ويتناسق مع كل ما حوله ويستشعر بتعاطف عجيب بينه وبين كل ما يمد إليه عينيه من رمال وصخور ونخيل وآبار وعيون وسادة وعبيد .

واتجهت القافلة ناحية ساحل البحر ، ودب فى الرجال والنساء نشاط ، وارتفع صوت الحادى يحث الإبل على الإسراع ، والتفت محمد بعينيه الجميلتين إلى أمه وكان فيهما تساؤل كأنما يقول لها : فيم هذا النشاط ؟ وفطنت الأم إلى ما يريد فقالت :

ــ مناة . إلهة الأوس والخزرج .

وكست سحابة من الأسى وجه آمنة بنت وهب فذكر « مناة » أعاد إلى ذهنها فكرة الموت ، فمناة إلهة المنايا ومخبآت القدر ، ترى فيم هذا الخوف الذى يجتاحها ؟ وما الذى يخبئه لها القدر فى رحلتها ؟ إنها منقبضة

النفس منذ أن غادرت دارها فى مكة ولا تدرى لذلك الأسى من سبب . أذهابها إلى قبر الحبيب عبد الله هو علة ذلك الحزن والانقباض ؟! أنكأت الرحلة جراحات القلب والنفس والوجدان ؟! كان عبد الله نور العينين وهواء الرئتين وروح الروح فلا جرم أن سحت الدموع واكتأبت النفس وانقبض الصدر وغلف كل وجودها سواد .

وبالقرب من الساحل أناخت القافلة بين المدينة ومكة ، وأفصح الحديث الدائر بين الناس أنهم بناحية المشلل بقديد ، وما كادت أقدام القوم تستقر على الأرض حتى انسابوا فى خشوع ناحية صخرة منصوبة على ساحل البحر قد وقف عندها كهان يحرقون البخور ويتمتمون بصلوات .

ونظر محمد إلى آمنة ، فما رأى من قبل مثل هذه الصخرة الموقرة التى لها سدنة يعظمونها وأناس ينحرون عندها ويطوفون بها ويعلقون عليها الهدايا ، فقالت له :

— إنها مناة .

كان هذا الصنم معظما عند الأوس والخزرج والأزد وغسان ، فكانوا يحجون إلى الكعبة ويقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رءوسهم ، فإذا نفروا أتوا صنم مناة وحلقوا رءوسهم عنده وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماما إلا بذلك .

وكانت قريش وهذيل وخزاعة وأزد شنوءة وغيرهم من الأزد تعظم ذلك الصنم ، بل كانت كل قبائل الحجاز تعظمه ، فراح رجال القافلة يطوفون حوله ويهدون إليه الهدايا ومحمد ينظر من بعيد إلى جموع الخاشعين المبتهلين لصخرة من الصخور .

إنه لا يدرى ما الذى منعه من أن يطوف مع الطائفين وأن يخر ساجدا مع الساجدين ، كل ما يدريه أن صدره لم ينشرح لذلك الذى يفعله قومه وأنه لم يحس وهو ينظر إلى الصنم تلك الإحساسات المشرقة بالفرح التى يستشعرها كلما سار فى الكون ومد عينيه إلى السموات والأرض وما بينهما . إنه كلما هام فى الوجود أحس أن روحا تسرى فيه بينا لا يرى فى ذلك الصنم إلا حجرا ميتا بلا روح .

واستأنفت القافلة رحلتها وراحت آمنة تحدث محمدا الحبيب عن آلهة قومه ، وأن للكون إلها عظيما خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر وأنزل المطر من السماء أحيا به الأرض بعد موتها ، وأن الأصنام التى يعبدونها بناته يشفعن للناس عنده . وظل محمد يصغى إلى أمه حتى لاحت أرباض يثرب .

وانسابت القافلة بين النخيل فى الواحة الخضراء حتى بلغت منزلها ، فأناخ القوم رواحلهم بينا انطلقت آمنة ومحمد وبركة الحبشية على بعيريهما إلى دار النابغة أحد سادات بنى عدى بن النجار .

وراح محمد يتلفت وهو فى الطريق يديم النظر إلى الآطام المنتشرة فى كل مكان ، وكأن المدينة ميدان قتال ، ففى كل حى فيها تقوم حصون تنسب إلى أصحابها من الأوس والخزرج وقبائل اليهود ، وبين تلك الحصون بنيت الدور والأسواق ، وقد مس أذنيه خرير الماء كأنه صوت ملائكى أتى من السماء .

وخفق قلب آمنة خفقات شديدة ، إنها على بعد خطوات من قبر الحبيب ، قبر عبد الله الذى كتب عليه أن يموت غريبا قبل أن تكتحل عيناه برؤية ابنه الذى هفت إليه روحه قبل أن يراه ، والذى طالما سبحا

فى بحور الخيال يتحدثان عن ذلكم الوافد الكريم الذى بشرت به آمنة لما حملت به ، ولكن لم يبلغ بهما الخيال أن يتصورا أن هذه المدينة التى ولد فيها عبد المطلب وقبر فيها عبد الله ستحمل يوما اسم ابنهما الحبيب ، وأن منها سوف يشرق نور الرسالة التى سيجىء بها محمد بن عبد الله ليغمر العالمين .

ووقفت الراحلتان أمام دار النابغة ، فخف بنو النجار لاستقبال آمنة وحفيد ابن أختهم عبد المطلب ، ورحب النسوة بزوجة عبد الله ، وما أن دخلت آمنة ومحمد وبركة ليستريحوا حتى تجددت أحداث وأحزان ، أحداث مضت عليها ست سنوات وأحزان نامت تحت رماد الزمان ، فقد راح النسوة يقصصن على القادمين كيف حمل عبد الله وهو مريض إلى هذه الدار ، وكيف ظل أكثر من شهر وهو مسجى فى الفراش ، وما دار بينه وبين أخيه الذى جاء من مكة ليعود به من حوار ، والتفتت امرأة من بنى عدى بن النجار إلى آمنة وقالت لها إنه كان يذكر اسمها على الدوام ، فطفرت الدموع إلى مآق الأرملة التى لم يجف لها دمع مذ ذهب عبد الله .

والتقط القادمون من الصحراء أنفاسهم ثم قاموا ليزوروا قبر فتى قريش الذى دفن فى دار النابغة ، فانطلقوا وقد خيم عليهم وجوم ، وامتقع وجه آمنة واشتد وجيب فؤادها وثارت عواطفها حتى أنها قبضت على محمد بيد متشنجة ، وأحست بالأرض تميد تحت قدميها فاستندت بيدها الأخرى على بركة ، وراحت تتقدم فى تؤدة فقد أشفقت على نفسها من هول ذلك اللقاء .

كان خيال عبد الله يملأ أقطار المكان ، إنها تكاد تشم ريحه ، وتحس

أنفاسه ، وتشعر بمس أنامله ، وتسمع نجواه . إنه هنا فى خيالها .. فى ضميرها .. فى سويداء فؤادها ، إنه لم يمت ، إنه حى فى أعماقها ، إنه نبضات قلبها وخفق وجدانها .

ولاح لعينيها قبر الحبيب ، وتبخرت الأوهام وانجلت لها الحقيقة المرة . إن عبد الله هنا تحت الثرى ، وفارقها فراقا ليس بعده لقاء ، فأحست بالأسى يعتصر فؤادها وبالحزن يجثم على صدرها وبوقدة نار فى حلقها ، وأرادت أن تكبح عواطفها رأفة بابنها الحبيب ولكن ذلك كان فوق طاقة البشر فارتمت على القبر تبكى أحر بكاء .

وخنقت بركة عبراتها فانتحبت ونشجت ، وملأت الرحمة قلب محمد فبكى لبكاء أمه ، ثم هرع إليها وارتمى معها على قبر أبيه يذرف الدموع السخينة ، فضمته آمنة إلى صدرها وسالت عبراته وعبراتها لتروى رمس الفتى الغريب الغالى المتعطش للحنان .

— ٥ —

توطدت الصداقة بين محمد وغلمان بنى النجار فكان يخرج معهم إلى المروج وإلى جنات يثرب فيرى المزارع وقد نسج الربيع لها ثيابا خضراء وصفراء بديعة اللون ، تأخذ العين وتشرح الصدر وتبده الوجدان بآيات الأرض ، وقد رأى الباقلىّ كاللؤلؤ المنضد فى طى أصداف من الزبرجد ، وأوراق ورده خواتم من لجين فصوصها خرزات سود ، وسنابل الشعير كأنها سلسلة مضفورة من عنبر ، والخيار كأن ظاهره زبرجد أخضر ، كأن باطنه من البلور . ورأى جداول الماء وقد انعكست عليها أشعة

الشمس فبدت كفضة تموج بالتبر ، فكان يقف الساعات يرنو إلى الأعناب والنخيل وأوراق الشجر والماء الجارى فى القنوات فلا يتحرك خياله تحرك خيال الشعراء بل كان يمتص رحيق الحكمة من نبض الوجود .

وراح يضرب مع أبناء أخواله فى جنبات المدينة يصغى إلى أحاديثهم عن الحروب التى نشبت بينهم وبين أعدائهم من الأوس ، فما كان يمر يوم دون أن يتشابك رجل من الخزرج مع رجل من الأوس ، وكان القتال ينشب بين الحيين لأتفه الأسباب .

وكانت الآطام منتشرة فى كل مكان فكان صبيان بنى النجار يذكرون لمحمد القادم من مكة اسم كل أطم يمرون به ويقولون :

ـــ هذا أطم بنى الأشهل يقال له « واقم » .

ولاح بالقرب من الأطم سعد بن معاذ فازور الغلمان عنه فهو من أعدائهم الأوس ، وكانت العداوة بين الحيين تغرسها الأمهات فى قلوب الصبيان مذ أن تتفتح عيونهم على الحياة .

ـــ « الريان » أطم بنى حارثة .

وبصق صبى من الصبيان على الأطم فهو من آطام الأوس ، وعند قباء وقف الصبيان طويلا ينظرون إلى الآطام الكثيرة المنتشرة بها وكانت كلها للأوس وكان أعظمها أطم « الشنيف » وكان لبنى عمر بن عوف ، و « الصياصى » ، و « المستظل » وكان لأحيحة بن الجلاح الجحجبى ، وقد التصقت ألسنة الغلمان بأفواههم و لم تتحرك بالسباب كلما مدوا أعينهم إلى آطام أحيحة ، فقد تزوج أحيحة الأوسى من سلمى الخزرجية لينشر السلام بين القبيلتين ، وقد أنجب منها ذرية لتكون جسر

المحبة بين الأوس والخزرج ، ولكن ذلك الزواج قد فصم وتزوجت سلمى من بعده هاشم بن عبد مناف وأنجبت منه عبد المطلب جد محمد بن عبد الله ، ذلك الفتى الذى جاء مع أمه من مكة ليزور قبر أبيه وليجدد الصلات الطيبة بين قريش وبنى النجار أخوال شيخ بنى هاشم .

كان غلمان بنى النجار يعرفون ذلك التاريخ حق المعرفة فكانوا لا يسبون أحيحة على الرغم من انفصام الزواج الذى كان بينـه وبين سلمى ، فهم أخوال أبناء أحيحة الذين أنجبهم من الخزرجية ، وكان العرب ينظرون إلى الخئولة نظرة احترام وإجلال .

ولاح على البعد أطم أسود ، فأشار إليه أحدهم وقال :

ـــ هذا « الضحيان » ابتناه أحيحة بن الجلاح ، بناه أولا من حجارة بيضاء فسقط ، ويقول فيه :

طويل الـرأس أبيضُ مشْمَخِـر ... لـو ان المرء تنفعــه العقـــول
وقد أعددت للحدثـان حصنـا ... يلـوح كأنــه سيـف صقيـــل

وراح محمد يضرب فى جنبات يثرب مع غلمان بنى النجار يمشى فى أسواق المدينة ويتفرس فى وجوه يهود بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع ، ويشاهد أعمال الصياغة والحدادة التى يقوم بها اليهود ، وينطلق إلى جبل أحد فيذكره بجبل قبيس ومكة الحبيبة والبيت العتيق .

كان محمد يخرج كل يوم مع غلمان بنى النجار يسرى فى يثرب كفراشة طليقة وقد فتح عينيه وأذنيه وفؤاده يصغى إلى أحاديث القوم ، حتى إذا ما بلغ ذات يوم ثَنِيَّة الوداع راح غلام يروى ما سمعه فى داره عن سبب تلك التسمية ، قال :

ـــ كان لا يدخل المدينة أحد إلا من هذا الطريق وحده ، وكان عليه

أن ينهق كالحمار عشرة أصوات فى طلق واحد ، فإن لم يعشر بها مات قبل أن يخرج منها ، فإذا وقف على الثنية قيل : قد ودع ، فسميت ثنية الوداع ، حتى قدم عروة بن الورد العبسى فقيل له : عشر بها ، فلم يعشر بها وأنشد يقول :

لعمرى لئن عشرت من خشية الردى

نهاق الحمـــار ، إننـــى لجزوع

ثم دخل فقال : يا معشر يهود مالكم وللتعشير ؟ قالوا : إنه لا يدخلها أحد من غير أهلها فلم يعشر بها إلا مات ، ولا يدخلها أحد من غير ثنية الوداع إلا قتله الهزال . فلما ترك عروة التعشير تركه الناس ودخلوا من كل ناحية .

وكان محمد يعود بعد الطواف فى يثرب إلى العوالى شرق وادى بُطحان حيث منازل الخزرج وآطامهم ، وكان يمر بأطم المزدلف الذى بناه مالك بن العجلان الذى قتل ملك اليهود ويلقى سمعه إلى الغلمان الذين يروون قصة مالك . كان محمد يتطلع إلى بيوت بنى سالم بن عوف وآطامهم « الشماخ » و « القوافل » حتى يصل إلى دور بنى النجار فيدخل ليلقى أمه آمنة فيرتمى فى أحضانها ويقص عليها ما رآه فى يومه فى مدينة أخواله ، وكانت آمنة تصغى إليه منشرحة الصدر متفتحة النفس تغمرها سعادة عارمة وهى تملأ منه عينيها ، فقد كان قرة نفسها و فؤادها .

وتعلم محمد العوم فى بئر بنى عدى بن النجار وأحسنه ، وكان ينطلق إلى بركة جارية أبيه عبد الله ويقص عليها خواطره ، فكانت ترنو إليه فى حب وكثيرا ما كانت تجوس معه خلال أسواق اليهود وتلحظ تفرسهم

فيه ، فكانت توجس منهم خيفة فتضمه إليها كأنما تحميه من عدو يريد به شرا .

وكان مع غلمان من أخواله يلاعب أنيسة جارية من الخزرج على أطم عدى بن النجار ، وعلى الرغم من حداثة سنه فقد كان يمتاز بالنبل الإنسانى : يعاون من يحتاج إلى المعاونة ، ويرق قلبه للضعيف ، ويمتلىء فؤاده بالسعادة إذا ما قام بعمل يسعد الآخرين ، فقد كان يحس فى أعماق وجدانه أنه إنما وجد فى هذه الحياة ليبذل نفسه رحمة للناس ، وأن سعادة ذاته مستمدة من إسعاد غيره من كل ذى كبد رطبة .

نشأ محمد فى ثرى مكة ولكنه منذ أن ولد لم يستقر بها طويلا ، حمل إلى البيداء لتهيم روحه فى معبد الوجود وتتصل بالسماء وتحاول أن تسمو إلى ما فوق السموات ، ثم عاد إلى أهله وجلس فى ظل الكعبة مع ندماء جده عبد المطلب ، إلا أنه ضاق بحياة الفراغ فذهب يرعى الغنم ليسرى فى الكون الذى يحبه حرا طليقا من قيود المجتمع المكى . وما انقضى على عودته سنة أو سنتان حتى ذهب إلى يثرب ليزور قبر أبيه ويعايش تيار الفكر فى المدينة فقد كانت سعادته مذ أن تفتحت براعمه فى المعرفة ونشدان الخير الأسمى .

كانت بذور الحكمة تلقى فى أغوار ضميره بالاستغراق فى الفكر والنظر إلى الكون واستشفاف الحقائق ومحاولة الاتحاد مع الطاقة الروحية التى تخفق فى الوجود ، وأن ينبثق فى ذات نفسه نور من النور .

وتقضت الأيام وآمنة راضية بمقامها إلى جوار قبر الحبيب ، تستشعر إحساسا غامضا أن عبد الله قد خرج فى قوافل قريش وأنه عما قريب سيئوب وأنهما سيلتقيان لقاء لا فراق بعده . وكان ذلك الشعور يحبب

إليها يثرب والمكث فيها ، ولو طاوعت قلبها لبقيت إلى جوار رمس عبد الله ما دامت الحياة ، ولكن إحساسها قبل محمد القرشي الذى ينبغى أن يشب فى أهله جعلها تضحى بالراحة النفسية التى تكتنفها لتعود به إلى مكان ، حيث الوحدة والألم والفراغ .

كانت آمنة تقاسى نفس العواطف التى قاستها سلمى بنت عمرو الخزرجية يوم أن جاء المطلب يلتمس منها أن يعود بابن أخيه شيبة بن هاشم إلى مكة ، كانت تتنازعها عاطفتان : عاطفة الأمومة التى تنشد أن تعيش مع ابنها الحبيب فى دعة وسلام وأمان مؤثرة نفسها على ما فيه مصلحة ابنها ، وعاطفة إيثار ترغب فى أن تفتح أمام الحبيب سبل الحياة ليبلغ ذروة ما ينتظره من مجد فى قومه وإن قاست من مرارة الفراق وألم العودة إلى مهد الذكريات .

وعادت قافلة قريش من الشام فخف أهل يثرب لاستقبالها والترحيب بها ، ونكأت العودة جرح قلب آمنة وأعادت إلى ذهنها ذكريات ذلك اليوم الذى عاد فيه فتيان مكة ولم يؤب معهم فتى قريش . كان يوما قاسيا عصف بكل الأمانى والآمال ، وإنها لتحس مرارته فى نفسها حتى هذه اللحظة التى تمد عينيها فيها إلى العائدين من بصرى متهللين بالفرح مفعمين بالرضا والسرور .

وطفرت من مآقيها دمعة ، ومن خلال غيام العبرة رأت محمدا الحبيب يهرول نحو القافلة ليرحب بالعائدين ، فخفق قلبها خفيقا ناعما أشاع الغبطة بين جوانحها ، فرفت على شفتيها بسمة تجمعت فيها كل رقة الوجود .

وغاص محمد فى القافلة ، وراح فتيان الأوس والخزرج يغدون

ويروحون بين الإبل التي حنت إلى الراحة ، ولعل كتف محمد قد احتكت بكتف سعد بن عبادة أو سعد بن معاذ أو حسان بن ثابت أو عمارة بن حزم أو سعد بن زرارة أو أبى أيوب أو عبد الله بن أبى بن سلول أو أى من الرجال الذين سينصرونه أو اليهود الذين سيناهضونه ، ولعل بعضهم قد تفرس فى وجه الصبى ، ولكن الذى لا شك فيه أنه لم يخطر على قلب أحدهم روعة الأحداث التى ستكون بينه وبينهم ، وأن فيض إيمانه سينبعث من هذه الواحة النابضة بالإحن والعداوة ليغمر العالمين .

وهرع رجال قريش إلى أسواق يثرب يشترون من اليهود الحلى لأزواجهم وبناتهم ، ويدفعون لهم بعض ما عليهم من ديون وفوائد ، ويمتارون ما يحتاجون إليه من تمر . وخف الشباب إلى البغايا صاحبات الرايات الحمر يلتمسون اللذة وينشدون تلك النشوة التى يحسونها بعد شرب ما أتوا به من الشام من خمور ؛ إنها ليالى صاخبة مترعة باللهو والمجون .

وراحت بركة وعبيد بنى النجار يعدون راحلتى آمنة للعودة بعد أن مضى شهر على وفود آمنة وابنها وجارية عبد الله ونزولهم بدار النابغة . إنه شهر مر كلمح البصر وإن تعلم فيه محمد العوم وأحسنه ، وطاف بأحياء يثرب ورأى آطام الأوس والخزرج واليهود ، واشتد فى سعيه حتى دخل خيبر وأحس ما بين العرب واليهود من عداوة ، ولمس العداوة التى بين الأوس والخزرج والتشاحن الذى بين اليهود واليهود .

ووافى يوم الرحيل فذهبت آمنة ومحمد وبركة إلى قبر عبد الله ووقفوا برهة وقد نكسوا رءوسهم وغامت وجوههم بالأسى ، ثم ألقوا على القبر نظرة وداع وانسلوا خارجين .

كان الجملان قد أنيخا أمام دار النابغة بن عدى بن النجار . وكان غلمان بنى النجار واقفين لتوديع محمد الصبى الذى جاء من مكـة ليستولى بدماثة خلقه ورجاحة عقله على أفئدتهم فقد أحبوه من كل قلوبهم ، وكانت أنيسة الجارية الخزرجية التى طالما لعبت معه على أطم بنى عدى بن النجار واقفة بينهم وقد ترقرقت فى عينيها الدموع .

وركبت آمنة راحلتها ، وخف محمد واعتلى ظهر الجمل وما كاد يستقر إلى جوار أمه حتى راح يقلب وجهه فى الغلمان الذين جاءوا ليودعوه . إن قلبه تفتح لهم وإنه ليبتسم لهم بكل وجدانه وقد انشرح صدره ، فهو يتهلل بالسرور ويمتلىء رحمة كلما أحس بترقرق العواطف النبيلة فى أسارير البشر .

ووقعت عيناه على أنيسة ورأى العبرات فى مآقيها ، فأحس رقة تكتنفه ودموعا تبلل روحه وإن لم تطفر من مآقيه ، وحركت الجارية ذكرياته فإنها كانت على الدوام تذكره بأخواته أنيسة والشيماء وعبد الله أبناء حليمة السعدية . إنه لم ينس تلك الأيام الحلوة التى قضاها فى بنى سعد فى هوازن ، ولن ينسى الأيام التى أمضاها فى يثرب ، وسيذكر على الدوام أخواله من بنى النجار ، وأبناء أخواله ، وقبر أبيه ، وآطام الأوس والخزرج واليهود ، وأسواق الصياغة والحدادة ، وأنيسة التى لعبت معه على أطم بنى النجار .

وانطلقت الراحلتان إلى حيث كانت قافلة قريش ؛ فى إحداهما آمنة الشابة الصغيرة وقد ذبل لونها لا يدرى الناظر إليها علة ذلك الذبول أهو من فرط حزنها على حبيبها الثاوى فى دار النابغة أم أصابتها حمى يثرب ، وإلى جوارها محمد يصافح بعينيه كل الوجود ويتفتح فؤاده لرحيق

الحكمة الذى يكاد أن يكشف النقاب عن وجه المجهول ، وفى الأخرى بركة الحبشية ترقب سيدتها وقد خنق قلبها بالخوف ، فامتقاع لون سيدتها جعلها تستشعر رهبة وقلقا .

ورحلت قافلة قريش مخلفة وراءها يثرب وإن كانت ذكريات أيامها ولياليها ماثلة فى الأذهان ، فزيارة قبر عبد الله أهاجت قسوة الفراق التى كانت قد نامت على مر السنين . إنها تستشعر أن فتى قريش قد مات الساعة ، فتجددت لوعة أساها ونزل بصدرها حزن عميق وانسدلت على آمالها المشرقة أسجاف من اليأس المرير ، ولولا التصاق محمد الحبيب بها لحسبت أن حياتها لم يعد له هدف ولا معنى .

والتفت محمد بوجهه إلى أمه وراح يحدثها والقافلة تسرى فى الكون العريض حديثا يفيض رقة وأملا عن أيامه فى يثرب ، وعن أصدقائه غلمان الأوس والخزرج ، فما تأثر بالعداوة الناشبة بين الحيين ، وعما رأى فى بنى قريظة وبنى قينقاع وبنى النضير من عادات اليهود ، فأحست آمنة أن حديثه الشجى يغسل أدران الشجن ، وأن صحراء نفسها قد بذرت فيها بذور أمل بسام ، وأن غيث ابنها الحبيب قد أحياها بعد موتها ، فانفرجت شفتاها عن بسمة بددت الغيوم التى رانت على وجهها النبيل .

وراحت الريح تتناوح تهب من جهات مختلفة لها حنين كحنين الإبل فأوجست آمنة خيفة ، خشيت أن يكون ذلك بداية عاصفة حاصبة هوجاء ليس لهم منها عاصم فى هذه البيداء المترامية التى لا يرى البصر فى أفقها إلا انطباق السماء التى عليها غبرة على الأرض الجرداء .

واشتدت الريح وارتفع صوت زفزفتها فصارت جافة تسفى الوجوه

بالرمال ، فاضطرب حبل القافلة ، وحاولت الإبل أن تدور لتحمى وجوهها من صفع الذر الذى يؤذى أعينها لولا هؤلاء الرجال الذين أخذوا بمقودها وراحوا يجذبونها لتشق طريقها فى العاصفة .

كانت آمنة ومحمد فى الهودج الذى صنع من أغصان الشجر ، فراحت الريح تعصف بالهودج وآمنة تجاهد أن تتشبث به لتحمى محمداً الصغير من غائلة الصحراء ، ولكن هيهات فقد جاء إعصار وأطار الأغصان وما عليها من فرش وصارت آمنة وابنها الحبيب فى مهب الريح ، فاحتضنت آمنة ابنها وأخفته من السوافى فى طيات ثيابها .

ومالت فوقه بغريزة الأمومة تتلقى عنه غضب الطبيعة ولفح الرياح المزمجرة ، وتذكرت وهى فى هذه الشدة ذلك الهاتف الذى هتف بها يوم أن حملت به : إنك حملت بسيد هذه الأمة ، فزادها ذلك إصراراً على أن تصون ذلك النور المشرق فى ظلمات حياتها ، فاحتملت فى صبر عصف الهبوة[1] التى تكاد أن تقصف عودها .

وتقدمت القافلة فى بطء شديد ، وشغل كل من فيها بنفسه حتى أن بركة أسدلت نقابا كثيفا على وجهها وانكمشت فى الهودج الذى كان كريشة تتأرجح ، ولم يخطر على قلبها أن تطل برأسها لترى ماذا أصاب آمنة وابنها الصغير .

وضاعت صيحات الرجال فقد كانت تذروها الرياح ، وتعلقوا بأعناق الإبل حتى لا تنجفل فى الصحراء مفزوعة لا تلوى على شىء ، وصهلت الخيل وولولت النسوة وبكى الولدان ، وظلت آمنة صامتة وإن

---

(١) الريح إذا هبت بالغُبرة .

دوت الآلام فى أغوار ذاتها ، كانت تستشعر وهنا وأن روحها تكاد أن تنسل من بين جنبيها ، ولكنها كانت تنفث العزيمة فى نفسها بأن توحى إلى ضعفها أن ذلك الثاوى فى أحضانها أمانة بين يديها عليها أن تعود به سالما إلى مكة ليتحقق قدره ويسود قومه .

وكانت آمنة تمنى النفس بأن كل ريح لها هبوب فلابد لها من ركود ، ولكن العاصفة كانت تزأر زئيراً عاليا بينما كانت تنوء بضعفها ، فباتت تخشى أن يدركها السكون قبل سكون العاصفة ، ودارت الأرض بها وأحست أنها على وشك أن تغيب عن الوجود ، فراحت تتلمس محمداً الحبيب لتتأكد أنه فى مأوى يعصمه من الحرور فقد كانت به رحيمة .

وهدأت العاصفة وحطت القافلة لتصلح من أمرها ، فهرعت بركة إلى راحلة سيدتها ، وما كادت عيناها تقعان على وجه آمنة حتى انقبض صدرها ولاح الخوف فى محياها ، فقد كانت سيدتها ذابلة ذبول الموت وقد كاد أن ينطفىء بريق عينيها .

ومدت بركة يديها لتعاون آمنة على الهبوط ولكن سيدتها مدت يدين مرتجفتين إلى محمد وحاولت أن تحمله لتدفع به إلى بركة ، ولكنها عجزت عن أن ترفعه ، فخفت بركة إليه واحتملته بين ذراعيها وفى القلب أسى وفى الحلق غصة وفى العينين دمع يترقرق .

ووضعت بركة محمداً على الأرض وهرعت إلى آمنة وحملتها حملا ثم مددتها على الأرض ، وراح محمد ينظر إلى أمه فى خوف شديد ؛ إنه بات يخشى ذلك الاصفرار الذى علا وجهها وتلك النظرات الزائغة وذهاب بريق عينيها وذلك الضيق فى أنفاسها ؛ إنه يحس رقة ورحمة وشفقة وحزنا ، وحشرجت روحها فى صدرها وقال فى صوت ضعيف :

— واكرباه !

فاستشعر محمد كأن نياط قلبه تتمزق ، وأن يداً قوية تهصره هصراً ، وربما خوفه فمال عليها وراح يناديها ولكنها لم ترد نداءه فقد كانت تجود بأنفاسها . وفطن محمد إلى فداحة المصاب الذى سينزل به فراح فؤاده ينز أسى ، وأحس لسع نار اليتم ترعى فى جوفه فسالت عبراته ، وراح يقاوم أن ينشج بالبكاء حتى لا يؤذيها فى لحظاتها الأخيرة .

وفاضت روح آمنة فارتمت بركة عليها تندبها وتبكيها ، وصرخ محمد صرخة فيها ذوب نفسه ، وراح ينادى أمه الحبيبة فى لوعة وقد جرت دموعه تغسل وجهه الحزين وتخفف ذلك اللهيب الذى اشتعل فى وجدانه ، وهرع رجال القافلة إلى مبعث العويل فألفوا آمنة مسجاة وقد ارتمى على جسدها الهامد محمد الصغير وبركة الحبشية وراحا يبكيان أحر بكاء وينشجان فى صوت مسموع ، فوقفوا أمام جلال الموت مطرقين ، ثم رفعوا الصبى عن صدر أمه وراحوا يتشاورون فرأوا أن يحملوا الجسد معهم إلى الأبواء ليقبروه هناك .

وحمل الجسد الفانى على ظهر البعير ، وأرادت بركة أن تأخذ محمداً معها ولكنه أبى إلا أن يمكث مع أمه يلقى عليها آخر النظرات ، فهى زاده الوحيد من الحنان حتى آخر الزمان . وركب إلى جوار الجثمان يرنو فى أسى إلى العينين المسبلتين اللتين طالما أفصحتا عن عميق الحب قبل الهمود ، ورأى من فى القافلة الصبى اليتيم وهو يمرر يده على شعر أمه التى ذهبت ولن تعود ، فتفجرت دموع الرحمة فى أعينهم .

وسارت القافلة الهوينى وقد نكس كل من فيها رءوسهم حتى الإبل أرخت أعناقها ، فقد صمت الحادى وساد الكون سكون عميق لم يكن يمزقه إلا نشيج محمد اليتيم الذى كان يتجرع مرارة اليتم لأول مرة من

كأس مترعة بالألم والأسى والعذاب تعصف بالفتى الغض الذى اضطرمت النكبة فى جوفه ناراً من الأسى تتلظى .

ودخلت القافلة الأبواء يغلفها حزن عميق فقد كانت آمنة زوجة فتى قريش الذبيح جثة هامدة ، ولم تذهب القافلة إلى حيث اعتادت أن تذهب لتستريح بل انطلقت إلى القبور ، لتقبر آمنة الغالية غريبة فى الأرض ، لكأنما قد كتب على سادات قريش وسيداتها أن يموتوا غرباء .

وعملت المعاول وحفر القبر وحمل الجسد الطاهر ليغيب فى الثرى ، وراح محمد يتشبث به وهو يذرف الدمع السخين يريد أن يدفن مع أمه الحبيبة ، إلا أن بركة ذهبت إليه وهى تجهش بالبكاء وانتزعته من الجثة الهامدة ثم ضمته إلى صدرها وقد اختلطت دموعها بدموعه .

وأهيل التراب على آمنة ومحمد ينظر يكاد أن ينفطر قلبه أسى وأن تذهب نفسه شعاعا ، لا يكاد يصدق أن يكون هذا المصير نهاية أمه الغالية الحبيبة .

ولم يستطع الصبر على ما يرى فانفلت من بين يدى بركة وارتمى فوق القبر ينشج وينتحب ويرويه بدموعه .

وجاءت بركة إليه وحملته بين ذراعيها ودموعها تسيل على خديها ، ثم عادت به إلى رحلها تواسيه وتمسح عبراته وتنفض عنه غبار القبر الذى علق به وإن كان الشجن يكاد يكتم أنفاسها .

وسرت القافلة عائدة إلى مكة ومحمد وبركة على ظهر بعير واحد وقد لاذا بالصمت وشردت نظراتهما . كانت بركة تسترجع فى ذاكرتها تلك الأيام الحلوة التى أمضتها فى بيت آمنة وتفكر فى ذلك الغلام اليتيم الذى فقد أمه وأباه ولم يتجاوز بعد السادسة ، وامتلأ فؤادها حبا ورحمة لتسبغ

عليه من الحنان ما يعوضه عن بعض حنان أبويه اللذين تركاه يواجه الحياة وحده .

وكان محمد يفكر فى أمره ؛ إنه خرج من مكة مع أمه وها هو ذا يعود وحده بلا ولى ولا ناصر . كانت لرحلته بداية وها هى ذى تشرف على النهاية ، وكانت لأمه بداية وقد انتهت أيام حياتها . إن الحياة رحلة لابد أن تنتهى إلى غايتها يوما ، وإن كل شىء له أول لابد أن يكون له آخر . وراح محمد يفكر فى الحياة وفى الموت وفى الوجود بعد أن واجه قسوة الفناء لأول مرة تفكيراً يتلاءم مع سنه ، أقرب إلى الأحساس منه إلى استجلاء كنه الحياة والموت وما بعد الموت . وقد كان ذا عقل راجح وبصر نافذ وإحساس مرهف وتناسق مع الكون سوف تقوده فى أيام نضجه إلى جوهر الحقيقة .

ولاحت جبال مكة فأغذت القافلة السير للقاء الأحبة وقد تهللت النفوس بالفرح وخفقت القلوب بالشوق وندت من الأفواه صيحات سرور ، بينما ظل محمد وبركة مطرقين يمضغان أحزانهما ويجففان دموعهما فقد أهاجت عودتهما إلى أرض الوطن دون آمنة عبراتهما .

وأناخت الإبل وهرع الرجال إلى الرجال يتعانقون ، وخفت النسوة إلى الآباء وفلذات الأكباد والأخوات ، وارتفعت أصوات الصبيان والغلمان بالترحيب بالعائدين ، ورفرف على المكان غبطة وسرور وحبور . وهبط محمد وبركة من على بعيرهما وسارا مطأطئى الرءوس يجران أرجلهما جرا ، فقد كان الرزء فادحا ناءا بحمله .

وأسرع بنو هاشم وبنو زهرة إلى محمد وبركة ، وراح أبو طالب يقود عبد المطلب إلى حيث كانا قادمين ، ولما تأكد أنهما عائدان وحدهما قال

فى صوت مضطرب :

ـــ إنى لا أرى آمنة !

وخفق قلب شيخ بنى هاشم فى شدة ولفه اضطراب ووسع من خطوه وانطلق إلى حيث كان حفيده مقبلا كأنما كان يشم ريح محمد ، وفى لحظات كان رجال بنى هاشم وبنى زهرة أمام محمد وبركة وفى وجوههم قلق وفى عيونهم تساؤلات ، وارتفعت أصوات تقول فى لهفة :

ـــ أين آمنة ؟

وانفجر محمد باكيا وقالت بركة وعبراتها تخنقها :

ـــ ماتت وقبرناها فى الأبواء .

وغامت الوجوه بالحزن وطفرت الدموع من العيون ، وذهب عبد المطلب إلى حيث كان محمد ينشج بالبكاء وهو يتحسس بيده ، حتى إذا ما لمس حفيده مد يده واحتمله وضمه إلى صدره ودمعه السخين يجرى على خديه شفقة على يتيم قريش .

— ٦ —

خرج شعب القسطنطينية شيوخا وشبابا ورجالا ونساء وأطفالا وملأ الميدان الكبير المواجه للقصر الإمبراطورى ، واصطف على جانبى الطريق بين القصر وكنيسة الحكمة المقدسة أيا صوفيا العظيمة ، وارتفعت الأصوات تهتف بحياة الإمبراطور الجديد طيباروس الثانى فقد كان ذلك اليوم يوم تتويجه .

كان يوسطينوس الثانى قد جن من حمل مسئوليات الحكم والهزائم

التى حاقت بالجيش الرومانى فتولت زوجه صوفيا الوصاية على العرش سنة ، ثم تولاها معها طيباروس أربع سنوات ، ونودى به قيصر مع قيصر المجنون قبل أن يذهب إلى ربه ، ولم يجد الشعب فى ذلك التثليث غضاضة بل حسبه من حسن الطالع ، فالحاكم الرومانى قد أصبح أشبه بإلهه ، ثلاثة فى الأرض وثلاثة فى السماء .

كان الشعب الرومانى أجناسا وأخلاطا فنسبة الإغريق الخلص فيه ضئيلة ، فقد امتزجت بالدماء الإغريقية عناصر جديدة ، عناصر حامية وفدت من إفريقية وعناصر سامية جاءت من سورية ، وقد اختلط الإفريقيون والسوريون بقبائل أوروبا فكان سكان القسطنطينية ينتمون إلى كل قبيلة وكل أصل ، وإن كانت الأسر النبيلة تحب أن تدعى أنها من أصل رومانى .

وكان مواطن الإمبراطورية قوى الشعور بأنه أشد ثمرات الجنس البشرى تحضراً ، قوى الشعور برومانيته ، قوى الشعور بأنه صاحب المذهب الصحيح ، قوى الشعور بأنه الوريث للحضارة الإغريقية .

وقد أثر امتزاج الدم الإغريقى بالدماء الأخرى فى تحزب البيزنطى العنصرى ، فقد كان متسامحا فى مسألة الأجناس وكان يهمه العقيدة ، فهو يقبل كل من آمن بالعقيدة الأرثوذكسية ، عقيدة البلاد ، وكل من استطاع التحدث باليونانية ويعده أخا فى الوطن ، أما الأجنبى الذى لا يؤمن بعقيدة البيزنطى فهو كافر مارق زنديق حليف غير ملم بتهذيبات الحضارة الإمبراطورية !

وكان كل أجنبى يعتنق ديانة الدولة يستطيع أن يحصل على جنسيتها وأن يمارس كل حقوق المواطن وأن يتزوج امرأة بيزنطية مهما يكن أصله

أو أصلها ، وقد تزوجت كرائم البيزنطيات من مغامرين من الفرنجة أو من رجال جاءوا من الشرق و لم يثر ذلك اعتراض أحد ؛ لقد كان الاستياء الوحيد الذى أظهره الناس يوم أن أرغم يوسطنيانوس الثانى سيدة من بنات أسر السناتو على الزواج من طاهيه الخاص الزنجى ، فقد ثارت ثائرة الإحساسات الكريمة فى البلاد لشعورها بانتهاك حرمتها ، وكان ذلك عن ترفع وغطرسة لا عن تحزب بسبب اختلاف لون البشرة .

كانت أنظار الناس متجهة إلى قباب القصر الكبير وممراته المسقفة المحللة بالقراميد الملونة ، وكان الشوق إلى رؤية موكب الإمبراطور الجديد يملأ الصدور حتى أن الشباب البيزنطى تسلق التمثال الضخم الذى نصب عند القصر الكبير وكان يمثل ثوراً يقاتل أسدا ، وجميع التماثيل التى كانت فى الميادين .

وعلى الرغم من الحدث الكبير فإن الناس لم ينسوا أنفسهم ، فقد كان الرجال والنساء متأنقين يرتدون أغطية عجيبة للرأس : قبعات ذات قمة لها حواف من الفراء وعمائم عالية منبعجة ، وقد غطت نساء صغيرات فاتنات وجوههن بالمساحيق وأبدين زينتهن وجعلن يتلفتن فى الزحام .

وعلى طول الشارع الأوسط وقف أصحاب الحرف أمام حوانيتهم : الصياغ يتحدثون عن الذهب والفضة ، وصناع الأثاث يتحدثون عن الأخشاب وكساد السوق ، وأمام دار الأنوار وهى المركز الضخم لسوق الحرير راح الرجال يتحدثون عن مصاعب استيراد الحرير وما لحق بهم من كساد .

كان الحرير يسير براً خلال فارس إلى محطتى المكوس الإمبراطوريتين

عند نصيبين ودارا ، ومن ثم ينقل ليصنع فى القسطنطينية أو فى المصانع الموجودة بصور وبيروت ، وكان بعضه يحمل بالطريق البحرى وكانت سيلان هى المكان الذى تتم فيه المقاصة المالية لتجارة الشرق بأكمله ، فهناك كانت تتجمع البضائع الشرقية : الحرير من الصين ، والحرير واللوز والقرنفل وخشب الصندل من الهند الصينية ، والفلفل من مكبار ، والنحاس من كاليانا بالقرب من بومباى ، والمسك والخروع من السند ، وكان التجار الفرس يتصيدون الحرير ويحتكرون تجارته ويحملونه صعداً فى الخليج الفارسى ، أما بقية السلع فكانت السفن الحبشية تحمل معظمها إلى آدوليس عاصمة أكسوم على البحر الأحمر ، ومنها إلى القلزم بالقرب من السويس .

وقد أوقفت حروب يوسطنيانوس مع فارس ورود الحرير ، وحاول الإمبراطور إبقاء سعره منخفضا فقضى على تلك الصناعة ، وعندئذ اشترى الإمبراطور المصانع فحولت صناعة الحرير إلى احتكار إمبراطورى .

ووجد يوسطينوس الثانى أن الدولة لا تزال بحاجة ملحة إلى الحرير وأن الحروب مع فارس تحول دون وروده إلى الإمبراطورية الرومانية ، فحاول أن يفتح طريق السهوب ولكن ذلك العمل كان فوق طاقته .

كان تجار الحرير واقفين أمام دار الأنوار يرقبون مرور الموكب الإمبراطورى وكانوا فى نفس الوقت يتحدثون عن أزمة الحرير وندرة الوارد منه من الصين والهند الصينية لتعذر مروره خلال فارس ، وقال قائل منهم :

ـــ إن راهبين نسطوريين وصلا إلى القسطنطينية يحملان سر دودة

القز فى عكازيهما الأجوفين .

وقال آخر :

— وما علاقة الدود بالحرير ؟

فراح الآخر يشرح فى إسهاب ما سمعه عن دودة القز وصحابه يصغون إليه بين مصدق ومكذب ، ثم قال قائل منهم :

— وحتى إن كان ما تقول صحيحا فتربية دودة القز تحتاج إلى وقت .

— وإلى دراية .

— الوقت بجانبنا وبالممارسة نكتسب الخبرة .

كان طيباروس هو الحاكم الفعلى الذى كان يباشر السلطة أيام يوسطينوس الثانى ، ولكن كان يهفو إلى التتويج ليضفى على سلطته إقرارا دينيا يمنحه حق ممارسة عمله بوصفه نائب الله فى هذه الدنيا .

و لم يكن أباطرة الرومان يعرفون التتويج قبل ذلك الصراع المرير الذى نشب بين الفرس والرومان ، إلا أنه بطول الاحتكاك انتقل كثير من عادات الشرق إلى الغرب ، فراح الغرب يقتبس تقاليد البلاط الشرقى ، وأخذ الرومان فكرة التاج والتتويج عن الفرس ، وكان كبير الكهنة المجوس هو الذى يقوم بتتويج كسرى ، إلا أن دقلديانوس عندما اقتبس تلك العادة كان هو نفسه الحبر الأعظم ، لذلك استغنى عن معونة الكاهن وسن سنة جديدة هى أن يقوم بمراسم التتويج أحد البارزين من ممثلى الناخبين .

وعلى مر الأيام أخذ الناس يشعرون بخطر البطريرك ، فأصبح بطريرك القسطنطينية أحق الناس بتتويج قيصر لأنه يتولى أعلى منصب بعد التاج ،

وكان البطريرك يعمل بوصفه أبرز مواطن فى الإمبراطورية لا بوصفه قسيسا .

وفتح باب القصر الكبير وخرج منه موكب فخم رائع ، وما كاد الشعب يلمح طيباروس حتى تعالى الهتاف بحياته فقد كان لابد للناخبين من أن يعلنوا موافقتهم الرسمية بالهتاف و لم يضن الناخبون يوما بإعطاء موافقتهم .

وعلى طول الطريق إلى كنيسة أيا صوفيا انطلقت الحناجر بالهتاف وترقرقت الدموع فى العيون ونسى الناس متاعب حياتهم لحظة ، فقد فاضت العواطف النبيلة وغمرت القلوب .

وسار الركب الإمبراطورى حتى بلغ كنيسة الحكمة المقدسة ، فإذا برجال السيناتو وممثلى الشعب والجيش قد اصطفوا خارج أيا صوفيا وداخلها ، وإذا بالهتافات للإمبراطور الجديد تشق عنان السماء ، ونزل طيباروس من مركبته يحف به وزراؤه وكبار رجال الجيش ثم تقدم بين الأصوات المدوية كالرعد فى الميدان إلى الكنيسة .

وسار الإمبراطور خاشعا إلى حيث وقف بطريرك القسطنطينية أمام المذبح حتى إذا ما وصل إليه راح البطريرك يباركه ، ثم أخذ الإمبراطور يقسم اليمين المرعية للتتويج ، وما أن انتهى منها حتى راح البطريرك يضع التاج على رأسه .

ووقف الوزراء وجميع أعضاء مجلس الشيوخ وجميع الضباط والجنود وممثلو طبقات المواطنين يقسمون يمين الولاء لقيصر ، وما انتهت مراسم التتويج حتى عاد طيباروس إلى القصر الكبير وقد صار نائب الله فى الأرض وقسيسا أعظم للإمبراطورية الرومانية والوكيل الذى أمره الله أن

يطعم قطيعه كما أطعم بطرس أمير الرسل قطيعه .

وانصرف الناس إلى دورهم ، وانطلق الشباب البيزنطى وطلاب اللهو إلى حى زيجما على القرن الذهبى ، وراحوا يتحدثون بلاتينية رنانة ويطلقون ضحكات ماجنة ويلقون نظرات عابرة على تمثال أفروديت الذى توسط الميدان ويتفرسون فى قحة فى النسوة اللاتى يخطرن فى الطريق ، ولا غرو فقد كانوا فى حى المواخير والبغايا .

كانت القسطنطينية مدينة عجيبة بنيت كنيسة عند ناصية كل شارع ، فانتشرت فيها أفخم الكنائس : أيا صوفيا والرسل المقدسين ومئات أخرى من دور العبادة بها أديرة أحيطت بأسوار ضخمة صارمة ، وفى نفس الوقت كانت المواخير والحانات ودور البغايا منتشرة فى حنايا المدينة التى تبغض المروق من الدين أشد البغض ، والتى يعتبر أهلها أن العقيدة الأرثوذكسية هى الركن الركين فى حق التمتع بالجنسية الرومانية !

كانت الإمبراطورية الرومانية تحاول أن تعيش فى ظل قانون ناموس الله وقانون الطبيعة البشرية اللاشعورية ، وهما قانونان متضاربان بل متنافران ، فالله فى قانون ناموس الله هو المحبة ، وفى قانون الطبيعة البشرية اللاشعورية هو صانع كل ما فى الدنيا من شرور وأهوال ، وقد كان المسيحى فى الإمبراطورية الرومانية يجد نفسه مكرها على اختيار أحد رأيين يبلبل كلاهما فكره بلبلة مفجعة ، وكان سوس الفساد الأخلاق ينخر فى البنيان الذى يبدو هائلا متماسكا لأول وهلة ، وإن كانت الفلسفات التى انبثقت من فكرة تثليث الإله تمزق أوصاله وتزعزع الإمبراطورية التى امتد نفوذها الدينى شرقا وغربا .

كانت الإسكندرية كنيسة مسيحية فى مرتبة كنيسة القسطنطينية ، ولكن الخلاف المذهبى بين الإسكندرية والقسطنطينية ملأ الإسكندرية بنوازع البغضاء للحكومة الإمبراطورية ، ولم تدع فرصة لأثارة الفتن إلا اهتبلتها ، وقد ناصرت الأمانى القومية نكاية فى الإمبراطور الذى كان يضطهد المصريين الذين آمنوا بعقيدة تختلف عن عقيدته وإن كانوا جميعا نصارى .

وكان طيباروس على علم بالصراع الدينى الناشب فى جوف إمبراطوريته، وكان يخشى الثورات الداخلية خشيته من جيوش الفرس. وكانت أعز أمانيه أن يغفل عنه كسرى أنوشروان وأن يتركه يتمتع بفترة سلام ينعم فيها بلذة السيطرة والسلطان . وأراد أن يكشف أستار الغيب عن مستقبله ومستقبل الإمبراطورية فبعث يستدعى العرافين والمنجمين .

وأطال العرافون والمنجمون النظر فى النجوم وعكفوا على الحساب وقطبوا الجباه ، فكل الدلائل تدل على أن ملك طيباروس لن يطول ، وأن نجم الإمبراطورية فى أفول ، وأن الخطر الذى سيدهمها آت من الشرق . إنه ليس من قبل الفرس ولكنه آت من قبل شعب مختون ، شعب صغير ، سينبعث منه نور يغمر الشرق والغرب ، ويبعث فى المؤمنين به قوة روحية تندحر أمامها جيوش الفرس والرومان .

وراح العرافون والمنجمون يروون فى رفق للإمبراطور الجديد ما أفصحت عنه النجوم ، كانوا يلفون ويدورون حول قصر أيام دولته ولكنهم قالوا دون مواراة أو تزويق نبوءة ذلك الشعب المختون الذى سيقضى على الإمبراطورية .

وطرق طيباروس يفكر فى ذلك الشعب الذى يهدد الحضارة البيزنطية بالزوال فهداه فكره إلى أنه اليهود ، فما كان يخطر على قلب بشر أن قبائل العرب المتناحرة المتنافرة التى يفد أشرافها إلى القسطنطينية التماسا لرضا الإمبراطور يمكن أن تتحد وتصير أمة قوية تنزع السلطان من أكبر إمبراطوريتين عرفهما التاريخ ! ومن أين لهؤلاء الجاهلين بالنور الذى يغمر العالمين ؟

إن اليهود هم الخطر الكامن داخل إمبراطوريته ؛ إنهم الجنس البشرى الوحيد المستقر بالإمبراطورية الذى لم يحاول أبدا أن يمتزج فيمن حوله بسبب ديانته ، وما من مدينة بيزنطية إلا فيها جالية منهم ، فإن اتحدت كلمتهم حول توراتهم وثاروا فإنهم يستطيعون أن يطعنوا الإمبراطورية طعنة فى الصميم .

وراح الإمبراطور يضطهد اليهود ، يفرض عليهم ضرائب باهظة ، وينزل بهم كل ألوان الاضطهاد إذا ما بدرت منهم بادرة استياء أو حركة تمرد ، وراح يرصد كل حركاتهم وقد فكر أكثر من مرة أن ينفيهم عن البلاد ولكنه كان يطرد ذلك الخاطر خشية أن يكون فى ذلك الطرد تجمعهم وتكوين دولة وتحقيق تلك النبوءة التى باتت تؤرقه ، القائلة بأن الإمبراطورية سيدمرها شعب مختون ، وما خطر على قلب بشر أن الهادى الذى سيخرج العرب من الظلمات إلى النور ، والذى سيجعل من قبائل العرب المتنافرة خير أمة أخرجت للناس بفضل كتاب الله الذى يوحيه إليه ، والذى سيدمر خلفاؤه إمبراطورية الروم وإمبراطورية الفرس ، لا يزال غلاما يتيما فى كفالة جده ، يسعى بين دور بنى هاشم والحرم ويخرج إلى الكون العريض يتفرس فى آيات الله ، ليمتلىء قلبه حكمة

وتتهذب روحه ويقوى وجدانه ويستعد لحمل أعظم رسالة ، رسالة لا يقوى على حملها إلا أولو العزم من الرسل ، لأنها رسالة السماء .

— ٧ —

انتقل محمد وجاريته بركة الحبشية من بيت أبيه عبد الله بعد موت أمه آمنة إلى البيت الكبير . بيت جده عبد المطلب ، فصار يمضى ساعات نهاره وليله مع عمه حمزة ، فتوطدت بين الغلامين أواصر صداقة ومحبة . وكان العباس بن عبد المطلب أقرب صبيان بنى هاشم إلى قلبيهما ، فقد كان يقضى أغلب وقته معهما وكثيرا ما كان يدور معهما على دور إخوته أبناء عبد المطلب وبناته ، أو ينطلق معهما إلى الحرم أو السوق ، فلم يكن فارق السن بينهم كبيرا فالعباس أسن منهما بسنتين .

وكانت هالة بنت وهيب أم حمزة وابنة عم آمنة تحب الفتى اليتيم من كل فؤادها ، فكانت تسبغ عليه ألوانا من العطف لتعوضه حنان آمنة التى لحقت بزوجها ولما تتجاوز من العمر عشرين سنة . وكان محمد يحس راحة فى كنفها إلا أنه كان يستشعر أمنا وسلاما كلما مسح جده بيده على ظهره أو أجلسه على ساقه أو ضمه إلى صدره ، فعبد المطلب كان رقيقا رحيما حتى أن يتيم قريش وجد فى كفالته عزاء عن أمه الحبيبة التى ذهبت وتركته وحيدا فى مهب عواصف الحياة قبل أن يشتد عوده .

وكان محمد يلقى من التكريم فى دور أعمامه وعماته ما أفعم قلبه بالرضا ، فعمه الزبير يغمره الحنان ، وعمه أبو طالب وزوجته فاطمة وأبناء عمه يتهللون بالفرح كلما جاء لزيارتهم وما كان يمر يوم دون أن

يذهب إلى دار أبى طالب ، وكانت عمته أم حكيم البيضاء توأم أبيه عبد الله تضمه فى حنان دافق وتمطره بقبلاتها ، وكان يلمح الدموع المترقرقة فى مآقيها فتتحرك مشاعره وتزداد كنوز فؤاده رقة ورحمة وحنانا .

وكان عمه أبو لهب يبش له فى حب كلما رآه فأبوه عبد الله كان حبيبا إليه ، وقد سمع محمد أن عمه وهب جاريته ثويبة حريتها لما بشرته بمولده ، فكان يحب أبا لهب وامرأته أم جميل وكان يمضى وقتا سعيدا فى دارهم .

وكان يمر على دار عمته صفية زوجة العوام وكان يصغى إلى الأحاديث التى تدور بين أعمامه وعماته ، وكانت تلك الأحاديث تنم عن الصلات الإنسانية التى تربط أفراد أسرة شيخ قريش ، كانت صفية معجبة بأخيها الزبير وكثيرا ما كانت تصرح أنها نذرت إن منَّ الإله عليها بولد أن تسميه الزبير بن العوام . وكان يبدو فى تلك الاجتماعات حب الزبير لأخيه أبى طالب وحبهما لمحمد بن عبد الله ، ولا غرو فقد كان الزبير وأبو طالب وعبد الله أشقاء حملهم بطن واحد .

كان محمد يجد قلوبا محبة رحيمة فى كل دور أعمامه وعماته وأخواله وخالاته ، بل فى كل دور بنى هاشم ، إلا أن حبه عمه أبا طالب كان يفوق كل حب ، وكان يرى من حدب فاطمة امرأة عمه عليه ما شرح صدره ، فكانت دار أبى طالب أقرب الدور إلى قلبه بعد دار جده عبد المطلب .

وكان عبد المطلب يجلس فى ظل الكعبة على فراشه قد ذهب بصره وشاب شعر رأسه ولحيته وأجفان عينيه ، إنه يسمع ابتهالات الطائفين بالبيت وخفقات أجنحة حمام الحمى وخرير ماء زمزم الذى يصب فى

الأحواض والأوانى ، ويرى بعين خياله الحرم والحطيم والملتزم وباب الكعبة وقد حلى بغزالين من الذهب .

وطاف مع الطائفين أبو لهب والحارث بن عامر بن نوفل وأبو إهاب ابن عزيز بن قيس بن سويد التميمى ؛ شباب قريش الذين سرقوا غزالة من غزالتى الذهب اللتين كانتا معلقتين فى جوف الكعبة مع قرنى كبش يقال إنهما كانا قرنى الذبح العظيم الذى فدى الله به إسماعيل .

إنهم سرقوا الغزالة ليشتروا بثمنها خمرا وقد وضعوها عند دويك مولى بنى مليح ، وقد قطعت قريش يد دويك ، أما الأشراف فقد وجدوا فى أهلهم من يحمونهم من قريش وإقامة الحد عليهم .

وانتهى أبو لهب من الطواف فذهب إلى حيث كان أبوه وألقى عليه التحية ، فلما عرفه عبد المطلب بعثه مع بعض إخوته فى طلب إبل له ضلت ، ثم أطرق الشيخ فراحت الذكريات تنثال على رأسه ، رأى ذلك اليوم الذى خاصم فيه الثقفيين لأنهم احتفروا ماء له بالطائف يقال له « ذو الهَرْم » واتفقوا على أن ينطلقوا إلى الكاهن نفيل ليحكم بينهم فيما كانوا فيه يختصمون .

إنه يرى نفسه وقد خرج مع ابنه الحارث وليس له يومئذ غيره ويرى الثقفيين وقد خرجوا فى جمع كبير ، ويرى فى وضوح ساعة أن نفد ماؤه فطلب إليهم أن يسقوه فأبوا ؛ إنه يكاد يحس وهو فى مجلسه قسوة العطش الذى أحسه فى ذلك اليوم ، لقد بلغ العطش منه ومن الحارث كل مبلغ حتى أشرفا على الهلاك ، ورأى نفسه وهو يثير بعيره ليركب وإذا بعين ماء تتفجر من تحت رقبته .

إنه شرب فى ذلك اليوم حتى ارتوى بعد أن شرب حبيبه الحارث

وتزود من الماء حاجته ، ونفد ماء الثقفيين فطلبوا إليه أن يسقيهم فأنعم لهم ، وإن صوت ابنه الحارث يرن فى أذنيه كما رن فى ذلك الوقت يقول : لأنتحين على سيفى حتى يخرج من ظهرى !

ورفت على شفتى الشيخ بسمة هادئة لما سمع صوته يأتى كالهمس من أغوار الماضى يقول : لأسقينهم فلا تفعل ذلك بنفسك .

إنه سقاهم على الرغم من أنهم أبوا أن يسقوه ، وانطلقوا حتى أتوا الكاهن وقد خبأوا له رأس جرادة فى خرزة مزادة وجعلوه فى قلادة كلب لهم يقال له « سوَّار » ، وراح الحوار الذى بينهم وبين الكاهن ينبعث حيا فى نفسه :

ـــ ما حاجتكم ؟

ـــ قد خبأنا لك خبيئا فأنبئنا عنه ، ثم نخبرك بحاجتنا .

ـــ خبأتم لى شيئا طار فسطع ، فتصوب فوقع ، فى الأرض منه بقع .

ـــ لادِه (أى بينه) .

ـــ هو شيء طار فاستطار ، ذو ذنب جرار ، وساق كالمنشار ، ورأس كالمسمار .

ـــ لاده .

ـــ إن لاده فلاده (إلا هذه فلا هذه) ، هو رأس جرادة ، فى خرز مزادة ، فى عنق « سوَّار » ذى القلادة .

ـــ صدقت ، فأخبرنا فيما اختصمنا إليه .

وانفرجت ابتسامة عبد المطلب ، إنه ليذكر أن الكاهن قد أخبرهم فيما اختصموا إليه ، وقضى له بماء الهَرْم وخذل بنى ثقيف .

وجاء عبد الله بن جدعان وسلم ثم جلس ، و لم يأت أمية بن حرب فقد وقع الجفاء بين عبد المطلب ونديمه أمية حتى تنافرا إلى عزى سلمة الكاهن ، وقد قضى عزى لعبد المطلب على أمية بن حرب كما قضى الحكم من قبل لهاشم بن عبد مناف على أمية بن عبد شمس ، ووقعت البغضاء بين هاشم وبنى أمية .

وجاء سادات قريش وجلسوا بعيدا عن فراش عبد المطلب احتراما له وإجلالا لقدره ، وأرهف الشيخ سمعه فأبناؤه قد ذهبوا فى طلب إبل له ضلت و لم يعودوا ، ومس أذنيه وقع أقدام تمشى هونا ، وملأت خياشيمه رائحة ذكية ، إنها رائحة حفيده . وجاء محمد وجلس بجنب جده لا يمنعه أحد ، ومد عبد المطلب يده وراح يتحسسه ثم لف ذراعه حوله وضمه إليه فى حنان دافق ثم قال :

ـــ سيكون لابنى هذا شأن .

وعاد بنو عبد المطلب دون أن يعثروا على الإبل الضالة ، فقال الشيخ لحفيده :

ـــ اذهب أنت .

فنهض محمد لينقب عن الإبل الضالة وبقى سيد بنى هاشم فى مجلسه ، ومر الوقت وغاب محمد وبدأ القلق يساور جده ثم استولى عليه واستبد به ، فقام يتحسس طريقه إلى الكعبة حتى إذا ما وقف أمام بابها أخذ بحلقتيه وجعل يضرب بهما الباب ويقول :

يارب ردّ راكبى محمدا اردده ربى واصطنع عندى يدا

كان الأسى يلوح فى وجه الشيخ وكان الابتهال ينبعث من قلب مؤمن بربه ؛ إنه لطالما ابتهل إلى إلـٰهه ولكنه لم يحس أنه يذوب فى توسلاته إلا

مرتين ، مرة يوم أن جاء أبرهة يبغى هدم الكعبة فوقف أمام بابها يدعو إلٰهه أن يحمى بيته ، وهذه المرة التى غاب فيها محمد الحبيب ودثره خوفه وقلقه واضطرابه .

ومر رجل غريب ، ورأى شيخا طويلا عظيما أبيض مقـرون الحاجبين طويل شعر الأجفان رقيق الأنف قد ابيضت عيناه ، تسيل عبراته على خديه وهو يتوسل إلى ربه فقال :

— من هذا ؟

هذا سيد قريش عبد المطلب له إبل كثيرة ، فإذا ضل منها شيء بعث فيه بنيه يطلبونها ، فإذا غابوا أو خابوا بعث ابن ابنه و لم يبعثه فى حاجة ألا أنجح فيها ، وقد بعثه فى حاجة أعيا عنها بنوه وقد أبطأ عليه .

وما انتهى الرجل من كلامه حتى جاء محمد بالإبل معه فقال رجال لعبد المطلب :

— جاء محمد .

فانبسطت أسارير الشيخ ولاحت على وجهه طمأنينة نفسه ، وذهب إلى حيث كان حفيده الغالى قادما كأنما كان يشم ريحه ، ثم بسط له ذراعيه وضمه إليه فى لهفة ووجد وهو يقول فى انفعال :

— حزنت عليك حزنا لا يفارقنى بعده أبدا .

وقفل عبد المطلب عائدا إلى الدار يقوده حفيده وقد ساد الصمت بينهما ، فقد كان عبد المطلب يفكر فى ذلك اليوم الذى غفلت فيه بركة عن محمد فوجده قد ذهب بعيدا عن الدار ، وتذكر الحوار الذى دار بينه وبين حاضنته :

— يا بركة .

— لبيك .

— أتدرين أين وجدت ابنى ؟

— لا أدرى .

— وجدته مع غلمان قريبا من السدرة . لا تغفلى عن ابنى فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبى هذه الأمة وأنا لا آمن عليه منهم .

وتذكر عبد المطلب ذلك الحديث الذى دار بينه وبين أسقف نجران وقد جاءه عندما كان فى الحجر فى ظل الكعبة ، قال الأسقف :

— إنا نجد صفة نبى بقى من ولد إسماعيل وهذا البلد مولده .

ونظر الأسقف طويلا إلى محمد وإلى عينيه وإلى ظهره وإلى قدمية وقال :

— ما هذا منك ؟

— هذا ابنى .

— ما نجد أباه حيا .

— هو ابن ابنى وقد مات أبوه وأمه حبلى به .

— صدقت .

وأحس عبد المطلب نورا ينير بصيرته وإن ذهب بصره ، فضم حفيده إلى جنبه فاستشعر كأن كل جوارحه تلثمه فى حنان وحب ما بعده حب .

وبلغا الدار فهرعت هالة لاستقبالهما وقادت عبد المطلب إلى حجرته ، وذهب محمد إلى مكانه من البيت الكبير .

ووضع الطعام وقادت هالة زوجها الشيخ إلى حيث مد السماط ، وما كاد عبد المطلب يستقر حتى قال :

ــ علىّ بابنى .

فأحضروا محمدا وأجلسه إلى جنبه ، وقد كان يقعده على فخذه أيام أن كان صغيرا . وكان يجلس معهما حمزة والعباس وإخوتهما ولكن عبد المطلب كان يؤثر محمدا بأطيب طعامه .

* * *

وتتابعت على بلاد قيس ومضر أيام شدة وجدب ذهبت بالأموال وأشرفت الأنفس على الهلاك ، فاجتمع عظماؤهم وقالوا :

ــ أصبحنا فى جهد وجدب وقد سقى الله الناس بعبد المطلب ، فاقصدوه لعله يسأل الله فيكم .

فقدموا مكة ودخلوا على عبد المطلب فحيوه بالسلام ، فقال لهم :

ــ أفلحت الوجوه .

وقام خطيبهم فقال :

ــ قد أصابتنا سنون مجدبات وقد بان لنا أثرك وصح عندنا خبرك ، فاشفع لنا عند من شفعك وأجرى الغمام لك .

فقال عبد المطلب فى تواضع :

ــ سمعا وطاعة ، موعدكم غدا عرفات .

وباتت مكة تردد قول رقيقة بنت صيفى بن هاشم بن عبد مناف زوجة عبد المطلب فى سقيا الناس بعبد المطلب ، يوم كاد أهل البطحاء يهلكون من قلة الماء :

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا وقد عدمنا الحيا واجلوّذ[1] المطر

---

(١) امتد زمن تأخره .

وما أشرقت شمس اليوم التالى حتى خرج عبد المطلب وحفيده محمد يقوده ، معه الناس وولده ، وكان عبد المطلب يستشعر راحة وأمنا واطمئنانا كلما تحسس رأس حفيده الذى أشرف على الثامنة من عمره وإن كان يبدو فى خيال جده رجلا أعظم من كل الرجال .

وبلغوا عرفات فنصب لعبد المطلب كرسى فجلس عليه ، وأخذ محمدا فوضعه فى حجره ، ثم قام عبد المطلب ورفع يديه ثم قال :

— اللهم رب البرق الخاطف ، والرعد القاصف ، رب الأرباب ، وملين الصعاب ، هذه قيس ومضر ، من خير الشر ، قد شعثت رءوسها ، وحدبت ظهورها ، تشكو إليك شدة الهزال ، وذهاب النفوس والأموال . اللهم فأتح لهم سحابا خوارة ، وسماء خرارة ، لتضحك أرضهم ، ويزول ضرهم .

فما استتم كلامه حتى نشأت سحابة دكناء لها دوى ، وقصدت نحو قيس ومضر ، فقال عبد المطلب لما سمع دوى السحاب :

— يا معاشر قيس ومضر انصرفوا فقد سقيتم .

فترقرقت الدموع فى عيون الرجال من شدة الانفعال ، وارتفعت صيحات الفرح وخف الناس إلى عبد المطلب يقولون :

— هنيئا لك يا أبا البطحاء بك عاش أهل البطحاء .

وأطرق عبد المطلب وصم أذنيه عن هتافات الناس ، فقد كان فى قرارة نفسه على يقين أن قيس ومضر قد أمطروا ببركة حفيده اليتيم .

طال على الفرس الأمد ففسد دين زرادشت وصار أهورامزدا إلٰه النور النار ، وبنيت لها بيوت فى طول إيران وعرضها فتفتتت ديانة التوحيد ووهن أساسها ، وزاد فى ضعفها تيارات الفساد التى جاء بها مانى ومزدك والخرافات الدينية الكثيرة المزدية التى ضاق بها رجال الدين أنفسهم .

وقد قامت مناظرة بين أحد الموابذة وجيورجيس المسيحى وهو إيرانى اعتنق المسيحية ، دلت على ما بلغه الدين القيم من تهافت ، قال الموبذ :

— نحن لا نعتبر النار إلٰهاً ولكنا نعبد الله بواسطتها كما تعبدونه بواسطة الصليب .

فراح جيورجيس يتلو بعض فقرات من الأوستا حيث جاء ذكر النار على أنها إلٰه ، فقال الموبذ وقد ضاق بالأمر متسللا من الموضوع فى لباقة :

— نحن نعبد النار لأنها من نفس طبيعة أهورامزدا .

فقال جيورجيس :

— أفى النار كل ما فى أهورامزدا ؟

— نعم .

— إن النار تلتهم النجاسة وروث الخيل وكل ما تمس ، وإذا فإن أهورامزدا يلتهم كل هذا لأنه من نفس الطبيعة .

وفى ذلك الوقت الذى ترنحت فيه الديانة الزرادشتية ذاعت فى إيران

النظرية الزروانية وكانت وبالا على الدين ، إذ بثت فكرة الجبر ، ولم يكن زروان كما تروى الأساطير الإلـٰه القديم وأبا أهورامزدا وأهرمن من الزمن اللامتناهي فحسب ، بل كان القدر أيضا .

وقد جاء فى رسالة روح الحكمة أو الحكمة السماوية : « إن الإنسان رغم قوته وسعة ذكائه وعلمه لا يستطيع مغالبة القدر ، لأن القدر المحتوم حين يقرر الخير أو الشر يعجز الحكيم عن العمل ويقدر الشرير عليه ، وهذا يجعل الشجاع جبانا والجبان مقداما والعامل كسولا والكسول عاملا » .

ولم يكن مجهود الإنسان عبثا كله ، فقد جاء فى روح الحكمة أن هذا المجهود سيوضع فى الميزان فى الوجود الروحى أى فى العالم الآخر ، ولكن بعض الذين كانوا يؤثرون قواعد الأخلاق على عقائد الدين قالوا بأن ليس هناك آلـٰهة وأراحوا أنفسهم من البحث فى أمور الدين وتحمل مشقة العمل الطيب ، ونظروا إلى هذه الدنيا حسب ما يتعلق بالأنظمة من كل نوع ، والتقلبات التى تختص بأجسادهم بواسطة العمل ، وذلك بمعارضة شىء آخر واختلاط شىء بآخر ، كالتطور الأولى للزمن اللامتناهى ، وادعوا أن لا جزاء على الخير ولا عقاب على الذنوب ولا جنة ولا نار ولا شىء يدفع الناس إلى خير أو إلى شر ، وأن الأشياء كلها مادية وأن ليس للروح وجود .

زلزل أساس العقيدة الزرادشتية ، فبعد أن جاء زرادشت ليدعو إلى التوحيد تطور دينه إلى عبادة النار ، ثم غمره مانى بالأساطير ، ولما جاء مزدك شرع شيوعية المال والمرأة ، وعلى الرغم من قضاء أنو شروان على المزدكية إلا أن تيار الفساد أثر فى العقيدة الزرادشتية فانهارت انهياراً

مروعا وباتت تنتظر مصلحا يعيد إليها قدرتها على الجدل وقرع الحجة بالحجة والوقوف صامدة فى وجه الأديان الأخرى . وقد جاءها ذلك الإصلاح من الدين القيم الذى سيأتى به يتيم قريش ليغمر كل الأديان .

كانت إيران فى زمن كسرى أنو شروان ، الروح الخالد ، فى دور النقه بعد الحمى التى اعترتها من المزدكية ، وكان التعديل المالى يرمى إلى مصلحة الخزانة قبل مصلحة الشعب فقد عاشت الجماهير كما عاشت قرونا طويلة فى الجهل والظلم .

وقد أحس الفلاسفة البيزنطيون الذين آووا إلى البلاط الإيرانى بخيبة أملهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يرفعوا أنفسهم إلى مرتبة الفلاسفة الحقة فيحكموا من غير تحيز على عادات أمة أجنبية عنهم ، وقد كانت آراؤهم معبرة عن المثل التى تصوروها لدولة يحكمها فيلسوف .

لم يتوفر لهم ذوق الدراسات الخاصة بالأجناس وبعلم النفس الجنسى . لقد راعهم أن يجدوا الإيرانيين يبيحون التزوج من أمهاتهم أو أخواتهم أكثر مما راعتهم عادة عرض الجيف على قبور الصمت ، وهى عادة مقدسة .

لقد نغص عيش الفلاسفة البيزنطيين الذين استوردهم كسرى إلى بلاطه روح القبيلة والهوة التى تفصل بين الطبقات والحالة التعسة التى كان عليها الشعب ، فالقوى يظلم الضعيف ، وهم يرتكبون كثيرا من القسوة والوحشية فيما بينهم .

إن برزويه فى مقدمة « كليلة ودمنة » يصف بؤس الحياة الإنسانية ولا يجد ملجأ إلا فى الزهد المقوض للديانة الزرادشتية المتطورة فرارا من رزايا المعيشة العامة ، إنه يقول :

« لا سيما فى هذا الزمان الهرم البالى الشبيه بالصبابة والكدر ، فإنه وإن كان الله تعالى[1] قد جعل الملك سعيد الأمر ، مأمون النقيبة ، حازم الرأى ، بعيد المقدرة ، رفيع الهمة ، بليغ الفحص ، عدلا برا جوادا صادقا شكورا رحب الذراع ، متفقدا للحقوق ، مواظبا فهما لحيما رءوفا رحيما ، عالما بالناس ، محبا للخير وأهله ، شديدا على الظلمة ، موسعا على رعيته ، فإنا نرى الزمان مدبراً لكل مكان ، حتى كأن الفضل قد ودع وأصبح مفقودا ما كان عزيزا فقده ، موجودا ما هو ضار لمن ظفر به ، وكأن الخير أصبح ذابلا والشر نضيرا ، وكأن الغىّ أقبل ضاحكا وأدبر الرشد باكيا ، وكأن العدل أصبح غابرا وأصبح الجور غالبا ، وكأن العلم أصبح مستوراً وأصبح الجهل منشوراً ، وكأن اللؤم أصبح آمرا وأصبح الكرم موطوءا ، وكأن الود أصبح مقطوعا وأصبح الحقد موصولا ، وكأن الكرامة قد سلبت من الصالحين وتوخى بها الأشرار ، وكأن الغدر أصبح مستيقظا وأصبح الوفاء نائما ، وكأنما الكذب أصبح غضا والصدق قاحلا ، وكأن الحق ولى عاثرا وأصبح العدوان قد جرى سبيله ، والإنصاف بائسا والباطل مستعليا ، والهوى بالحكام موكلا ، والمظلوم بالخسف مقرا ، والظالم لنفسه فيه مستطيلا ، والحرص فاغرا فاه يتلقف من كل جهة ما قرب منه وبعد عنه ، والرضا مجهودا مفقودا ، والأشرار يسامون السماء ، والأبرار يريدون بطن الأرض ، وأصبحت المروءة مقذوفا بها من أعلى شرف إلى أسفل مهواة ، والدناءة مكرمة والرفعة مجفوة ، والسلطان متنقلا من أهل الفضل إلى أهل النقص ، والدنيا جذله مسرورة تقول : قد غيبت الحسنات

(١) ترجمة ابن المقفع بعد الإسلام .

وأظهرت السيئات » .

كان الدين الزرادشتى يوم أن مات كسرى أنو شروان قد تزعزعت أركانه حتى أن رجال الدين أنفسهم قد ضاقوا بخرافاته وأساطيره وراحوا يخترعون الشروح التى يقبلها العقل . وقد خاب أمل الفلاسفة فى البلاط الكسروى ودب اليأس فى قلوب المفكرين وانتشر الإلحاد والضياع وبدا لكل ذى عينين أن فارس باتت فى أشد الحاجةُ إلى دين جديد وأن أوان صاحب الجمل الذى بشر به زرادشت قد آن ، ولو بقى بصيص من نور الإيمان فى القلوب لاتجهت الأبصار جميعا إلى جزيرة العرب ، فالبشارات الفارسية منذ عهد زرادشت تنبأت بأن نور اليقين سينبثق منها يغمر العالمين .

وخلف كسرى أنو شروان هرمزد الرابع وقد كان أول ما فعله أن استدعى العرافين والكهان والمنجمين ، وقد أخبروه أن ملكه سيزول بسبب ثورة الأشراف عليه فغرسوا فى قلبه كراهية الأشراف والخوف منهم .

وصار همه تألف السفلة واستصلاحهم وحبس العظماء وحط مراتبهم ، وقد قتل من العلماء وأهل البيوتات والشرف ثلاثة عشر ألف رجل وستمائة رجل ، وقد عرضه تسامحه فى أمور الدين لحقد رجال الدين الزرادشتى .

ومنع بنو تميم لما مات كسرى أنو شروان ضربة الأتاوة التى كانت عليهم ، فلما بلغ ذلك هرمزد أرسل إلى النعمان بن المنذر عامله على الحيرة يأمره أن يبعث الجيوش لتأديب بنى تميم الذين شقوا عصا الطاعة وأبوا أن يؤدوا الجزية لملك الملوك .

فأرسل النعمان يطلب أخاه الريان ، فلما جاء الريان إلى « الخورنق » قصر الحيرة العظيم أمره أن يخرج فى كتيبة دوسر لتأديب المتمردين ، وكان أكثر رجالها من بكر بن وائل .

كان قيس بن عاصم شريفا من أشراف بنى تميم ، وكانت ابنته زوجة لسيد من سادات القبيلة . وفى ذات يوم بينا كانت القبيلة هادئة هانئة إذا براية النعمان مقبلة وإذا بكتيبة دوسر تتقدم وقد رفع رجالها سيوفهم ، إنها الحرب . ففزع رجال بنى تميم إلى سيوفهم وسرعان ما دار القتال وتقارعت السيوف ، ومشى الرجال إلى الرجال مشى الوعول ، وسالت الدماء وارتفعت الصيحات مجلجلة فى الفضاء ، ولاح النصر للريان فقد كان رجال تميم يتقهقرون وقد غطت جثث صناديدهم الأرض وراحت الطيور والجوارح تحوم حولها .

وانكشفت خيام الحريم ، ولما رأى نسوة القبيلة ما حاق بالحماة رحن يهرولن يلتمسن الفرار ، ولكن رجال كتيبة دوسر انقضوا عليهن انقضاض النسور ، واستاق الريان نَعم بنى تميم وسبى ذراريهم ، ثم عاد بغنائمه إلى الحيرة .

واستقبل النعمان أخاه الريان استقبال الغزاة وأقام فى القصر حفلا رائعا ، وقد قام الشعراء يعبرون عن شعورهم فقال قائل منهم :

لما رأوا راية النعمان مقبلة
قالوا : ألا ليت أدنى دارنا عَدَنُ

ياليت أم تميم لم تكن عرفت
مُرا وكانت كمن أودى به الزمن

أن تقتلونا فأعيار مُجَدَّعة
أو تنعموا فقديما منكم المِنَنُ

كانت الأفراح فى الخورنق وكانت الأتراح فى مضارب قبيلة بنى تميم ، وقد زاد فى حزن الرجال أن ابنة قيس بن عاصم فى السبايا ، وراح سادات القبيلة وأشرافها يمعنون الفكر فلم يجدوا خيرا من الذهاب إلى النعمان وتكليمه فى الذرارى .

وتأهب أشراف القبيلة وسادتها للانطلاق إلى الحيرة ، وكان قيس بن عاصم إلى جوار زوج ابنته يستشعر خزيا ويطأطىء رأسه كلما حانت منه التفاتة إلى الرجل الواله الحزين والتقت عيناه بعينيه .

كانت مصيبتهما واحدة والرزء واحد والألم يرعى بين الجوانح ، ولكن كان يخفف من لوعة الأسى أن الابنة الحبيبة والزوجة الشريفة أخذت قسرا وأنها ستموت دون عرضها .

وبلغ أشراف بنى تميم وسادتها الحيرة ، فانطلقوا متلهفين إلى القصر والتمسوا مقابلة النعمان ، فأذن لهم ، فلما مثلوا بين يديه كلموه فى الذرارى فقال النعمان :

ـــ إنى جعلت الخيار فى ذلك إلى النساء ، فأية امرأة اختارت زوجها ردت عليه .

وأمر أن يؤتى بالنساء فخفقت قلوب رجال بنى تميم رهبة وجفت الحلوق وزاغت الأبصار ، فلو اختارت زوجة سابيها على زوجها لكان فى ذلك ذل ما بعده ذل وعار ما بعده عار .

وتقدمت النساء على استحياء وراح النعمان يخير كلا منهن بين زوجها وسابيها فاختلفن فى الخيار واسودت وجوه بعض الرجال . وتقدمت بنت قيس بن عاصم فأحس أبوها أن روحه تكاد أن تفر من بين جنبيه ، وشعر زوجها كأن يدا قوية تضغط على عنقه تكاد تكتم أنفاسه ،

آه لو اختارت زوجه سابيها عليه لمات كمدا . وخيرها النعمان بين زوجها وسابيها فتعلقت العيون بشفتيها ، إنها ستنطق بكلمة فيها حياة أبيها أو موته ، وإن ظل يمشى على وجه الأرض يتلفت .

وخرجت الكلمة من بين شفتيها كخنجر مسموم طعن فؤاد أبيها ، إنها اختارت سابيها على زوجها . وأحس قيس بن عاصم أنه جدار قديم يتهدم وأن أنفه فى الرغام ، ودارت به الأرض وانسل من القصر لا يدرى كيف خرج .

إنه فى ذهول ، إنه لا يصدق أذنيه . ولكن نظرات القوم التى سددت إليه تؤكد له حقيقة الفاجعة . كان أهون عليه أن تنعى إليه ابنته من أن يقال فى قبائل العرب بنت قيس بن عاصم اختارت سابيها على زوجها ، اختارت العار على الشرف .

وقفلت وفود بنى تميم عائدة إلى منازلها وقيس يجرجر أذيال العار ، وقد نذر أن يدس كل بنت تولد له فى التراب . وظل قيس يتوارى من الناس خجلا حتى إذا ما وضعت إحدى زوجاته بنتا زينها ثم وأدها ؛ وضعها فى حفرة وهى حية ثم أهال عليها التراب .

وانتشر فى قبائل العرب انتشار الريح أن بنت قيس بن عاصم اختارت سابيها على زوجها وأن البنات لا يجلبن إلا العار ، وأن قيس بن عاصم قد نذر أن يدس كل بنت له فى التراب ، وأنه وأد أول بنت ولدت له . وأثارت تلك الحادثة الغيرة فى قلوب رجال العرب فأقبلوا على وأد بناتهم مخافة العار .

وانتقل الوأد إلى مكة ، وأشفق بعض عقلاء الرجال من هذه الوحشية فراحوا يقاومون هذه البدعة التى ابتدعها زعيم بنى تميم .

كان فقراء المكيين يقتلون أولادهم خشية الفقر ، حتى إذا ما صار هاشم بن عبد مناف زعيم قريش واستن رحلة الشتاء والصيف جعل أموال القوافل مشاعا لكل المكيين لكل مكى حق فى أرباح التجارة ، فقضى على الإملاق وهجر الفقراء قتل الأولاد أو تقلصت تلك العادة .
وها هو ذا قيس بن عاصم يحيى بدعة اعتنقها الغيورون من الرجال وساروا على أثره متحمسين غير مفكرين ، فقد سلبت مخافة العـار ألبابهم .

وقد رأى محمد ولا ريب الحامل إذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة ، فإذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة وأهالت عليها التراب . وقد تركت هذه القسوة أثرها فى النفس الذكية والقلب الرحيم .

— ٩ —

أرخى الليل شعره الأسود الفاحم على وجه النهار ، وران السكون على جبال مكة ووديانها ، وهدأ كل شىء لا حركة ولا نأمة ، وهجعت الكائنات بينا ظل قلب الوادى المقدس ينبض بالحياة ، فالطواف حول الكعبة لا ينقطع آناء الليل وأطراف النهار .

وراح عبد المطلب يتلمس طريقه إلى سريره وهو يحس وهنا يدب فى أوصاله ، وحنين جسمه إلى الأرض ، فباتت أمنيته أن يبلغ الفراش لكى يرتمى فيه ويسلم جنبيه للرقاد ، فساقاه أمستا لا تقويان على حمله حتى أنه يستشعر بالكون يدور به وبمطارق تدق رأسه . وكاد أن ينوء وهو فى

طريقه إلى سريره ولكنه جمع ما بقى من عزيمته الماضية وشد أزر نفسه حتى وصل إلى غايته ، إلا أنه لم يلق بذاته المتعبة فى الفراش بل راح يتحسسه بيده ، فلما لم يجد بغيته نادى :

— بركة .. بركة .

وجاء صوت بركة من بعيد :

— لبيك .

— على بابنى .

واتخذت بركة الحبشية طريقها إلى حيث اعتاد ابنه أن يجلس فى الليل : إنها مرت بحمزة بن عبد المطلب وبالعباس و لم تلتفت إليهما ، فما كان الشيخ يبغى أحدهما بل كان يريد ابن عبد الله حبيبه الذى لا يطيق فراقه .

كان محمد جالسا بالقرب من النافذة يرعى نجوم السماء ويقلب وجهه فى الكون ، ينظر ويتأمل ويتدبر وتتهلل نفسه بالفرح كلما أحس بتعاطف مع ما حوله وبحب يزداد مع الأيام للوجود الذى يستشعر نبضه فى أغوار أعماقه .

الدنيا من حوله مليئة بالأسرار ، وهى أسرار غامضة يلذ له أن يطيل النظر إليها دون أن يحاول أن يغوص ليكشف عنها النقاب أو يعرف كنه جوهرها ، بل كان يكفيه وهو فى مثل سنه تلك النشوة الروحية التى تملأ وجدانه كلما انصهرت ذاته لتذوب فى ذات الذوات وروح الوجود الخفافة ، فى كل ما يمد إليه عينيه أو بين جنبيه .

وجاءت إليه بركة فألفته هائما فى ملكوت السموات كأنما يرشف رحيق الحكمة لتستقر فى قرار مكين ، فرنت إليه رنوة حب وحنان

وإعجاب ثم أخذته من يده وسارت به إلى حيث تمدد الشيخ الجليل . وما أن أحس عبد المطلب بمقدم حفيده الغالى حتى وسع له مكانا فى السرير فصعد محمد ونام إلى جوار جده الذى ضمه إليه فى حب . ولما استشعر أنه قد التصق بصدره وملأ عبيره الذكى أنفه سكنت الطمأنينة قلبه وراح فى سبات عميق .

وطار الليل مقصوص الجناح ، وغرد الطير فنبه من نعس ، وسل سيف الفجر من غمد الدجى فقام محمد من نومه وترك فى خفة الفراش لكيلا يوقظ شيخ بنى هاشم ، وسرعان ما دبت الحياة فى البيت الكبير قبل أن تبعث الشمس أشعتها إلى أم القرى ، وفتح الباب فى رفق خشية أن يوقظ صريره عبد المطلب ، وخرج منه محمد وحمزة والعباس وانطلقوا إلى الحرم ليطوفوا بالبيت العتيق الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا .

وطافوا سبعة أشواط ، وما أتموا طوافهم حتى ذهب العباس وحمزة إلى الملتزم بين باب الكعبة والحجر الأسود حيث يتلقى صفوة صبيان مكة وشبابها دروسا فى الكتابة والحساب ، وانطلق محمد ربيب الحرية إلى المراعى ليرعى غنم أهله ، فقد كان يتألق بالبشر كلما ألقى بنفسه بين أحضان الطبيعة الحانية .

كان العباس يرهف السمع لذلك الذى يلقى عليهم دروسا فى الكتابة ويعلمهم أسرار الحساب ، وكان يجد فى التحصيل فغاية أمانيه أن يقرض الناس بالربا وأن يجيد كتابة العقود حتى لا يضيع ماله ، بينا كان حمزة يتلقى العلم للعلم ليكون سيدا من سادات بنى هاشم ، فقد كان جل بنى هاشم يجيدون القراءة والكتابة ، أما محمد فلم يكن ليحفل بذلك العلم

الذى تحشى به رءوس غلمان سادات مكة عند الملتزم ، فهو يتلقى من هيامه فى البيداء ومن تأمله فى الوجود أسرارا يعجز عن كشف مغاليقها من نصبوا أنفسهم لتعليم طلاب العلم عند الملتزم . إنه يسلك طريقا وعرا شائكا مليئا بالعوائق والصعوبات ، ولكنه طريق سيصل به إلى أعتاب السر البشرى ، بل إلى أعتاب أسرار الوجود جميعه .

واصطبغ الأفق الغربى بلون الأرجوان ، ومالت الشمس لتغيب خلف جبال مكة فراح محمد يسوق الغنم أمامه ليعود قبل الغسق ، وقبل أن يدركه الليل كان فى طريق الصفا ليدخل دار جده عبد المطلب .

كان بعد عودته من يثرب بعد موت أمه يطيل النظر إلى بيت عبد الله قبل أن يعرج إلى البيت الكبير ، وكانت ذكريات الأيام الحلوة التى قضاها مع أمه تنثال على رأسه ، وكثيرا ما كانت تدمع عيناه لما تدركه رحمة آمنة ، وكان يحس مرارة اليتم فى نفسه ويتألم أشد الألم ، ذلك الألم الذى يعمل على تكوين شخصيته وتحقيق ذاته . ولكنه على مر الأيام اعتاد أن يأخذ طريقه إلى دار جده دون أن يتلفت ، فقد عوضه حنان عبد المطلب كل حنان .

ودخل وهو يتلهف على رؤية جده وتأهب ليرتمى فى أحضانه ، ولكنه ما أن تقدم خطوات حتى تسمر فى مكانه وخفق قلبه فى خوف ، فقد رأى جده مسجى فى فراشه وحوله أعمامه وعماته مطرقين صامتين وفى وجوههم هم ثقيل ، وشق غلالة السكون صوت عبد المطلب يقول فى صوت خافت :

— واكرباه !

ونظر محمد إلى وجه جده وهو واقف خلف سريره فألفاه ذابلا قد

علته صفرة . إنه رأى الموت قبل ذلك فى وجه أمه وإن ما يراه فى وجه جده هو نفس ما رآه فى محيا آمنة الحبيبة ، ترى أيموت جده كما ماتت أمه ويتركه فى هذه الحياة وحده بلا ناصر ولا حبيب ؟

وسرت فى بدنه قشعريرة وانقبض صدره وبللت الدموع روحه وأحس أن عبراته توشك أن تفر من مآقيه ، فحاول أن يملك ذاته ولكنه عجز عن أن يكبت عواطفه فذهب بعيدا ليبكى وحده .

إنه وحيد ، يتيم ذهب أبوه قبل أن يرى النور ، وماتت أمه غريبة فى الصحراء وقبرت هناك فى الأبواء ، وها هو ذا جده يجود بأنفاسه الغالية وعما قليل يذهب دون أن يئوب ويتركه يتجرع غصص اليتم مرة أخرى بعد أن وجد عنده حنانا عوضه حنان آمنة وحبا عوضه حب عبد الله ، فموت عبد المطلب هو موت عبد الله وموت آمنة وموت لكل الآمال الحلوة والأمانى البسامة التى كانت تلوح له فى حلكة الزمان .

ورفع عبد المطلب يدا واهنة ومررها على وجهه ، وراحت أطوار حياته تمر أمام عين خياله ، إنه يرى نفسه غلاما فى يثرب يلعب مع أبناء أخواله من بنى النجار ، ويرى أمه سلمى وهى تغمره بالحنان ، ثم سرعان ما رأى عمه المطلب وقد جاء ليحمله إلى مكة ، واحتلت صفحة ذهنه صور الوداع الحار الذى كان بينه وبين أمه ، إن ذكرى ذلك اليوم ظلت حية فى وجدانه لم يضعفها مرور الأيام .

ورأى يوم ذهب بعبد الله إلى هبل ليذبحه وفاء لنذره ، ورأى الناعى وقد جاء ينعى إليه عبد الله ، وما لبث أن رأى ابنه الحارث يلفظ ذوب نفسه ، وهز رأسه فى ضعف كأنما يحاول أن يمحو ذكريات الموت .

وراح يجاهد ليتذكر رحلاته فطفت على سطح خياله رحلته إلى اليمن ،

وإذا بصوت الكاهن الذى ذهب إليه يرن فى أعماقه :

« إنى أرى فى إحدى يديك ملكا وفى الأخرى نبوة » كانت تلك النبوءة غامضة فى ذلك الوقت ولكنها واضحة له فى هذه اللحظة وضوح النهار ، فقال فى صوت واه :

ـــ على بابنى .

فخف أبو طالب إلى حيث كان ابن أخيه ، وما لبث أن عاد بمحمد ووضعه بين ذراعى الشيخ . وحاول عبد المطلب أن يضم حفيده إليه ولكنه كان أوهى من أن يحرك ذراعيه ، وهم محمد بأن يرتمى على صدر جده كما ارتمى من قبل على جثة أمه وأن يطلق لعواطفه العنان وأن يذرف الدمع السخين على حبه الكبير ، إلا أنه أشفق أن يؤذى حبيبه فراح يقاوم دموعه وإن كانت نار اليتم ترعى بين ضلوعه .

سيذهب جده ولن يئوب وسيتركه كما تركته أمه للشجن واليتم والألم والدموع ، إنه بات يشعر وهو فى دار جده أنه غريب ، وراح يقلب عينين دامعتين فى الحاضرين ، إنه يرى من بين الدموع هالة زوج جده ، وعماته صفية وبرة وعاتكة وأم حكيم البيضاء وأميمة وأروى ، وزوجة عمه فاطمة بنت أسد ، وجارية أبيه الحبشية بركة ، وأعمامه الزبير وأبا طالب وأبا لهب والعباس وحمزة ، إنه يستشعر أن الأرض تكاد أن تميد به ولا يدرى إلى أى صدر حنون يهرع ليرتمى عليه ليذرف عبراته . وقد وجد فى تلك اللحظة أن أمه بركة أقرب الحاضرات إلى قلبه الواله الحزين ، فهى عبير آمنة ورفيقة الطريق بعد أن قبرا الغالية ، وهى التى مسحت بيدها يتمه عقب أن عاد إلى مكة وحيدا حزينا يكاد أن ينفطر فؤاده من الأسى ، فانطلق إليها وأخفى وجهه فى طيات ثيابها وراح ينشج

فى صوت مكتوم حتى لا يصل نحيبه إلى الشيخ الحبيب .

كان عبد المطلب قد ذهب بصره إلا أنه كان يرى فى وضوح وهو يعانى سكرات الموت أباه هاشما وأمه سلمى وابنيه عبد الله والحارث وقد جاءوا ليأخذوه ، وفطن إلى أنه الفراق فأحب أن يسمع رثاءه ، فالتفت ناحية بناته وقال لهن :

ـ ابكين علىّ حتى أسمع ما تقلن قبل أن أموت .

فقالت صفية :

أرقتُ لصوت نائحـــة بليـــــل
على رجـــل بقارعـــة الصعيـــد
فقـاضت عنـد ذاك دمـوع عينـى
على خـــدى كمنحـــدر الفريـــد
على رجـــل كـــريم غير وغْل
لــه الــفضل المبيــنُ على العبيــد
على الفيــاض شيبــة ذى المعــالى
أبــيك الخيــرُ وارثَ كل جــــود
صدوق فى المواطــن غير نِــكْس[1]
ولا شخت[2] المقام ولا سنيــد[3]

---

(١) الرجل الضعيف الذى لا خير فيه .

(٢) الشخت : الدقيق الضامر من غير هزال .

(٣) الضعيف الذى لا يستقل بنفسه حتى يسند رأيه إلى غيره .

طويل الباع أروع شَيْظَمى(١)
مطاع فى عشيرته حميد
رفيع البيت أبلج ذى فضول
وغيث الناس فى الزمن الحرود

وقالت أميمة :

ألا هلك الراعى العشيرةَ ذو الفقدِ
وساقى الحجيج والمحامى عن المجد
ومن يؤلف الضيف الغريبَ بيوتَه..
إذا ما سماء الناس تبخل بالرعد
كسَبتَ وليدا خير ما يكسبُ الفتى
فلم تنفك تزداد يا شيبة الحمد
أبو الحارث الفياض خلَّى مكانه
فلا تبعدن فكل حى إلى بُعد
فإنى لباك ما بقيت وموجَع
وكان له أهلا لما كان من وجدى
سقاك ولىُّ الناس فى القبر ممطرا
فسوف أبكِّيه وإن كان فى اللحد
فقد كان زينا للعشيرة كلها
وكان حميدا حيث ما كان من حمد

وقالت أروى :

---

(١) الشيظمى : الطويل الجسم .

بـكت عينـى وحـق لها البكـاء
على سمح سجيتـه الحيـاءُ
على سهـل الخليقـة أبطحـى
كـريم الخيم نيتـه العـلاء

وقالت برة :

أعينـى جـودا بدمـع درر
على طـيب الخيم والمعـتصر
على ماجـد الجد وارى الزنـاد
جميـل المحيا عـظيم الخطـر
على شيبـة الحمـد ذى المكرمـات
وذى المجد والعـز والمفتخـر

وقالت عاتكة :

أعينـى جـودا ولا تبخـلا بدمعكمـا بعـد نـوم النيـام

وقالت أم حكيم البيضاء :

ألا يـا عين جـودى واستهلى وبكّـى ذا النـدى والمكرمـات

وما انتهت بناته من رثائه حتى قال فى صوت متهدج متقطع :

ــ هكذا فابكينني .

ولفظ شيخ بنى هاشم النفس الأخير فضج الحاضرون بالبكـاء ، ووقف محمد خلف سرير عبد المطلب يبكى جده أحر بكاء وقد ثار فى نفسه ألم حاد عميق ، إنه أضحى مرة أخرى يتيما ، لا مستقبل له ينعطف إليه ولا صدر حنون يرتمى عليه ، إن النيران قد اشتعلت فى جوفه وإنه يعانى تجربة الوحدة المريرة الممضة القاسية .

كان بين أعمامه وعماته الذين يذرفون الدموع إلا أنه كان يحس كأنه تائه فى بيداء الحياة ، الحزن يضطرم فى أعماقه ، والدموع لا تطفىء لهيب نفسه الحزينة . إنه وحيد يستشعر أنه فى جانب والعالم كله فى جانب آخر ، فهو وحده الذى يستطيع أن يحس لوعة الأسى وحدَّة الألم التى تعصره عصرا .

ماتت أمه آمنة وتركته يجابه الحياة وحده يعانى التجارب الأليمة ، فلما كفله جده وغمره بعطفه كاد يطمئن إلى الأيام ويركن إلى الحنان الدافق الذى يهدهد حواسه ، ولكن المنون عادت واختطفت جده الحنون وتركته للوحدة والألم لتكتسب ذاته عمقا وخصبا وثراء ، فالتجارب الأليمة التى يعانيها تندمج فى صميم وجوده وتزيد فى خصب حياته الروحية وفى عمق حياته الباطنية ، وتصبح ثروة فى الفؤاد تدخرها ذاته للمستقبل سلاحا يصد به هجمات الأحداث المرة الأليمة .

وذاع فى مكة أن عبد المطلب مات فساد الناس وجوم وطفرت العبرات من العيون ، واشتدت النادبات إلى جبل أبى قبيس يندبن رجل الكرم والجود ، وانطلقت ألسنة الشعراء بالرثاء وأغلقت الأسواق حداداً على الرجل الذى ظل لسنوات طوال أمل قريش ورمز مكة وعزها .

وحمل بنوه النعش على أكتافهم ، وسار رجال مكة كلهم خلفه سادة وعبيداً وقد غامت الوجوه حزنا وامتلأت المآقى بالعبرات ، وانطلق محمد فى الزحام فى جنازة جده وهو شارد يكاد الحزن أن يمزق أوتار قلبه ، يعانى فى صمت مرارة الألم وقسوة الوحدة وإن كان فى غمار كل أهل مكة .

وحركت أشجانه الذكريات الحزينة فرأى نفسه وهو على ظهر بعيره

وأمامه أمة جثة هامدة مسبلة العينين ذابلة الوجه صامتة صمت القبور ، يخب بهما البعير منطلقا إلى الأبواء لتوارى الأم الحبيبة فى التراب ، فلم يستطع أن يملك زمام ذاته فانفجر باكيا يحس أن كبده تكاد تنفطر وأن حلقه قد امتلأ بأشواك .

وبلغت الجنازة الحجون فدلى عبد المطلب فى حفرة ليقبر إلى جوار جده قصى فضج الناس بالبكاء ، وراح محمد يتلوى أسى وألما وحزنا . إنه الموت ، إنه الفراق ، إنه الوداع ، وإنه ليتجرع نفس غصص الألم التى تجرعها يوم أن قبرت أمه غريبة فى أرض غريبة ، وقد أمسى هو نفسه يحس غربة وإن كانت قريش كلها حوله .

وأهيل التراب على عبد المطلب وعاد الناس إلى دورهم مطرقين أسفا ، وعاد حمزة بن عبد المطلب ليرتمى فى أحضان أمه هالة يبكى وينتحب ، وقفل العباس إلى دار أبيه ، ولم يعد محمد إلى البيت الكبير فقد خوى من جده الحبيب ، بل ذهب إلى الحرم ومد بصره إلى حيث كان يجلس عبد المطلب فى ظل الكعبة ، ثم سح الدموع على ذهاب جده وعلى يتمه الذى تجدد .

— ١٠ —

اختصم الزبير وأبو طالب شقيقا عبد الله أيهما يكفل محمداً ، فالزبير يحب أن يضم ابن أخيه إلى بنيه وأبو طالب يتمسك بوصية عبد المطلب ، فقد أوصاه أبوه قبل أن يموت أن يرعى حفيده الحبيب . ورأى أبو طالب أن يحسم الأمر بأن يترك لليتيم أمر اختيار من يحب أن يعيش فى كنفه ،

فجىء بمحمد وخير فاختار أبا طالب فضمه عمه إليه فى حب ، ثم انطلقا إلى دار أبى طالب وقد حملت بركة الحبشية متاعها ومتاع ابنها من البيت الكبير إلى دار الكافل الجديد .

وحرّك خروج محمد من بيت جده أشجان هالة فذرفت الدمع على ابن آمنة اليتيم الذى لم يعرف الاستقرار مذ تفتحت عيناه على النور ، فما مضت ثمانية أيام على ولادته حتى حملته حليمة إلى هوازن ليشتد عوده فى بنى سعد ، وما كاد يألف جبال البيداء ووديانها ويتفتح فؤاده لإخوته الشيماء وأنيسة وعبد الله حتى أعادته حليمة إلى أمه لينعم بالحب الصافى العميق ، ولم تطل أيام طفولته المستقرة السعيدة فما أسرع أن حملته أمه إلى يثرب ليزور قبر أبيه .

ومكث الفتى الذى كتب عليه أن يضرب فى الأرض شهراً فى ضيافة أخوال جده من بنى النجار يجوس خلال الديار ويتعلم العوم وهو الذى لم ير فى مكة ولا فى بيداء بنى سعد مجارى الماء ، ليسفر منذ نعومة أظفاره على استعداده لتطوره وعلى سموه على عادات قومه . وقد انتهت أيام يثرب بقمة مأساة لصبى إذ ماتت أمه فى الطريق وتركته يواجه وحده لطمات أمواج الحياة فى سفينة بلا ربان .

وترك الغلام بيت أبيه عبد الله بعد أن خلا من آمنة الرءوم ، وما كاد يطمئن على صدر جده الحنون وينسى آلام اليتم ومرارته حتى ذهب عبد المطلب كما ذهب من قبل عبد الله وآمنة ، وذاهب الموت لا يئوب . وحز فى نفس هالة أن كتب على ابن آمنة ولما يتجاوز الثامنة من عمره عذاب الألم وقسوة الوحدة ومرارة الأحزان ، وما خطر على قلب بنت وهيب أن القوة كلها والغبطة كلها والثروة الروحية كلها إنما تنبعث جميعها من

الوحدة والألم والأحزان ، وأن ابن عبد الله إنما يصهر فى بوتقة الألم لتكتسب ذاته عمقا وخصبا وثراء ورحمة تؤهله جميعا للرسالة السماوية التى ينوء بها أولو العزم من الرجال .

كانت هالة ابنة عم آمنة وزوجة عبد المطلب وأم حمزة ، وكانت ترجو من كل قلبها أن يستمر محمد فى بيت جده مع عمه حمزة الذى كان فى مثل سنه ، ولكن كان يحول دون تحقيق أمنيتها تقاليد عتيدة لا تقر بأن يترك صبى مثل محمد فى كنف امرأة ولو كانت ابنة عم أمه وزوج جده الحبيب ، فكان لا بد أن يكفله عم من أعمامه ، وقد انتقل يتيم قريش من دارها إلى دار أبى طالب مخلفا فراغا ولوعة وأسى فى قلب حمزة ، بل فى قلوب كل من فى البيت الكبير من سادة وعبيد .

ورحبت فاطمة بنت أسد بالوافد الكريم وحاولت بحنانها أن تمسح عن صدره الألم والأحزان ، وجاهدت ليندمج الفتى اليتيم فى بنيها يلعب معهم كما يلعبون ويلهو كما يلهون ، ولكنه آثر الوحدة والانطواء على نفسه وسبر غور ذاته ، فقد اختبر عمق حياته الباطنية وأدرك تفاهة الانغماس فى حياة مجتمعه .

ووضع أبو طالب الطعام وجلس محمد مع بنيه فإذا بأبناء أبى طالب ينهبون ما أمامهم و لم يمد محمد يده ، ولاحظ أبو طالب ذلك ففطن إلى أن ابن أخيه يتعفف وأنه يكره أن يتناول شيئا من الطعام قد يشتهيه غيره ، فأمر أبو طالب أن يقدم لمحمد طعامه وحده . وقلما كان يأتى على ما يقدم إليه ، وعلى الرغم من ضآلة ما كان يأكله فإنه كان ينمو نموا يفوق نمو من كان فى مثل سنه .

وكان محمد يخرج إلى الحرم ويطوف بالبيت ويتأمل أهل مكة وهم

يتمسحون بتماثيل الآلهة ويقدمون إليها القرابين ، فلم يستسلم لمجتمعه و لم يفعل ما يفعل قومه بل راح ينظر ويتأمل ويفكر فلم يسترح بفطرته السليمة إلى هذه الأفعال التى تركز كل آماله فى صنم ، بل كان ينطلق إلى الفضاء العريض فيستشعر أن الكون كله محرابه وأن كل نظرة إلى السماء التى لا تحد صلاة ، وكل رنوة إلى غروب الشمس أو بزوغ القمر أو تلألؤ النجوم تسبيح ، وأن الوجود جميعه بما يخفق فى جنباته من نبض الحياة قدس أقداسه . إنه ينصهر فى شروق الشمس ويذوب فى الشفق ويحس بينه وبين الكون ضربا من الألفة والتوافق والاتزان والتطابق ، فهو وإن كان منطويا على ذاته فإنه يستشعر فى صميم وجدانه بالعالم ، بل بالآفاق ، بسحرها وسرها وغموضها اللذيذ .

كان كلما ارتمى فى أحضان الكون يتهلل بفرح روحى ؛ ويربو خصب حياته الباطنية ، ويتضاعف ثراء كنوز فؤاده وينطلق حرا طليقا من سجن جسده ليهيم فوق السحاب ، بل ليسمو إلى ما فوق السماء ، وقد كانت رحلة روحه القوية تروى بذور نموه الروحى وتفتق البراعم عن أسرار عظمته .

رده الألم إلى ذاته وأتاح له معاناة الوحدة على حقيقتها . فكانت الوحدة ملاذاً أمينا مكنه أن يكشف عمق حياته الباطنية ؛ وأن يظل طويلا مطويا فى داخل صمته يتأمل ويتدبر ويفكر ويتصل بالملكوت الأعلى ، ليتسلح لذلك اليوم الذى سيجابه فيه الدنيا بأسرها ليبلغ رسالات ربه .

إنه رأى أمه تموت أمام عينيه ، ورأى جده يشهق شهقة ثم يمضى بلا عودة ، فراح يفكر فى المولد والموت وما بعد الموت ؛ إن الإنسان يولد

وحيداً ويموت وحيداً وليس لأحد أن يعيش عوضا عنه أو يموت عوضا عنه . هذه حقيقة ولكن ماذا بعد الموت ؟ أخلق الإنسان عبثا ؟ ذلك هو السر الذى يحيره .

الموت ! إنه وقف عاجزاً أمامه يوم أن صرع أمه واختطفها من بين أحضانه لتغيب فى التراب ، الموت ! إنه استل جده الحبيب من بين بنى هاشم الأقوياء دون أن يحرك أحدهم ساكنا . ترى أيموت الناس كما يموت البعير ثم لا شىء ؟ أتطول وقفته على أعتاب ذلك السر ؟

والإنسان ؟ من أين جاء ؟ هل انبثق من العدم ؟ وإلى أين يذهب ؟ أيذهب إلى العدم ؟ أسئلة دارت فى ذهنه لم يجد لها فى ذلك الوقت جوابا ، ولكنه كان يحس أن هناك صلة وثيقة بينه وبين العالم الذى يعيش فيه ، بل بين روحه التى تخفق بين جنبيه وروح الوجود التى تسرى فى الكون . وكان ذلك الإحساس يملأ جوانبه بالنور ، ولكنه لم يكن يقضى على الأسئلة الذكية التى تثور فى وجدانه .

كان يستريح لصحبة نفسه ويبتهج للخواطر التى تثور فى صميم ذاته ، ويركز ذهنه ليلقى أضواء عليها ويطيل تأمله الباطنى ويراقب ضميره فتزداد حياته الروحية عمقا وثراء ، فيدنو من السماء وتدنو منه السماء .

كان عملاقا فى جسم غلام ، إنه أكبر بكثير مما يبديه جسده أو ما يراه منه الآخرون ، فهو على الرغم من حداثة سنه لم يسجد لصنم و لم يذبح لوثن و لم يصغ إلى عراف ، و لم يحلف أبداً باللات والعزى والحلف بهما يتردد فى الحرم وفى الدور وفى الأسواق ، ويتجاوب فى شعاب مكة وجبالها وروابيها بل وفى كل فج عميق من أرض الحجاز .

وجاء يوم عيد من أعياد قريش يخرج فيه الناس إلى صنم من أصنامهم

يذبحون له ويحلقون عنده ويعكفون عليه يوما إلى الليل فى كل سنة ، فتقاطر أبناء عبد المطلب وبناته إلى بيت أبى طالب فى البكرة وراح كل منهم يقبل محمداً ويضمه إليه فى حنان ومحمد سعيد بالعواطف الرقيقة الفياضة بالحب التى تغمره . وراح أبو طالب وزوجه فاطمة يعدان الإفطار للأسرة التى تجمعت لتنطلق إلى العيد ، وخلا الزبير بمحمد وطفق يحدثه عن رحلة الشتاء التى سينطلق فيها إلى اليمن ، فعرض محمد على عمه أن يأخذه معه فما كان الصبى الذى راح يجوب الآفاق منذ اليوم الثامن من مولده يحب حياة الدعة والاستقرار ، فرحب الزبير بصحبته ، وراح العم وابن أخيه يستبقان الزمن ويجريان وراء الرحلة الموفقة الميمونة .

واجتمعت أسرة عبد المطلب حول الطعام ، وقبل أن يمد أحدهم يده تلفت أبو طالب فلم يجد محمداً ، فقال :

— كما أنتم حتى يحضر ابنى .

وجاء محمد وجلس يأكل معهم ، وامتدت الأيدى وامتلأت البطون وبقى فضل من الطعام ، فالتفت أبو طالب إلى محمد وقال :

— إنك لمبارك .

كان أبو طالب قد ولى زمزم والسقاية عليها بعد أن مات عبد المطلب ، وكان فى بحبوحة من العيش ؛ تجارته رائجة ، ولم يكن بعد كثير العيال ، وكان العباس فى الثالثة من عمره وكان يتطلع إلى الغنى ولكنه لم يثر ولم يعرف الذهب طريقه إليه ، وكان على الرغم من أنه من أحدث إخوته سنا إلا أنه كان يتطلع إلى أن يلى شرف الرفادة والسقاية لحجيج بيت الله .

وتأهبت أسرة عبد المطلب للخروج إلى العيد ، وارتفعت صيحات

الفرح من غلمان بنى هاشم ، حتى عمات محمد لاح فى وجوههن البشر . واندفع الرجال والنساء والصبيان نحو الباب فرحين يرجون رضاء آلهتهم عليهم . وحانت من أبى طالب التفاتة فألفى محمداً قد انزوى بعيداً وقد جلس إلى شباك وقد شرد يمد بصره إلى السماء ، فقال أبو طالب :

— محمد ، ألا تحضر العيد معنا ؟

— لا .

وصوبت الأبصار إلى محمد وقد لاح فيها خوف ، ودنت إحدى عماته منه وقالت له إنها تخاف عليه من غضب الآلهة . ولكنه أبى أن يذهب معهم فغضب عليه أبو طالب وغضبت عليه عماته أشد الغضب وجعلن يقلن :

— إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا .

— ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعا ؟!

فلم يزالو به حتى ذهب معهم وقد عزم على أن يكون فى صحبة نفسه منطويا على ذاته ، يعانى فى عمق تجربة الوحدة فى المجتمع ، وإن كان العالم الخارجى ينبض بثرثرة المخلوقات التى لا تكف عن استعراض ذاتها والتحدث عن نفسها والتدخل فى شئون غيرها وإذاعة سرها وأسرار الناس دون أن يكون فى وسعها أن تقبع فى ذاتها لكى تسبر غور نفسها .

وبلغ أبو طالب ومن معه رجلا من قبيلة لهب كان قائفا قد أتاه رجال من قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويقتاف لهم فيهم ، ينبئهم بعين فراسته عن مستقبلهم ، فأتى أبو طالب بمحمد ودفع به إلى القائف لعله ينبئه عن سبب تلك الكراهية التى يحملها ابن أخيه لآلهتهم ، فنظر الرجل إلى محمد

نظرات فاحصة ثم شغل عنه بشيء ، فلما فرغ قال فى لهفة :

— علىّ بالغلام .

وجعل يقول :

— ويلكم ردوا على الغلام الذى رأيت آنفا ، فوالله ليكونن له شأن .

فلما رأى أبو طالب حرص الرجل عليه غيبه عنه وانطلق به حتى أتوا مكان الاحتفال ، وإذا بأصنام قائمة ، وإذا بالناس يطوفون حولها طوافهم بالكعبة ، وإذا بالذبائح تذبح ، وإذا برجال ونساء وأطفال يطوفون حول الذبائح مهللين مستبشرين ملتمسين من آلهتهم أن تتقبل منهم وأن ترضى عنهم ، وإذا برجال يحلقون رءوسهم عند أصنام الآلـهة ، وإذا بعرافين ومنجمين وقافة قد انتشروا فى أرض العيد وقد أتاهم الناس ملتمسين إزاحة الستار عن أسرار الغيب .

وراح الزبير وأبو طالب وأبو لهب وحمزة وصفية وأم حكيم وهالة بنت وهيب ورجال بنى هاشم ونساؤهم وولدانهم وعبيدهم وإماؤهم يطوفون بأصنام الآلـهة فى خشوع ويبتهلون إليها فى حرارة ، ثم قدمت القرابين لتذبح ، وسالت الدماء عند أقدام الآلـهة ومحمد بن عبد الله واقف ينظر من بعيد ، ويتأمل ويفكر فى الأحجار التى لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا ترى ، التى يلوذ بها الناس ويشخصون إليها بأبصارهم وفى العيون دموع وفى القلوب خشية ، فيعجب من أحلام قومه الذين يعبدون ما ينحتون .

وعبق البخور فى المكان وراح يتصاعد إلى السماء ، وعلقت الهدايا الغالية بالأصنام وألقيت النذور فى الغبغب الذى كان أشبه ببئر صغيرة

عند أقدام كل صنم ، وراح سدنة الآلـهة ينظرون وقد تألقت بالطمع عيونهم ورف الجشع على شفاههم وإن تظاهروا بالتقوى والصلاح .

وطهيت لحوم الضحايا التى ذبحت على النصب ، ومدت الموائد لينال المكيون الطعام اللذيذ بعد أن نالت الآلـهة ما تشتهى من الدماء ، وقدمت خمور الشام فراح الرجال يعبون منها عبا ، وأبى أبو طالب أن يشرب فقد حرم الخمر على نفسه ، وامتنع عبد الله بن جدعان عن الشراب فإنه كان يحاول أن يقبض على أشعة القمر وهو سكران فلما أفاق وأخبر بما فعل أقسم ألا يعود للشرب أبداً .

ولعبت الخمر برءوس الرجال فطار الوقار كأنما قد استحال سادات الناس إلى قردة تقفز فى نشوة وتعبث دون مبالاة ، وراح محمد يرقب ذلك المجتمع العابث الذى فقد وقاره وهو يرثى فى قرارة نفسه لذلك الابتذال الذى تبدى من قوم خرجوا من دورهم لتقديم عبوديتهم لآلهتهم .

وتبخرت النشوة المؤقتة من الرءوس وبدأ الصداع وثقلت الجفون وحنت الأجسام إلى الرقاد فامتلأت الساحة بالراقدين . واصفر النهار ثم غابت الشمس فى الأفق الغربى فقام العبيد بإيقاد النيران على حوافى أرض العيد ، فراحت ألسنة اللهب تتراقص فى الفضاء وتعكس أضواءها على أصنام الآلـهة فيبدو المكان رهيبا كأنما قد غلف بسحر يأخذ بمجامع القلوب .

وراح محمد يرنو إلى تلك الأصنام التى كانت تتألق فى أضواء النيران فيحس رغبة فى أن يقوم إليها يتحسسها ، فقد كانت تبدو فى سكون الليل وقد تراقصت عليها ظلال النار غيرها فى النهار ، فنهض وسار إليها

ومد يده يمس أحدها فإذا به يخيل إليه أن قد قام بينه وبين الصنم شبح طويل يصيح به أن يعود ، فجمد فى مكانه لحظة ، حتى إذا ما سكن روعه واسترد أنفاسه راح يمد يده لصنم آخر فإذا بذلك الشبح قد قام بينه وبين الصنم وصاح به أن يعود ، فراح يعدو إلى الدار مرعوبا فزعا لا يلوى على شىء .

كانت بركة فى الدار فلم تخرج مع الخارجين ، فقد كانت حبشية و لم تكن على دين القوم وما كانت تحفل بأعيادهم وإن كانت تطوف بالبيت العتيق وتقسم بما يقسمون ، فلما دخل محمد عليها قرأت الرعب فى وجهه فقالت له :

ـــ ما دهاك ؟

ـــ إنى أخشى أن يكون بى لمم (المس من الشيطان) .

ـــ فما الذى رأيت ؟

ـــ إنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : وراءك يا محمد لا تمسه .

فضمته بركة إلى صدرها كأنما كانت تحميه من أشباح تطارده ، ثم قالت :

ـــ ما كان ربك ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك .

ازدحم الناس فى بيت الزبير بن عبد المطلب فقد جاء الموسرون من المكيين ليقدموا إلى زعيم القافلة التى ستنطلق إلى اليمن فى رحلة الشتاء بضاعتهم ، أو ليسلموه بعض النقود الفارسية أو الرومية ليشترى لهم بخورا يحملونه إلى الكنائس فى رحلة الصيف ، فالقسيسون والرهبان يقبلون على البخور ويشترونه بأسعار عالية ليطلقوه فى كنائسهم .

وجاء بعض متوسطى الحال والنسوة بما ادخروه فى عامهم ليشاركوا فى قافلة قريش التى كان خروجها إلى الشام أو إلى اليمن يوما من أيامهم المعدودة ، والتى كانت عودتها عيدا يدخل السرور على مكة كلها حتى إن غناء القيان كان ينبعث من كل دورها .

وأقبل أبو طالب وبعض بنيه ومحمد بن عبد الله إلى دار أخيه ليوصيه بشراء عطارة لدكانه وليساهم ببعض ماله فى تجارة قومه لعله يربح ما يعينه على رفادة حجيج بيت الله وسقايتهم فقد حمل ذلك العبء بعد موت أبيه عبد المطلب ، وهو يتمنى من كل قلبه أن ينهض به كما نهض به أبوه وألا يقصر فى حق ضيف الله وزوار بيته .

وراح محمد ينظر إلى الحشود التى ملأت دار عمه الزبير ، وإلى العقود التى تبرم ، وإلى الصكوك التى توقع ، وإلى البضائع التى تحمل إلى المخازن ، وإلى العبيد الذين كانوا فى غدو ورواح وقد تفصد العرق من أجسامهم وانبهرت أنفاسهم ، وإلى المرابين الذين خفوا إلى ساحة الدار التى انقلبت إلى سوق ليقرضوا الراغبين فى المغامرة بربا فاحش ليأكلوا

أموال الناس أضعافا مضاعفة ، فكان يبش مرة وينقبض فؤاده مرة ، ويستشعر الشفقة مرة ويمتلئ بالضيق وبالزراية مرة ، فقد كانت عواطفه تتحرك حسبما كان يجرى أمام عينيه ، وكانت تجارب جديدة تضاف إلى رصيد تجاربه كل يوم .

كان محمد فى علاقة مباشرة مع العالم ببصيرته النفاذة أن يغوص ليكشف عن جوهر الأشياء ، وما كان بمعزل عن الآخرين بل كان يحاول دائما أن يهيب بإرادته لكى تعبر ذلك الجسر الذى يربط بين ذاته وذوات كل من حوله من البشر ، لا ليقف على وصيد سر البشرية بل ليزيح الستار عن أغوار النفس ومكمن الأسرار .

وراحت تراوده رغبة وهو فى وسط خضم المكيين الزاخر أن يصبح ذات يوم شعاعا يضىء أفئدة هؤلاء الناس الذين يحبهم . فهو لا يتقبل الواقع على ما هو عليه من ظلم وجشع وقسوة ، بل إنه ليحس فى أعماقه أنه لقادر على أن يبدل هذه النفوس الضالة التى يقودها طمع المادية إلى سبل الضلالة والخسة إلى طريق الرشاد ، إذا ما عرج بقومه إلى غاية روحية ترفعهم من ضرورات الأجسام إلى آفاق أسمى .

لم تكن الصورة واضحة فى نفسه بل كانت لا تزال إحساسات غامضة وأمانى لم تتبلور بعد فى صميم ذاته ، إنها بذرة صالحة غرست فى أغواره وقبس من نور النور أضاء ظلام وجدانه ، وإنه لحريص على أن يتعهد تلك البذرة وعلى أن يفتح كل نوافذ باطنه لتسطع جوانحه بالنور ويفيض على الكون من حوله .

كان أثرياء مكة يتدفقون إلى دار الزبير ويجتمعون فى دار الندوة ويحررون العقود عند الملتزم لا حديث لهم إلا التجارة والأرباح والبضاعة

والقروض وربا الفضل وربا النسيئة ، بينما كان فقراء المكيين يقتلون أولادهم خشية إملاق ، فيقول الرجل منهم لزوجه أن تزين ابنتها وتطيبها حتى يذهب بها إلى أحمائها وقد حفر لها بئرا فى الصحراء ، فإذا ما بلغ بها البئر يقول لها : انظرى فيها ، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب .

وكان الوأد منتشراً بين الفقراء ، وكان زيد بن عمرو بن نفيل يشفق على الموءودات فكان إذا رأى رجلا أراد أن يقتل ابنته يقول له :

ـــ لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها .

ولم يكن زيد بن عمرو هو الذى يحيى الموءودات وحده ، فقد كان بعض عقلاء العرب يأخذون البنات اللاتى يريد آباؤهن وأدهن ، فإذا ما ترعرعت إحداهن عند أحدهم قال لأبيها :

ـــ إن شئت دفعتها إليك ، وإن شئت كفيتك مؤنتها .

وكان محمد يرى الحامل إذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة ، فإذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة وإذا ولدت ولداً حبسته . ورأى الآباء يدفعن بناتهن من خلفهن فى الآبار التى حفروها فى الصحراء ثم يهيلون عليهن التراب ، فكان يحس أسى وتثور فى نفسه ثورة عارمة على ذلك الشر الذى يزهق أرواحا بريئة .

وخرج رجال مكة ونساؤها وفتيانها وعبيدها وإماؤها وعاهراتها إلى حيث أناخت القافلة ، وما كاد الليل يرخى سدوله حتى جلجلت ضحكات السكارى وارتفع صوت القيان بالغناء وانسل الشباب إلى العاهرات ذوات الرايات الحمر ، وراح العبيد يغدون ويروحون بين المخازن والإبل التى أنيخت على ظهورها التجارة . فطفق محمد يتأمل حال قومه ؛ حرية مطلقة وعبودية مذلة للبشرية ، حرية تنخر قلب

الوجود وتفرز سموما خبيثة تشيع فى الكون الفساد ، وعبودية قاسية تهوى بالإنسانية إلى مهاوى الانحطاط ، إلى مستنقعات الوحل والأقذار .

وفطن إلى أن الوجود لا يمكن أن يسمو بمثل هذه الحرية الفاسدة ، الحرية الطليقة التى لا يعقلها عقل ، حرية فى ظاهرها وإن كانت عبودية للشهوات والنزوات ، حرية تتنكب الطريق القويم للخلاص . إنه يحس ضرورة تنظيم هذه الحرية ، بل تقييدها بنواهى لتنطلق فى طريق النجاة ، ولكن ما كان يعتمل فى صدره كان مجرد إحساس لا يدرى كيف يتطور إلى منهج عمل وواقع حياة !

وكان ما يلقاه العبيد من ذل واضطهاد يمس وترا حساسا فى فؤاده ، إنه يرى فيما يقاسى العبيد إهدارا لكرامة الإنسان ويستشعر بالسياط التى تهوى على ظهور العبيد سياطا تلهب ضميره ، فهو فى صميم وجدانه لا يستطيع أن يفرق بين حر وعبد وبين سيد ومسود ، ففى كل منهما روح خفاقة تستحق التكريم والتبجيل والاحترام .

وراح يقلب وجهه فى رجال مكة وشبابها ونسائها وفتيانها ، وما كان مأخوذا بسحر الملموس والمرئى والمسموع بل كان يركز ذهنه ويصيخ السمع إلى ما يثيره عقله الراغب فى المعرفة ويحاول أن يحلل البواعث ويزن الظروف ويغوص فى أعماق النفس البشرية ليكشف عن الدوافع والأهواء والنزوات .

إنه يرى الناس يعملون ما يحلو لهم دون اكتراث استجابة لعواطفهم وميولهم وأهوائهم ، دون تدبر وروية ، تلبية لأول دافع يخطر لهم على بال . وهو يحس فى أعماق أعماقه أن العمل ينبغى أن يعمل بعد تدبر

وتفكير وأن يستهدف التخلص من كل شر ومن كل كراهية وأن يتحرر من عبودية الأهواء والغرائز والجهل ، فالإنسان ليس حرا إلا بقدر ما يسمو بنفسه فوق الأهواء .

كان المفهوم الأخلاقى يتعمق فى ذاته كلما مرت الأيام وفكر وتدبر وتفاعل مع مجتمعه وقاسى من معاناة الحياة ، فبات يؤمن أن الحياة الإنسانية الصحيحة إنما تبدأ حيث تنتهى الحياة الحيوانية ، وأن المرء لا يحيا حياة إنسانية خالصة إلا بقدر ما يتحرر من الضرورة العمياء ، وإن إمكان وضع الأصابع فى الآذان كلما هتفت نوازع الشر فى أعماق النفس والإعراض عن نداءات الشهوات الدنسة إن هى إلا بصيص النور لإشراق الوجود .

وحان أوان الرحيل فمشى الرجال إلى الرجال يتعانقون مودعين ووقفت الأمهات والزوجات والبنون والبنات وفى العيون دموع ، وخف أبو طالب وبنوه والعباس وحمزة لتوديع الزبير ومحمد بن عبد الله . وقبل أن تنطلق القافلة فى معبد الكون جاءت بركة الحبشية وضمت محمداً إلى صدرها وعبراتها تسيل على خدها ، فأحس محمد رقة وطفرت الدموع من مآقيه .

وسارت القافلة لتخرج من مكة إلى الصحراء متجهة صوب الجنوب وعلى رأسها الزبير بن عبد المطلب وقد ركب معه على بعيره محمد ابن أخيه ، وقد كان الزبير يغمر محمدا بعطفه ولكنه لم يكن فى عين اللحظة يحس خطر ذلك الغلام الصامت الذى يعيش فى قوقعة ذاته ، فما كانت العين بقادرة على أن ترى المشاعر الغنية التى تموج فى وجدانه ، ولا الآراء الناضجة التى تعتمل فى رأسه ، ولا البصيرة النفاذة التى تجول فى الكون

والمجتمع وأعماق نفوس البشر للبحث عن سر الوجود .

وسرت القافلة فى الفضاء ومحمد هائم فى الوجود ؛ إنه قاسى كثيرا من العذاب وذاق ألوانا من الألم وتحمل مرارة اليتم والغربة وإن كان أعمامه وعماته وكل بنى هاشم يغمرونه بالعطف والحنان ، وعلى الرغم من ذلك لم يكن يائسا من وجوده بل كان مبتهجا به ، يتهلل بالفرح كلما اندمج فى الكون وأحس تعاطفا مع ذلك العالم الكبير الذى يعيش فيه .

كان طوال الرحلة يجد نفسه وحيدا وإن كانت القافلة تموج بالناس ، قد خلّى بينه وبين نفسه إلا أنه كان فى صميم وجدانه يحس أن هناك قوة عليا تحميه ، تلقى فى ضميره حكمة تنير له سبله . إنها قوة خلاقة مبدعة ، وإنه ليستشعر قوة عارمة كلما صفت ذاته وحاولت أن تختلط بتلك القوة العلية ، وكثيرا ما كان يهيم ليذوب فى روح الروح فيسمو على الوجود البشرى مخلفا وراءه دنيا السلب والشر والهدم والعدم والفناء .

إنه ما كان يقنع بما يحقق كل يوم من كسب روحى ، ولا يستنيم إلى ما يحرز من نصر على ما فى طبيعته البشرية من نقص ، بل كان يحاول كل يوم أن يزيد فى الروابط التى تربط بينه وبين الطبيعة ، بل ويرتفع إلى ما فوق الطبيعة لكى يمضى نحو تطور روحى يجعله أهلا لأن يندمج ذات يوم فى ذات الذوات .

إنه لم يصارع الطبيعة يوما ولم يشن عليها حربا ، بل كان يحاول أن يفهم مغاليقها فى رفق ، فإذا ما فتحت له بابا من أبوابها لم يصح صيحات ظفر وانتصار بل كان يتقدم ليطرق بابا آخر ملتمسا من قلبها الحنون أن تفتح له ذلك الباب ، وقد كانت الطبيعة تبادله حبا بحب فما كانت تغلق فى وجهه نوافذها وأبوابها ، بل كانت تفتح له كل قلبها بل وتكشف عن

وجه أسرارها النقاب .

إنه بالحب استولى على قلوب الناس ، وبالحب وحده شد الأواصر بينه وبين الوجود ، وبذلك الحب وحده سيتحرر من أسر ذاته ليقوم بعمل عظيم يستمد أصوله من السماء لإسعاد البشرية جمعاء مستهينا بكل ألم وكل عذاب ، فقد كان حبه الكبير للبشرية يعلو على الألم والعذاب ، وقد كان ذلك الحب هو سلاحه الذى فتح به القلوب جميعا : قلوب الناس وقلوب الأسرار والألغاز .

ونزلت القافلة فى واحة لتستريح ، وكان أول ما فعله رجال القافلة أن أخرج الكاهن تمثال الإلٰه فراح الرجال يتمسحون به ويطوفون حوله كطوافهم بالكعبة ويذبحون عنده ، وقد ذهب محمد بعيدا يرنو إلى الوجود فى وجد فيحس أن الكون كله محرابه وأنه قدس أقداسه ، وظل شاخصا ببصره إلى السماء يستشعر أنه يصلى أعمق صلاة وإن لم تتحرك شفتاه بالابتهالات والدعوات ، فقد عرفت روحه طريق الوصول إلى القوة العليا التى تمد السموات والأرض بروح خفاقة بين جنبات الوجود .

ومدت الموائد والتف رجال القافلة حول الذبائح ، وجلس الزبير وابن أخيه محمد بن عبد الله بن الجالسين فراح الرجال ينتهبون ويزدردون اللحم ازدرادا ، بينا تناول محمد بعض لقيمات ليقمن صلبه ثم قام ، فقد كره أن يكون عبدا لشهوة بطنه أو شهوات نفسه ، فقد كان يجاهد ليرتفع بروحه عن أن تغرق فى ماديات ضرورة الأبدان .

كان فى صراع مستمر وجهاد شاق مع نفسه ، وإنه ليتعلم على مر الأيام أن أشق الجهاد جهاد النفس ، وأن قول : « لا » لميوله ونزواته

ونوازع الشر هو أول خطوات نموه النفسى والخلقى ، وأنه السبيل إلى سر الوجود ؛ فلا يسلك ذلك الطريق من ثقل بطنه بالطعام وثقل ضميره بالخطايا والأوزار .

وكان مفتوح العين مفتوح الوجدان مفتوح العقل ، يرقب الناس ويرصد تصرفات الناس ويفكر ويتدبر ويتأمل ويحلل دوافع النفوس ، وما كان يقيس الأفعال بالعرف والتقاليد وما اصطلح عليه قومه بل كان يزن كل فعل بما ينبغى أن يكون ، وكان يعمل وفقا لنصائح عقله مستعينا بذلك النور الذى يضئ جوانبه كلما سرى فى الكون العريض والذى كان يقتبسه من نور النور .

إنه فى رحلة دائمة مذ فتح عينيه على نور الوجود ، وإنه ولما يتجاوز العاشرة قد عاش فى أرض هوازن وضرب فى الشمال إلى يثرب ، وهو الآن فى طريقه إلى اليمن مع قافلة قريش فى رحلة الشتاء ، إن نفسه متعطشة إلى أن تهيم فى العالم لتروى ظمأها إلى المعرفة ، لتزيد كنوزها عواطفها غنى ، إنه فى سعى مستمر ليتجاوز حاضره بل ليتجاوز ذلك العالم المحدود ليسمو إلى ما فوق الواقع ، إلى ما وراء الطبيعة ، إلى روح الروح .

إنه يعيش فى داخل نفسه.يتأمل ويبحث ويفكر ويطيل التفكير وينفذ إلى صميم العالم الخارجى فيحقق بين ذاته وبين الكون ضربا من الألفة والتوافق ، بل ومن الحب العميق ، ويرنو دائما إلى السماء يستمد منها العون والتأييد فكان بأبعاده الثلاثة ؛ داخل ذاته وخارج ذاته وفوق ذاته يحقق أهدافا سامية خيرة تتهلل لها نفسه بالفرح ، وكثيرا ما كان يحس أن البعد العلوى قد تلاشى ، وأن حكمة السماء تسرى فيه مسرى الدم

تلقى أضواء على أسرار النفوس وأحاجى الوجود .

وتأهبت القافلة لاستئناف رحلتها فابتهجت نفس محمد ، فهو يحب السير فى ذلك المعبد الواسع العريض معبد الكون الذى ينبض فيه قلب الوجود ، إنه فى حالة نهم مستمر للمعرفة ، وتعطش دائب إلى الغيث الروحى الذى ينزل عليه من السماء ، ورغبة عارمة فى الاتحاد مع القوة العليا التى بات يحسها فى داخل ذاته وفى الكون الذى يسرى فيه وفوق كل أرض وسماء ، ولو كان الجسد يحتمل رغبات الروح لظل على ظهر بعيره يهيم يرشف رحيق الكمال غذاء الروح .

وانطلقت القافلة نحو الجنوب ، وارتفع صوت الحادى بالحداء فأغذت الإبل السير ، وأطلق الرجال لأخيلتهم العنان يفكرون فيما سيكسبون من أموال وما سيشترون للأهل من هدايا ، بينا ظل محمد خاشعا يحس أنه فى محراب يؤدى صلاة ، وقد صارت غاية وجوده أن يفنى فى الحقيقة المتعالية ، فى القوة التى وهبت ذلك الكون العريض الحياة ، فقد فطن إلى أنه لم يخلق نفسه ، وأن هناك خالقا لهذه الإبل التى تطوى الأرض ، وهؤلاء الرجال الذين ينطلقون وفى صدورهم آمال ، ولهذه الشمس المبصرة التى تبعث الدفء والحرارة والضياء ، وذلك القمر والكواكب والنجوم التى تهدى الضاربين فى الليل ، وهو الذى أنزل من السماء ماء منه شراب ومنه شجر ينبت به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، فوطد النفس على أن يغالب كل ما يقف فى سبيل الفناء فى روح الوجود ، وأن ينتصر على كل العقبات التى تعترض تحقيق هذه الغاية السامية .

أحس ولما يتجاوز سن الصبا أنه يريد أن يهيم بروحه فى الوجود وأن

ينطلق من سجن الجسد ، فاهتدى إلى أن الشبع يهيض جناح الروح ففرض على نفسه ألا يشبع من طعام أبدا حتى تظل روحه طليقة ترفرف فى السموات العلى ترشف الحكمة ويتجلى عليها نور النور .

وفطن ببصيرته النافذة أن معتقدات قومه وأسلوب تفكيرهم تعرقل انطلاق فكره وأنها عقبات فى سبيل تحرر إرادته ، فأشاح بوجهه عنها وأعرض عن أساطير وقرت فى ضمير العرب ، وأصم أذنيه عن أن يصغى إلى ما يدور فى حلقات السمار من مجون ، فاستطاع أن يجتاز الهوة السحيقة التى تفصل بين فطرته السليمة وبين أهله الذين غرقوا فى بحور الجهل حتى الآذان .

إنه أحس فى صميم ذاته وفى أعماق أعماقه وفى باطن وجدانه بتلك القوة الخالقة المبدعة وبالنور الذى تغمر به قلبه ، وبتلك الصلة التى باتت تربط بينه وبين روح الأرواح ، بيد أن ذلك الإحساس الغامض لم يتكشف بعد فى وضوح لعين عقله ، إنه إحساس عميق بالحقيقة الخالدة ، وسيتطور ذلك الإحساس على مر الأيام إلى نور وهدى ورحمة للعالمين .

وبلغت القافلة واديا ضيقا بين جبلين وإذا بفحل من الإبل يمنع من يجتازه ، فوقف رجال القافلة لا يتقدمون . وإذا بمحمد الفتى الحالم الذى كان يعيش طوال الرحلة فى ذاته فى صحبة نفسه يتأمل الكون والحياة ينزل عن ظهر بعيره ويتقدم فى خطى ثابتة نحو ذلك الفحل ، وقد لاح الهلع فى وجه عمه الزبير وكتمت أنفاس الناس .

لم يكن أحد من رجال القافلة يدور بخلده أن الفتى الذى يعيش فى قوقعة نفسه يقدم على مثل هذه المخاطرة التى يقدم عليها الساعة ، فقد

عرف فيهم بدماثة خلقه وعدم حبه للصخب وميله إلى العزلة وطول التأمل والتفكير ، أما أن يمشى إلى الخطر فى مثل هذه الشجاعة فذلك شىء جديد لم يكشف الفتى عنه من قبل .

كان الفحل هائجا مائجا فراح محمد يتقدم منه فى حرص وأناة ، والفحل يلف ويدور ويهدر فى غضب فتتجاوب الجبال هديره فتسرى الرهبة فى قلوب الناس ، إلا قلب ذلك الفتى الذى نزلت عليه سكينة وراح ينظر إلى الفحل بعينين فيهما حب وعطف وحنان .

وظل الفحل يقبل ويدبر ويعدو ويروح ومحمد فى أثره ، حتى إذا دنا منه ارتفعت صيحات خوف من القافلة ، ولكن محمدا أصم أذنيه عنها ومد يده وراح يمسح بها بطن الفحل الهائج ، فإذا به يطمئن إلى اليد الحانية فتسكن سورته وتهدأ حركته ويطأطىء رأسه معلنا أنه قد أسلس للفتى قياده ، فاستمر محمد فى الربت على الفحل فى رفق فأحس الفحل بالعطف السابغ الذى غمره الفتى بعه فبرك وحك الأرض بكلكله .

وتقدم محمد وركب البعير وقد ملأ الدهش قلوب كل من فى القافلة ، وراح عمه الزبير يحييه فى فرح وابتهاج وقد نسى وقاره وأنه سيد الناس ، ونهض الجمل بحمله الغالى وسار حتى جاوز الوادى ، وقد كان محمد فى تلك اللحظة فارسا أشبه بجده إسماعيل صادق الوعد الأمين يوم أن روض فى فيافى تهامة الخيل لأول مرة .

جمع محمد صفات إبراهيم الخليل وصفات إسماعيل ، وكان كأبيه الخليل يحب العزلة والتأمل والنظر فى الكون ، وورث عن إسماعيل الفروسية وحب الخيل والصبر والامتثال لمشيئة السماء ، بل جمع كل ما عرفت الأرض من جليل الخصال .

ونزل محمد عن الفحل ثم خلى عنه ، وتقدمت القافلة فى الوادى فى أمن وسلام ، وكأن ذلك الذى حدث فى الوادى كشف الغطاء عما سيقوم به فى مستقبل الأيام ، إنه يواجه المخاطر وحده ويزيل العوائق والعقبات ويتحمل كل الآلام فى سبيل أن تنطلق قافلة البشرية فى أمن وسلام .

— ١٢ —

كان عبد الله بن جُدعان سيد بنى تيم نديم عبد المطلب ، وكان يمضى النهار فى ظل الكعبة يحاور شيخ بنى هاشم وزعيم قريش ، وكان يزور نديمه فى البيت الكبير . وكثيرا ما كان عبد المطلب يذهب فى الليل إلى دار ابن جدعان يسمر مع السمار بعد أن حرم عبد الله على نفسه الخمر ، فقد كان يسمى بحاسى الذهب لأنه كان يشرب فى إناء من الذهب ، وذات ليلة سكر فصار يمد يديه ويقبض على ضوء القمر ليأخذه فضحك منه جلساؤه ، فأخبر بذلك حين صحا فحلف ألا يشربها أبدا .

ومات عبد المطلب فظلت الصلة وثيقة بين أبناء عبد المطلب وعبد الله ابن جدعان وقومه من بنى تيم ، فكان يختلف إلى دار ابن جدعان أبو طالب والزبير وحمزة والعباس ، وكان أبو طالب يحب ابن أخيه محمدا حبا شديدا فكان يصحبه أحيانا حينما يذهب إلى دار ابن جدعان ، ولما كان أبو قحافة والد عتيق (أبو بكر) ابن عم عبد الله بن جدعان فقد كان يمضى أغلب أوقاته فى دار ابن جدعان ، وكان أبو بكر يحب أن يصغى إلى أحاديث سادات قريش التى تدور فى دار ابن عم أبيه فكان

يذهب إليها كلما عرف أن هناك اجتماعا . وكانت نفسه تتفتح لأحاديث أنساب قريش وقضاء قضاة مكة فى الديات ، وقد أتيحت له الفرصة فى دار ابن جدعان أن يصغى إلى حكام قريش . أبى طالب بن عبد المطلب والعاص بن وائل والقلمس الكنانى ومالك بن جبير .

والتقى محمد بأبى بكر فى دار ابن جدعان وألقيا أسماعهما إلى أحاديث أشراف قريش وسادات دار الندوة ، فأبو طالب زعيم الهاشميين وصاحب السقاية والرفادة كان يروى قصائد من شعره ، وحرب بن أمية صاحب لواء قريش كان يقص أنباء الحروب التى خاضتها قريش والحروب التى سمع بها أثناء خروجه فى القوافل ، تلك الحروب التى كانت دائرة بين الشرق والغرب بين الفرس والروم ، والعاص بن وائل يروى الأحكام التى قضى بها فى القضايا التى ارتضى المتخاصمان أن يكون فيها حكما ، والقلمس الكنانى يروى أحكامه فيتذكر محمد وأبو بكر موقفه عند جمرة العقبة فى موسم الحج وهو يقول : « اللهم إنى ناسىء الشهور وواضعُها مواضِعَها ولا أعاب ولا أجاب ، اللهم إنى قد أحللت أحد الصفرين وحرمت صفر المؤخر » . فقد كان أحد حكام العرب وناسئا من نسأة الشهور ، يحل شهرا من الأشهر الحرم عاما ويحرمه عاما .

وكان محمد وأبو بكر من قريش ويجتمع نسبهما عند مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ؛ قريش العظيم . وكانا كثيرا ما يجتمعان فى دار ابن جدعان أو فى دار من دور شيوخ بنى هاشم أو فى الحرم أو فى المواسم ، فتوطدت بين الغلامين صداقة متينة . وقد كان محمد يصغى إلى كل ما يقال فى مجتمعه وينظر إلى كل ما تقع عليه عيناه بذهن صاف وفؤاد مفتوح ، يرى ما فى أفعال قومه من متناقضات وما يفعله سفهاء

الناس من سيئات فيفكر فيما ينبغى أن يكون عليه الإنسان الفاضل ، فيؤمن بوجوب سيطرة العقل على المادة وضرورة انتصار الروح على الجسد ، بينا كان أبو بكر يلقى سمعه إلى شيوخ قريش وهو مفتون بحديث البطولة والأبطال ، يحفظ ما يسمع من أشعار ويختزن فى أوعيته أنساب القبائل والبطون .

وكان اعجاب ابى بكر بالأبطال هو الدافع له بالإعجاب بمحمد ، ذلك الفتى المستقيم الذى لا يسجد لأصنام قومه والذى يمقت الكذب ويكره السيئات ويثور على الظلم ويجاهد ذاته جهاداً شاقا ليتحلى بمكارم الأخلاق ، فاتخذه قدوة ومعلما وصديقا .

واهتم محمد بالعبادات التى يمارسها قومه فرأى أن بعض قبائل لخم وخزاعة وقريش قد عبدوا « الشعرى » ، وعلم أن أول من سن ذلك لهم هو أبو كبشة بن غالب بن عامر بن الحرث بن غبشان الخزاعى جد وهب ابن عبد مناف أبو أمه آمنة . وسمع فى الكعبة ولا ريب ذلك الحوار الذى كان يدور بين الصابئة أصحاب الروحانيات القائلين بأن للعالم صانعا فاطرا حكيما مقدسا عن سمات الحدثان ، وأنهم عاجزون عن الوصول إلى جلاله وإنما يتقربون إليه بالمتوسطات المقربين لديه الذين يستمدون القوة من « الحضرة القدسية » ويفيضون الفيض على « الموجودات السفلية » ، فمنها مدبرات الكواكب السبعة السيارة فى أفلاكها وهى هياكلها ، فلكل روحانى هيكل ولكل هيكل فلك ونسبة الروحانى إلى ذلك الهيكل الذى اختصر به نسبة الروح إلى الجسد ، فهو ربه ومدبره ومديره . وبين الأحناف الذين لم يكونوا جماعة معينة لها دين خاص بل كانوا أناسا من العرب نبذوا الشرك و لم يعتنقوا اليهودية ولا النصرانية و لم

يعبدوا ما كان يعبد قومهم ، بل راح كل منهم يبحث عن دين إبراهيم الخليل ويعبد الله على قدر ما يصل إليه من العلم .

وألقى سمعه ولا ريب إلى المناظرات التى كانت تقوم بين الصابئين وبين الحنفاء ، فالصابئون كانوا يقولون ان الأنبياء أمثالنا فى النـوع وأشكالنا فى الصورة ، يشاركوننا فى المادة ، يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب ، ويشبهوننا فى الصورة ، أناس وبشر مثلنا ، فمن أين لنا طاعتهم وبأية مزية لهم لزمت متابعتهم ، بينا الحنفاء كانوا يقولون : بم عرفتم — معاشر الصابئة — وجود هذه الروحانيات التى أبدعت إبداعا ، لا من شيء ، لا مادة ولا هيولى ، وهى كلها جوهر واحد ، من سنخ (أصل) واحد ، وجواهرها أنوار محضة لا ظلام فيها ، وهى من شدة ضيائها لا يدركها الحس ولا ينالها البصر ، ومن غاية لطافتها يحار فيها العقل ولا يجول فيها الخيال ، والحس ما دلكم عليه ، والدليل ما أرشدكم إليه ؟. أجابت الصابئة بأن قالت : عرفنا وجودها وتعرفنا أحوالها من عازيمون وهرمس ، شيث وإدريس عليهما السلام . قالت الحنفاء : لقد ناقضتم وضع مذهبكم ، فإن غرضكم فى ترجيح الروحـانى على الجسمانى فى « المتوسط البشرى » فصار نفيكم إثباتا وعاد إنكاركم إقراراً .

ورأى محمد وأبو بكر المنافرات التى كانت تثور بين سادات القوم بين الحين والحين ، وكيف كان الرجل يقول لصاحبه : أنا أشرف منك حسبا وأثبت منك نسبا وإن شئت نافرتك ، فيقول الآخر : أنافرك وإنى لبر وإنك لفاجر ، وإنى لواف وإنك لغادر . وقد سمع محمد وأبو بكر بعض ما قيل من فخر تلك المنافرات وما قضى به القاضى الذى تراضى

به الطرفان ، فكان محمد يضيق صدره بذلك التنابذ بالألقاب بينا أبو بكر يهتم بحفظ الأنساب وقضاء القضاة .

وكان محمد يروض نفسه على أن يزداد كل يوم قربا من القوة الإلـٰهية وأن يعلو على وجوده البشرى وأن يتناسق مع الكون ، ليهتدى إلى السبيل الذى يقوده ليطبع العالم بطابعه الذى يستمد أدبه من فوق السموات العلى بينا كان أبو بكر يروض نفسه على السمت (الاعتدال والوقار) والكرم ومحاكاة محمد والإعجاب به .

وكان محمد يحب أن يرتمى فى أحضان الكون فقد كان يرى فى الطبيعة غايته ، فهى ترشده إلى الحقيقة التى تسمو فوقها وتسرى فيها كالروح فى أجساد البشر . إنه كلما تأمل فى الوجود أحس بأن وجوده هو شىء أكثر من مجرد حياته ، فالموت ليس نهاية كل شىء بل هو بداية الاندماج فى حقيقة عالية على الإنسان وعلى الكون وعلى الحياة نفسها .

إنه كلما قلب وجهه فى السماء استشعر أن روحه صارت مجنحة وأنها تعلو ما فوق الطبيعة ، وأنها تتطلع إلى الاتصال بخالق السماء والأرض الذى نفخ من روحه فى كل شىء . وأن قلبه ليمتلىء بهجة وأن روحه لتتهلل بالفرح كلما أحس أن روحه تعرج فى سموها لتذوب فى روح الروح ، وأن فؤاده بدأ يشرق بنور من نور النور .

لابد من الصراع لحظة لحظة ومجاهدة النفس يوما بعد يوم للوصول إلى الكائن المثالى بكماله وسموه ، وإن محمداً ليصارع نزواته ودوافعه فى كل لحظة ، ويجاهد ذاته فى سبيل الكشف عن الحقيقة . وكان يثبت قلبه شعوره بأن هناك قوة عليا تأخذ بيده وتعينه على جهاده وتحسن تأديبه ، ليكون الإنسان الكامل الذى ينقل إرادة السماء إلى أهل الأرض .

إنه منذ ولد وضع فى الطريق الذى ينتهى به إلى الله ، كتب عليه اليتم لينصهر فى بوتقة الألم ، فالألم وحده هو الذى أتاح له فرصة معاناة تجربة الوحدة والانطواء على ذاته ليكتشف جوهر نفسه . وكتب عليه أن يطوف فى الأرض ؛ أن يرضع فى بنى سعد بهوازن ، وأن ينطلق إلى يثرب ليزور قبر أبيه ، وأن يذهب مع عمه الزبير إلى اليمن ليلقى بنفسه فى أحضان الكون ليتناسق مع الوجود ، وليفكر فيما وراء الطبيعة ، ويستشعر ذات الذوات فى نفسه . وكتب عليه أن يشب فقيراً ليموج وجدانه بشعور الفقراء . إنه يسير فى طريقه وطريق الرسالة ليس طريقا محفوفا بالورود ولكنه طريق وعر شائك ملىء بالعوائق والصعوبات ، ولن تثنيه المخاطر عن أن يسمو وأن ينتشل الإنسانية جمعاء من الضلالة لتسمو معه إلى الرفعة وسلام الروح والخلود .

وكان أبو بكر يجاهد أن يثرى نفسه بالأخلاق الحميدة ، فكان يصون عرضه ويحفظ مروءته ويتقى كل ما يورده موارد الشبهات . وكان يعمل على تنمية ملكاته الروحية فكان يرعى حق غيره ويحسن ولا يسىء ويعتصم بالصدق ليحفظ كرامة الشرف الذى ينتمى إليه ، فقد كان معتزاً بقرشيته وإن كانت قبيلته بنى تيم ليست فى قوة بنى هاشم أو بنى أمية أو بنى المغيرة أو فى وفرة عددها .

كان أليفا ودوداً حسن المعاشرة سريع التأثر إلى الرحمة والرفق ، فطنا ذكيا . وكان على الرغم من حداثة سنه يحفظ كل ما يرويه أشراف قومه فى مجالسهم وينفعل بأخبار البطولة والأبطال .

كان أبيض تخالطه صفرة ، وسيما غزير شعر الرأس خفيف العارضين ناتىء الجبهة غائر العينين ، نحيفا دقيق الساقين ممحوص الفخذين خفيف

اللحم فى سائر جسمه . وعلى الرغم من ضآلته كان شجاعا يبدى رأيه دون وجل ولا خوف ، فهو يحس فى قلبه جيشان الروح والضمير . وراح يروض نفسه على ألا يقابل الأمور بفتور المستخف فهو حى الفؤاد مطبوع على الحماسة لما يؤمن به والإعجاب بمن يستحق عنده الإعجاب .

كان يرتمى فى أحضان مجتمعه أكثر مما يرتمى فى أحضان الطبيعة ، فهو لا يطمع إلا فى مكارم الأخلاق التى يتحلى بها أشراف قومه ، فلم تتجاوز أحلامه العالم الذى يعيش فيه ؛ فما خطر له على قلب أن تحلق روحه لترتفع إلى ما فوق السموات وتتصل بالقوة المتعالية التى تسير مع الوجود ، ولم يفكر يوما فى أن تذوب روحه فى روح الكون أو أن يبحث عن حقيقة الحقيقة .

وكان المجتمع المكى يخفق بآمال صبيان وفتيان يأملون أن يصلوا إلى مراكز الصدارة ذات يوم وإن كان الرجال فى غفلة عنهم ، فالحكم بن هشام (أبو جهل) يحلم بأن يكون سيداً من سادات دار الندوة فى شبابه ، وإن كان على يقين أنه من المحظور أن يكون بين رجال دار الندوة من لم يبلغ الأربعين .

كان أبو جهل عالى الهمة واسع الأطماع قد وضع نصب عينيه أن يكون سيد قومه ، صاحب الكلمة المسموعة فى مكة مثل كعب بن لؤى أو قصى أو هاشم بن عبد مناف أو عبد المطلب بن هاشم ، وقد التصق منذ طفولته بالرجال الكبار الذين يسيرون أمور المجتمع المكى من دار الندوة يلتقط منهم الحكمة ويكتسب من تجاربهم حنكة .

وكان حمزة بن عبد المطلب مغرما بالطعن والنزال ، فكان رمى

السهام هوايته والقتال لعبته والشجاعة صفته . وكانت غاية أمانيه أن يخرج ولما يشب عن الطوق للصيد أو للغارة على قافلة من القوافل ، وكان يرهف سمعه للقصص الذى يروى عن بطولات الرجال ، وما كان يتأفف من مجالس الشراب تأفف محمد أو أبى بكر ، فهو يرى أن احتساء الخمر صفة الفحول على عكس أبى بكر الذى وقر فى ضميره أن من شرب الخمر كان مُضَيِّعا فى عقله ومروءته .

وكان العباس قد بلغ الرابعة عشرة وكان يتطلع إلى أن يئول إليه شرف رفادة حجيج بيت الله وسقايتهم ، وقد قوى أمله لما وجد أن أبا طالب نضب ماله وأنه ليس بمستطيع أن يستمر فى الإنفاق على إطعام فقراء الحجاج وحمل الماء إليهم . إن هى إلا رحلة أو رحلتان يشترك فيهما بماله الذى ورثه عن أبيه عبد المطلب حتى يربو ذلك المال ، ثم يقرضه للمحتاجين بالربا فيصبح من أغنياء مكة ويئول إليه شرف الرفادة والسقاية وإن كان من أصغر أبناء عبد المطلب .

وكان صبيان مكة وفتيانها يجتمعون فى المواسم والأعياد والأسواق ويتسابقون إلى موائد أجواد قريش ، وذات ليلة راح مناد ينادى على ظهر الكعبة :

— هلموا إلى جفنة ابن جُدعان .

كان قول أمية بن أبى الصلت قد ذاع فى مكة :

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم ... فرأيت أكرمهم بنى الديان
البرُّ يُلبك بالشُّهاد طعامهم ... لا ما يعللنا بنو جُدعان

وكان حديث سفر ابن جُدعان إلى فارس وأكله الفالوذج عند كسرى قد انتشر فى دور مكة ، فابن جدعان قد تعجب منه وسأل عن

حقيقته فقيل له هو لباب البر يُلْبك مع العسل ، فابتاع من عند كسرى غلاما يصنعه وقدم به مكة ، وذاع أن ابن جدعان أرسل إلى الشام ألفي بعير تحمل البر والشهد والسمن .

كان صوت المنادى يتردد فى جنبات مكة :

ـــ من أراد أن يأكل الفالوذج فليحضر .

ومس الصوت آذان الذين يعيشون على لحوم الصيد والسويق والألبان مساً رقيقا فاندفعوا إلى حيث وضعت الموائد بالأبطح إلى باب الحرم ، وتزاحم محمد وأبو الحكم بن هشام (أبو جهل) على المأدبة ، فدفع محمد أبا جهل فسقط على ركبته فانهشمت . فألقى أبو جهل على محمد نظرة ملؤها الغيظ والغضب ثم راح يضمد جراحه .

وكان تزاحم محمد وأبو الحكم بن هشام على مأدبة ابن جدعان بداية التزاحم بينهما فى معترك الحياة ، فما كان محمد فى معسكر إلا كان أبو الحكم بن هشام فى المعسكر الآخر . وما قال محمد رأيا إلا سفهه ، وما اعتنق مذهبا إلا كان من أعدائه .

وكان أمية بن أبى الصلت ممن حضر المأدبة ، فقال مادحا ابن جدعان سيد بنى تيم :

لكـــل قبيلـــة رأس وهـــادى ... وأنت الرأسُ تقدم كل هـــادى

لـــه داع بمكـــة مُشمَعـــل[1] ... وآخر فـــوق كعـبتها ينـــادى

إلى رُدح[2] من الشيزى[3] ملاء ... لبـــاب البر يلـــبك بالشهـــاد

---

(١) اشمعل : أشرف .

(٢) الردحة : سترة تكون فى مؤخر البيت .

(٣) الشيزى : خشب أسود يتخذ منه القصاع .

شردت أسماء بنت مُخَرِّبَة تفكر وقد أرخى الليل سدوله . وجاءت أصوات القيان وهن يرفعن أصواتهن بالغناء من بعيد من دار عبد الله بن جُدعان سيد بنى تيم . إنها تزوجت فى صباها أبا ربيعة حذيفة بن عبد الله . ابن عمر بن مخزوم وقد أنجبت منه عبد الله بن أبى ربيعة ، فشب عبد الله تاجراً موسراً من أكثر أهل مكة مالا ، وقد لقبته قريش « العِدْل » لأن قريشا كانت تكسو الكعبة بأجمعها من أموالها سنة ويكسوها هو من ماله سنة ، فأرادوا بذلك أنه وحده عدل لهم جميعا .

إن له عبيداً من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن ، وله سلطانا وسطوة وستئول إليه زعامة بنى المغيرة يوما ، وهى ترجو أن يكون سيد مكة فهو أكفأ من أخيه عيَّاش . وسرعان ما تذكرت أبا الحكم بن هشام ، فقد تزوجها هشام بن المغيرة أيضا وأنجبت منه أبا الحكم (أبا جهل) والحارث .

إن أبا الحكم (أبا جهل) فطن ذكى وهو قريب إلى قلبها ، وأقرب بنى المغيرة إلى قلب جدته ريطة بنت سعيد بن سَهْم أم بنى المغيرة ، وقد كان أبوه هشام بن المغيرة جليلا فى مكة حتى إن قريشا أرخت بموته وقد كانت تؤرخ بموت كعب بن لؤى . ثم أرخت بعام الفيل إلى أن مات هشام فأرخت بذلك الحادث الجلل .

إن أبا جهل على الرغم من حداثة سنه له آمال وأطماع ، وإنه كلما انفرد بها لا يحدثها عن العطر الذى يأتيها من اليمن فقد كانت عطَّارة تفوق

عطارتها عطارة أبي طالب زعيم بني هاشم ، بل كان يحدثها عن شيوخ دار الندوة وعن عزمه على أن يكون سيداً من ساداتها الذين يسيرون أمور المجتمع المكي قبل أن يبلغ الأربعين .

كانت دار الندوة مكان الحكومة المكية وكانت أشبه بمجلس الشيوخ في روما ، وما كان يسمح لقرشي أن يكون عضواً فيها قبل أن يبلغ الأربعين ، ولكن أبا جهل وطن النفس على ألا تمنعه الحداثة عن السؤدد ، وأن يدخل دار الندوة قبل أن يطر شاربه وتستوى لحيته .

أخذت مكة كثيراً من الروم ومن الفرس عن وعي أو عن غير وعي ، فقد كان تجار القوافل يحتكون بحضارة فارس وحضارة الرومان ، وكانوا يتأثرون بثقافة الدولتين العظيمتين وبعاداتهما وتقاليدهما بل وبدياناتهما ، وقد جلبوا إلى الكعبة كل ما عثروا عليه من تماثيل حتى أن أبوللو إله الشعر عند الرومان صار إلههم هبل العظيم ووضعوه في جوف الكعبة ، وعلقوا أروع ما أنتجته قرائح شعرائهم عنده !

ووضع العرب الذين تنصروا تمثالا للعذراء وهي تحمل المسيح في الكعبة ، ولم يغضب العرب الوثنيون لذلك فالحرية الدينية مكفولة للجميع ، فإن كان الخطّاب قد أغرى بعض الشباب بزيد بن عمرو بن نفيل فما ذلك إلا لأن زيداً قد سفه أحلامهم وزعم أنه وحده الذي كان على دين أبيهم إبراهيم .

وفكرت أسماء بنت مخربة في الوليد بن المغيرة فهو يتطلع إلى أن يسود بني المغيرة بل بني مخزوم كلهم ، وهو كفء لمنافسة عبد الله بن أبي ربيعة وأبي الحكم بن هشام (أبي جهل) ، فماله ممدود ، وهو مسموع الكلمة في قومه ، وهو قوي الشكيمة له هيبة وسلطان ، وهو في طريقه

إلى دار الندوة ليكون شيخا من شيوخها . ولم يخطر لها على قلب خالد ابن الوليد فما كان قد بلغ من العمر شهوراً ، وما دار بخلدها أن تخترق حجب الغيب لتفكر فى حفيدها عمر بن أبى ربيعة فقد كان يفصل بينها وبين مولده عشرات السنين .

كانت دائرة تفكيرها تنحصر فى بنى المغيرة ، ولكن قريشا لم تكن بنى مخزوم وحدهم فهناك بنو هاشم وبنو أمية وبنو زهرة وبنو تيم وبنو أسد بن عبد العزى وبنو عبد الدار وكثير من القرشيين . إلا أن المنافسة على زعامة مكة كانت مشتعلة بين بنى هاشم وبنى أمية ، وكانت تطمع فى أن يدخل ولداها عبد الله وأبو جهل مضمار هذه المنافسة ، بل كانت آمالها تمتد إلى أن ترى بعين أمانيها أحدهما على رأس قومه قد قبض فى يديه السقاية والرفادة والسدانة والحجابة واللواء كقصى العظيم . فانداحت دائرة تفكيرها وراحت تزن ابنيها بأبناء بنى هاشم وبنى أمية والنابهين من أبناء القرشيين .

فكرت فى طالب وفى جعفر وفى عقيل أبناء أبى طالب شيخ بنى هاشم الذى ينوء بأعباء الرفادة والسقاية ، فاهتدت إلى أن أموال منافسها فى العطارة تذوب فى إطعام فقراء الحجاج وتوفير الماء لهم ، وأن أبا طالب لن يورثهم إلا الشرف وحده دون المال ، فهو ينحدر فى طريق الفقر ، وما كان لشريف أن يسود قومه إذا لم يكن ذا مال وعبيد .

وطاف بذهنها طاهر بن الزبير بن عبد المطلب ؛ إنه فتى خفيف الظل قد يصبح قطب الرحى فى نادى قومه ، وقد يمسى محط الأنظار إذا ما أسمر ذات ليلة مع السمار ، إلا أنه لن يكون سيداً فى بنى هاشم يتطلع ذات يوم إلى زعامة مكة . وراحت تزن ولديها بالعباس بن عبد المطلب

فرأت أن العباس يحلم بالغنى ، بأن يكون من أثرياء مكة ، فعبد الله بن جُدعان مثله الأعلى ، ولم يطمع عبد الله يوما فى أكثر من أن يكون نديما لعبد المطلب ، وإن العباس ليصلح أن يكون نديما لعبد الله بن ربيعة أو أبى الحكم بن هشام !

وراحت تعقد المقارنات بين ولديها وحمزة بن عبد المطلب ؛ إنه فتى شجاع وكل الدلائل تشير إلى أنه فى طريقه إلى أن يصبح فارس قريش ، فهو يهوى الصيد ويميل إلى القتال ويحب الخيل ويتعجل الأيام ليطوف بأماكن اللهو ، يسنده أعظم حيين فى قريش بنو هاشم وأخواله من بنى زهرة ، فإن أولع بالتجارة وتدفقت عليه الأموال كان منافسا خطيرا لبنى المغيرة جميعا ، بل ولكل فتيان قريش من هاشميين وأمويين ومخزوميين وتيميين .

وراحت تعجم أعواد فتيان بنى هاشم جميعا فوجدت عبد الله بن أبى ربيعة وأبا الحكم بن هشام أصلب منهم عودا ، وأن فرصتهما أكبر من أى من الهاشميين للتربع على ذروة المجد فى مكة ، وما لبثت أن أطلقت لخيالها العنان ليجرى فى أثر فتيان بنى أمية .

كان صخر (أبو سفيان) أعلى فتيان بنى أمية ذكراً فهو ابن حرب بن أمية صاحب لواء قريش ، وهو أمل حرب فى أن يرث مكانته ، بل هو أمل الأمويين جميعا فى أن ينتزع لهم زعامة قريش ، ولكن عينى أسماء وقعت على مثالبه فهو بخيل غاية البخل وإن كان من سلالة غنية ، وهو عاهر يمضى أغلب لياليه فى أحضان صاحبات الرايات الحمر وما كان البخل والعهر ليرفعا من يتصف بهما إلى مكان السؤدد .

وزحف إلى رأس أسماء ما كان يتحدث عنه المجتمع المكى من أن أبا

سفيان والعاص بن وائل والعباس وأبناء أشراف قريش كانوا يدخلون جميعا على النابغة أشهر بغى فى مكة ، وأنها حملت ووضعت ما فى بطنها وأسمته عمراً وألحقته بالعاص بن وائل فقد كان أكرمهم وأكثرهم سخاء ، ولم يبد الاستياء على وجهها فذلك من تقاليد المجتمع المكى وما كانت تجد فيها غضاضة .

وكان العاص بن وائل والأسود بن المطلب وبعض الشباب المكى يحرض إماءه على البغاء فى سبيل الحصول على المال ، ولم تستهجن أسماء ذلك ولم يدخل فى حسابها بل كانت توازن بين ولديها وهؤلاء الفتيان ، فكانت كفة ولديها هى الراجحة على الدوام .

وخطر على بالها عثمان بن عفان ذلك الفتى الذى يغلب عليه حياؤه ؛ إنه سليم الطوية لين الجانب هادىء النفس قد يصبح ذات يوم تاجراً من أكبر تجار قريش . ولكن أين سماحة عثمان من طموح أبى الحكم بن هشام ؟

وقفز ذهنها إلى بنى أسد بن عبد العزى . إن ورقة بن نوفل لم يعقب وأن عثمان بن الحويرث لا عقب له . إنه كان يطمع أن يملك قريشا وقد ذهب إلى قيصر وعاد من القسطنطينية بعد أن كتب قيصر بتوليته من قبله على قريش ، ولكن قريشا أبت أن توليه فخرج عثمان إلى قيصر ولا تدرى أسماء ما قال لقيصر وما قال له قيصر ، كل ما تدريه أن بنى أسد بن عبد العزى ليس فيهم غير المطلب بن الحويرث ، وما هو بكفء لأبى الحكم أو لابن أبى ربيعة .

وارتفع صوت الغناء من دار عبد الله بن جدعان ليعلو على صوت ضميرها فألقت إلى الأصوات العذبة سمعها ، كانت الجرادتان جاريتاه

تشدوان فتنفثان فى ربوع مكة سحراً ، وكانت أصوات الرجال تهتك أستار السكون من النشوة ، ولكنها عادت إلى نفسها ، فما لبثت أن عادت إلى الشرود تنقب عن منافسين لولديها فى بنى تيم .

كانت على علم بالعداوة الناشبة بين بنى تيم وبنى مخزوم ، ففى حلف المطيبين عبيت بنو تيم لبنى مخزوم ، وكانت تعجب فى وجدانها من المنافسة بين الحيين فأين بنو تيم من بنى مخزوم ! ولم يخطر عتيق (أبو بكر) على قلبها بل استمرت فى احصاء فتيان أشراف قريش الذين قد يتطاولون يوما لمنافسة أبى الحكم أو ابن أبى ربيعة على زعامة مكة ، وكانت تفضل ولديها فى كل موازنة . واحتلت صورة محمد بن عبد الله صفحة ذهنها برهة فثارت فى نفسها دهشة وراحت تسأل ذاتها فى استنكار : كيف يخطر لها على بال أن يتيم قريش كفء لمنافسة أبى الحكم بن هشام أو عبد الله بن أبى ربيعة ؟ ومن أين لفقير قريش المال الذى يرفعه إلى الصدارة وإلى السؤدد والسلطان ؟

كان شباب مكة وفتيانها فى أحضان البغايا يحتسون الخمر أو يلعبون الميسر أو يصغون إلى غناء القيان أو يلقون أسماعهم إلى الشعراء الماجنين فى حلقات السمار ، فقد كانوا يحبون اللهو وكان غايتهم من الحياة ؛ بينا كان محمد بن عبد الله وحده يهيم فى الوجود طليقا من كل قيد ينظر بابتهاج متهلل النفس يمتص رحيق الحكمة ، ويجاهد أن يرى بنور النور وأن يتصل بذات الذوات ليحقق تلك الرغبة الجياشة فى ضميره ؛ أن يذوب فى الكون وأن ينال الحرية الكبرى التى ما بعدها حرية .

كان يرعى السماء وكانت السماء ترعاه ، وكان يتحرق شوقا إلى

الحقيقة الأزلية التى كانت قبل الوجود والتى ستكون بعد الوجود ، فإذا به يحس أنها تتجلى عليه وأنها تحفر فى أعماق ذاته إيمانا له حلاوة تطغى على مرارة الألم ووخزات القلق وحيرة الدهشة ، وتضفى على النفس أمنا ورضا وسلاما .

كان يروض نفسه على أن تعرج روحه إلى ما فوق السماء لتنعم بالوصال وتشرق بنور ربها ، وإذا به يستشعر فى صميم ذاته أن روح الأرواح تنزل عليه بالبركات ، وأنه بالعمل والجهاد والصبر وطهارة النفس وسلامة القلب يفتح سبل ذاته للذات العلوية لتسرى فيه مسرى الدم ، فوطد العزم على أن يستمر فى رياضة النفس للقضاء على ذلك البعد الذى يفصل بينه وبين تلك القوة المتعالية التى بات يحس أنها أقرب إليه من حبل الوريد ، حتى يرى بنور الله .

كان شاخصا إلى الأفق البعيد فبدا له أن الكون كله يؤدى صلاة وأنه ساجد فى محراب إلٰه قادر عظيم ، رب السموات ورب الأرض ، رب العالمين . فامتلأ فؤاده بالجلال والخشية والسرور بذلك الإشراق الذى بدا فى القلب وأخذ ينداح ليغمر كل الوجود ، فإذا به يخر ساجدا ودموعه تتساقط على الأرض .

مر محمد بن عبد الله ببال أسماء بنت مخربة وهى تزن ولديها ابن أبى ربيعة وابن هشام بن المغيرة بشباب مكة وفتيانها ، ولم يقف ذهنها طويلا عند محمد فما كانت بقادرة على أن تتصور أن فقيرا فى قريش أو يتيما يكفله جده ثم أعمامه من بعده يمكن أن يصل إلى زعامة قومه . ولو اخترقت بصيرتها أسجاف المستقبل أو لو كانت تملك مفتاحا من مفاتيح الغيب لرأت أن الحجر الذى رفضه البناءون سيصير حجر الزاوية . .

تأهبت قريش لرحلة الصيف ، وغص بيت أبى طالب بالرجـال والنساء الذين سيشتركون ببضاعتهم فى القافلة دون أن يسافروا معها ليسلموا أبا طالب وأمناء الرحلة سلعهم ويتسلموا صكوكا تثبت نوع البضاعة ووزنها ، فأبو طالب هو الذى سيخرج إلى الشام على رأس القافلة .

وماج الناس بعضهم فى بعض ، واستمرت الدواب والرواحل فى غدو ورواح ، وأدبر النهار وجن الليل والحركة دائبة لا تنقطع ، وقد أنيرت المسالك بالمشاعل وأوقدت النيران على رءوس الجبال فتبدل ليل مكة نهارا ، فرحلة الشتاء والصيف موسمان من أجل مواسم قريش .

وراح أبو طالب يتأهب للرحلة ويتزود من أبنائه وأهل بيته بالحديث الشجى والنظرات الحانية ويغمرهم بحنانه الدافق ، وكانت نظراتـه تتوقف لحظات على وجه محمد ابن أخيه عبد الله فقد صب به صبابة وأحبه حبا يفوق حبه لبنيه فبات لا يطيق فراقه .

صار يحس خواء فى حياته كلما ابتعد عن ابن عبد الله فقد شعر أن الحياة أقفرت من مباهجها طوال الأيام الطويلة التى غابها عنه محمد لما سافر إلى اليمن مع عمه الزبير فراح يتعجل الزمن ليعود إليه محمد الحبيب ويرد الروح إلى دنياه التى ران عليها كآبة وظلام وخمول . ترى أتنسيه مشقة الرحلة وتشغله مسئولياته عن ابن أخيه الذى تغلغل حبه فى سويداء فؤاده ؟

كان أبو طالب يبيع فى دكانه العطر لنساء مكة والطيب للمتطيبين والبخور للمعابد والكهان ، وكان ما يكسبه يكفيه ويكفى أهل بيته ، ولكن رفادة حجيج بيت الله وسقايتهم تحتاج إلى أموال . فالرفـادة والسقاية شرف يهون فى سبيله كل إنفاق ، فعزم على أن يخرج إلى الشام يتجر ليجود بما يعود به من مكاسب على الحجاج .

وكان العباس يرنو إلى ذلك الشرف فهو يحلم بميراث السقاية وإطعام الناس ، وهو يقنع نفسه بأن السقاية والرفادة لو آلت إليه فسيرفع عن كاهل أخيه أبى طالب عبئا ينوء بحمله ، فأبو طالب كثير العيال وأمواله تكاد تكفى عياله وعبيده ليس بها فضل ينفقه على الفقراء الذين تهوى أفئدتهم إلى البيت الحرام ، فراح العباس يبذل كل جهد ليصبح من أثرياء قريش ، ليصير أهلا لذلك الشرف .

إنه اشترك بما عنده من مال فى القافلة التى انطلقت إلى اليمن واشترى له أخوه الزبير العطر والطيب . وإنه سيبعث مع أخيه أبى طالب بما جلب من بضائع ليبيعها فى أسواق بصرى لرهبان النصارى وخدمة الكنائس ، فالبخور سلعة رائجة يقبل عليها المسيحيون . وهو يرجو أن يربو ماله وبعدها يقرضه للمحتاجين بالربا فيصبح من الموسرين القادرين على الإنفاق ، دون أن يخشى الفقر أو أن يقل ماله .

وآن أوان السفر فخرجت القبائل من أحيائها : بنو هاشم من دورهم وعلى رأسهم أبو طالب وقد التصق به محمد الحبيب ومن حوله الزبير والعباس وحمزة وأبو لهب وشيوخ بنى هاشم وشبابهم ، وبنو أمية من دورهم وعلى رأسهم حرب بن أمية وفى رفقته عثمان بن عفان وصخر (أبو سفيان) وشيوخ بنى أمية وشبابهم ، وبنو المغيرة يتقدمهم الوليد

ابن المغيرة ومن حوله الحكم بن هشام وعبد الله بن أبى ربيعة وشيوخ بنى مخزوم وشبابهم ، وبنو تيم وزعيمهم عبد الله بن جدعان ومن حوله أبو قحافة وابنه عتيق (أبو بكر) وسادات بنى تيم ، وامتلأت شعاب مكة بالقرشيين الذين كانوا يتدفقون كالسيل من كل حدب وصوب إلى حيث أناخت القافلة بالقرب من دار الندوة على بعد خطوات من الكعبة .

وركب المسافرون رواحلهم ، وركب أبو بكر مع أبيه أبى قحافة ليتدرب على التجارة فهى وسيلة العيش الكريم للمكيين الذين كانوا يعيشون فى واد غير ذى زرع عند البيت المقدس ، وراح أبو بكر إلى حيث وقف صديقه محمد ليودعه ، فمحمد سيمكث مع أبناء عمه ولن يخرج فى هذه الرحلة .

كان أبو بكر فى العاشرة ، وكان محمد قد بلغ الثانية عشرة وقد وقف بالقرب من ناقة عمه جليلا مهيبا يبدو فى عينى أبى بكر أكبر من سنه ، وكان من فرط إعجابه به لا يكاد يرى غيره وإن كان المكان زاخرا بالشيوخ والرجال والصبيان والعجائز والشابات والغانيات والعبيد من الروم والفرس وبالوثنيين وباليهود والنصارى والحنفاء والمجوس .

ودع بنو هشام أبا طالب زعيم القافلة ، وتقدم أبو طالب وركب راحلته وما كادت تنهض حتى تقدم محمد منها وأمسك بزمام الناقة وقال فى صوت متهدج مبلل بالدموع :

— يا عم ، إلى من تكلنى لا أب لى ولا أم ؟

وأحس أبو طالب فى مثل لمح البصر أن عبراته تكاد أن تطفر من مآقيه ، وأن رقة قد اجتاحته ، فالتفت إلى بنى هاشم وقال :

— والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدا .

وأردفه خلفه ، فلما رأى أبو بكر ذلك أشرق وجهه بابتسامة وتهلل قلبه بالفرح .

وسارت القافلة فى معبد الكون فراح ربيب الفكر يتأمل الطبيعة ، وحليف الأخلاق يرصد سلوك الناس ، ينأى عن الشرور والآثام ويسارع للخيرات ويبذل الجهد فى إخلاص ليعاون على تكوين قيم جديدة إنسانية سامية ترفع قومه من حمأة الرذيلة إلى طهارة الفضيلة ، وتخرجهم من الظلمات إلى النور .

كان يمد عينيه إلى الكون ببصره وبصيرته وعقله ووجدانه فيمتلئ بروعة الطبيعة ، ويسمو به ذلك الإعجاب فوق الأهواء والنزوات ورغبات الجسد ليستغرق فى الحقيقة الكلية التى ترفعه من الأرض للسماء .

إنه وفى للطبيعة لأنها صنيعة اليد الإلهية ، آية من آيات قدرتها ، فإعجابه بها هو أجنحة روحه التى ترفرف به لتقربه إلى ربه ، وكل ما فيها من عظمة وجلال إن هو إلا إشعاعات إلهية آتية من فوق السموات . وأن ذلك الإعجاب ليسمو بذاته نحو آفاق عليا هى الجو الروحى الأوحد الذى تستطيع روحه أن تتنفس فيه .

كان يحس أنه لا يتلقى الحب والرعاية من الطبيعة بل من فوق الطبيعة ومن ورائها . إنه مأخوذ بسحر الطبيعة وجمالها ، ولكن الحنان الذى يغمره والعطف الذى يسبغ عليه كان يأتيه من فوق السموات من روح الوجود وروح الأرواح .

إنه ليس ذرة تافهة حقيرة قد ضلت سواء السبيل فى وسط خضم هائل جبار ، إنه ليس حليف القلق والجزع والهم وعدم الاطمئنان ، إنه

ليس فى صراع مستمر مع الطبيعة ، بل إنه يحس بفضل نور الله أنه عالم أصغر فيه كل ما فى العالم الأكبر من روعة وجلال ، وأنه حليف الرضا والسعادة والاستقرار والأمن والسلام ما دام مع تلك القوة المتعالية التى ترعاه ، وإنه ليعمل على زيادة حظه من التوافق مع الطبيعة ليعمر كل السبل التى تقوده إلى الله ، وإنه ليطمع أن يكون كاتم أسرار القدرة الإلٰهية ، بل الوسيط الذى يحمل أوامر السماء إلى الناس لإسعاد البشرية جمعاء .

إنه يلقى سمعه لرسالة الطبيعة ويصغى إلى صوتها الهادئ الذى يتردد فى أغوار نفسه ويتعمق فى وجدانه ، ليفتح أمام روحه أبواب السموات لتنعم بالوصال وتتذوق المتع الدائمة وتستمتع بغاية المسرات بل بغاية الغايات .

كان جمال الطبيعة وروعتها وجلالها يغذى ذلك الحب الكبير الذى شب بينه وبين الله ، ويعمق فيه روح الإيمان ويقوده إلى الحقيقة المطلقة اللامتناهية التى لا حقيقة بعدها ، وإنه ليبذل نفسه فى سبيل أن تشرق عليه الحقيقة الغامضة بنورها فيتبدد كل ظلام فى نفوس الناس .

أصبح يحس أنه ليس وحده وأنه مع تلك الحقيقة المطلقة ، بل صار يستشعر أنها تسرى فى عروقه وشرايينه وفى ضميره وفى وجدانه ، وأنها فى صميم ذاته ومن أمامه ومن خلفه وعن يمينه وشماله وحيثما أرسل البصر أو شرد الخيال ، وأنها تحدب عليه وترعاه وتؤيده وتأخذ بيده لتصل به إلى ما تريد .

حبب الله إليه الإيمان وزينه فى قلبه ، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ، وكتب عليه اليتم ليعتمد على نفسه ويعيش فى قوقعة ذاته

ليسبر غور ضمير ويزيد فى خصب حياته الباطنية وليتلقى العلم النافع من الله وحده ، وكتب عليه السياحة فى الأرض ليرتمى فى أحضان الطبيعة ويعجب بها وليقوده ذلك الإعجاب إلى أعتاب الأسرار العلوية ، وليخفق قلبه بحب كبير للوجود وروح الوجود ، ليتمكن بذلك الحب من فتح مغاليق ألغاز الحياة وما بعد الحياة .

وانطلقت القافلة تصغى إلى الحادى مرة وتشرد عنه مرات ، وكانت الأفكار تجرى وراء رغبات الجسد والشهوات ، وإذا ما تحركت العواطف النبيلة كانت تهفو إلى الأهل والأوطان . ولم تحاول روح واحدة أن تهيم فى الوجود أو تشارك فى الكون أو تندمج فى العالم ، بينا كان محمد فى كفاح مستمر لذاته يروضها على السمو والتعالى والاندماج فى الطبيعة والتحليق إلى ما وراء الطبيعة ليتجلى له ذات يوم رب السموات والأرض ورب العالمين .

وعند دير فى الصحراء نزلت القافلة ، وخرج صاحب الدير يتفرس فى الوجوه ويصغى إلى أحاديث الناس ، إنه يرى فيما عنده من كتب وعلم أن نبيا عربيا يوشك أن يبعث وإنه ليرجو أن يقوده حسن طالعه إلى ذلك النبى أو تشنف أذنيه أنباء ظهوره .

ووقعت عينا صاحب الدير على محمد فأطال النظر إليه وقد لاح فى وجهه دهش ، فهو يرى فيه صفات ذلك الذى بشرت به الأنبياء ، وإن شيئا غامضا فى أغوار ذاته يؤكد له أن ذلك الفتى هو النبى الأمى الذى سيبعثه الله فى الأميين لا فى بنى إسرائيل ، فدنا الرجل من محمد وراح يجاذبه الحديث فإذا بالفتى يؤكد له أنه لم يسجد لصنم ولم يحلف بأصنام قومه قط ، وجاء أبو طالب وراح يغمر ابن أخيه بحنانه فالتفت صاحب

الدير إلى أبى طالب وقال :

— ما هذا الغلام منك ؟

— ابنى .

— ما هو بابنك وما ينبغى أن يكون له أب حى .

وصمت الرجل قليلا وهو يرنو إلى عينى محمد الحمراوين ، ثم قال فى صوت كأنما كان آتيا من وراء السماء :

— هذا نبى .

ولاحت الحيرة فى وجه أبى طالب ، وراح يقلب عينيه بين ابن أخيه وصاحب الدير ثم قال :

— وما النبى ؟

— الذى يأتى إليه الخبر من السماء فينبئ أهل الأرض .

ولم يستطع أبو طالب أن يتصور أن إنسانا يستطيع أن يسمو بإنسانيته ليأتى إليه الخبر من السماء فينبئ أهل الأرض ، فقال فى إنكار :

— الله أجل مما تقول .

كان أبو طالب من قوم لم يبعث الله إليهم من قبل رسلا ولا أنبياء فكان عسيرا عليه أن يقر حقيقة قدرة البشر على الاتصال بالله ، ولم يكن قد سمع بعد باصطفاء الله من يشاء من الملائكة والناس ليكونوا رسله إلى الإنسانية يحملون أوامره ونواهيه لصلاح عباده ، فأعرض عن نبوءة صاحب الدير ، ولو كان صدقه فى بشارته لحق عليه أن يتبعه فى دينه وأن يهجر دين الآباء .

واستأنفت القافلة رحلتها حتى إذا ما بلغت قرية الكفو وبينها وبين بصرى ستة أميال ، نزل الركب عند شجرة أمام صومعة بحيرا الراهب

وكانت الصومعة مغلقة يرفرف عليها سكون عميق ، ولم ينتظر أحد ممن كان فى القافلة أن يفتح باب الصومعة فلطالما مروا بها وهى غارقة فى الصمت لا نأمة ولا حركة وكأنها قد لفظت أنفاسها فى سجدة !

وراح بحيرا يرصد القافلة من وراء ستار ، إنه ليرى اليوم عجبا ، يرى غمامة تظل فتى من بين القوم ، وقد اختلط عليه الأمر من دهشته حتى لم يعد يدرى أيرى الغمامة ببصره أم ببصيرته ، بعينيه أم بوحى خفى انبعث فى أعمق أعماقه ، إنه يرنو إلى الفتى لا يستطيع أن يرفع عينيه عنه ، وإن صوتا يرن فى صميم ذاته : إنه هو .. إنه هو .

كان بحيرا راهبا متعبدا يقضى كل وقته فى الصلاة وفى قراءة الكتب وقد انتهى إليه علم النصرانية ووعى بشارات السيد المسيح « بالفراقليط » وعرف أنه سيبعث فى العرب ، فكان يجتهد فى العبادة لعله يهتدى إلى زمان ذلك الذى سيمكث دينه مع الناس إلى الأبد ، وقد أنار الله بصيرته فعلم أن أوان ذلك النبى قد آن ، فكانت أقصى أمانيه أن يرى ذلك النبى الذى سيبعثه الله رحمة للعالمين .

إنه كان يحس فى تلك اللحظة ذلك الإحساس الذى نزل بقلوب الحواريين لما أوحى الله إليهم أن آمنو بى وبرسولى ، ألقى فى روعه أن على بعد خطوات منه النبى المنتظر ، فأشرقت جنباته بسرور روحى يفوق كل السرور ، فهو سعيد الحظ ميمون الطالع إذ يلقى خاتم الأنبياء والمرسلين .

إنه شرف لبحيرا وأى شرف لو أتيحت له فرصة التحدث إلى محمد ، فسيخلد اسمه على مر السنين وسيرفع ذكره بعد أن كان مقدرا أن يطمس كآلاف الرهبان الذين انقطعوا فى صوامعهم من قبله ومن بعده .

وأرسل إليهم :

ــ إنى قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش وأحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم .

وجاءوه وقال رجل منهم :

ــ يا بحيرا إن لك اليوم لشأنا . ما كنت تصنع هذا بنا وكنا نمر عليك كثيرا فما شأنك اليوم ؟

ــ صدقت . قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم .

فاجتمعوا إليه وراح يتفرس فى وجوه الصبيان ، نظر إلى عتيق (أبى بكر) فقد كان إلى جوار أبيه ، ونظر إلى كل صبى وفتى فلم يجد محمدا بين القوم ، فقد كان فى رحال قومه تحت الشجرة يرنو إلى السماء وتهيم روحه فى الوجود ، فقال :

ــ لا يتخلف أحد منكم عن طعامى .

ــ يا بحيرا ما تخلف عن طعامك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سنا .

ــ لا تفعلوا ، ادعوه ليحضر هذا الغلام معكم ، فما أقبح أن تحضروا ويتخلف رجل واحد مع أنى أراه من أنفسكم .

ــ هو والله أوسطنا نسبا ، وهو من ولد عبد المطلب .

فقال رجل من قريش :

ــ واللات والعزى أن كان للؤما بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا .

ثم قام إليه وجاء به وأجلسه مع القوم ، فجعل بحيرا يلحظه لحظا

شديدا وينظر إلى أشياء من جسمه ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرا فقال له :

ـــ أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه .

فقال محمد فى رقة :

ـــ لا تسألنى باللات والعزى شيئا فوالله ما أبغض شيئا قط بغضهما .

ودار الحديث بين بحيرا ومحمد ، بحيرا يسأل ومحمد يجيب ، إنه يسأله عما يرى فى منامه وعما إذا كانت رؤياه تتحقق فيخبره محمد أن ما يراه يتحقق كفلق الصبح فرؤياه صادقة ، ويسأله عن آلهة قومه فيجيب محمد ببغضه للشرك ، ويستمر الحوار بين محمد الهادئ وبحيرا المنفعل ، بين النبى المنتظر والراهب الذى أمضى سنين حياته يقرأ البشارات والنبوءات بالنبى الأمى الذى يجده مكتوبا عنده فى التوراة والإنجيل فقد كان يعرفه كما يعرف نفسه ، ولكنه لم يكن ليحلم بأن الله سيكرمه بلقاء رسوله .

إن الله سيرعى من اصطفاه لرسالته ، وإن الله بالغ أمره ، وسيظهر دينه على الدين كله ، وسيرفع ذكر محمد . وإنه لمن رضا الله على بحيرا أن يسرَّ له كشف أمر نبيه ، وقد أحس بحيرا تلك المكرمة فى نفسه فسجدت روحه لربه وإن لم يخر ساجدا وباكيا .

كانت كل الدلائل الروحية تدل على أن الغلام الكريم هو النبى المنتظر ، ولم يبق إلا دليل مادى ملموس ذلك هو خاتم النبوة ، فطلب بحيرا من محمد أن يكشف عن ظهره ، فلما رأى خاتم النبوة مشت قشعريرة فى بدنه ولم يتمالك الشيخ الجليل إلا أن ينحنى ويقبل فى إجلال موضع الخاتم .

ورأى رجال قريش ما ارتسم على وجه الراهب من رضاء ، وظل أبو بكر ينظر وهو مأخوذ ، ثم قالت قريش :

ـــ إن لمحمد عند هذا الراهب لقدرا .

وسار بحيرا إلى حيث كان أبو طالب وقال له :

ـــ ما هذا الغلام منك ؟

ـــ ابنى .

ـــ ما هو بابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا .

ـــ فإنه ابن أخى .

ـــ فما فعل أبوه ؟

ـــ مات وأمه حبلى به .

ـــ صدقت .

ـــ وما فعلت أمه ؟

ـــ توفيت قريبا .

ـــ صدقت . فارجع بابن أخيك إلى بلاده واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم . واعلم أنى قد أديت إليك النصيحة فأسرع به إلى بلاده .

كان أبو طالب يسمع نبوءات الكهان فى مكة وفى كل مدن الحجاز وما كان يصدقها ، وقد سمع نبوءات الرهبان وألقاها دبر أذنه ، ورأى أن يفحم بحيرا فقال له :

ـــ إن كان الأمر كما وصفت فهو فى حصن من الله .

كان بحيرا على يقين من أن محمدا فى حماية الله ورعايته ، ولكنه كان

يطلب التوقى والحذر فلم يزل يناشد أبا طالب حتى قبل أن يرده خشية أن يصيب ابن أخيه مكروه فتقول قريش حذره الراهب وأبى إلا أن يركب رأسه .

ونادى أبو طالب على بعض غلمانه وأمرهم أن يعودوا إلى مكة بابن أخيه ، فلما رأى عتيق (أبو بكر) أن صديقه الحميم سيعود قبل أن تنتهى الرحلة طلب من أبيه أن يعود معه ، ووافق أبو قحافة على عودة ابنه فقفل الركب الصغير عائدا بمحمد وأبى بكر ، وكانت أول صحبة بين الصديقين .

— ١٥ —

راحت الشمس تنحدر فى الأفق الغربى ، ففتحت الدور التى بنيت على سفوح الجبال المطلة على الحرم ، وبدأ الناس ينحدرون إلى الكعبة ليطوفوا بالبيت العتيق قبل أن ينطلقوا إلى حلقات السمر يصغون إلى الشعراء أو يشنفون آذانهم بغناء القيان بين كئوس الخمر وأحضان الحسان ، أو ليلعبوا الميسر بالأموال التى كسبوها من التجارة أو من إكراه فتياتهم على البغاء أو من عرق عبيدهم الذين يقومون بالحدادة والنجارة والتسيج والصياغة وكل الحرف طوال النهار ليجلبوا لساداتهم ما كسبت أيديهم .

وفتح الرعاة أبواب الحظائر فانسابت الغنم والأنعام إلى الآبار وإلى المراعى فأثارت النقع ، وارتفعت أصواتها تملأ أجواء مكة ، ودبت الحياة فى ربوع أم القرى وفى الوادى المقدس ، فإقبال الليل إيذان بحياة صاخبة

قد تمتد فى دور الأجواد وطلاب اللهو ، وما أكثرهم فى مكة ، إلى تنفس الصبح .

وخرج زيد بن عمرو بن نفيل من غار حراء فهو يختبئ به من اضطهاد عمه الخطاب بن نفيل ، فإذا أراد أن يدخل مكة دخلها متسترا بالليل أو مستخفيا حتى لا يراه الشبان الذين وكل إليهم الخطاب أمر اضطهاده خشية أن يفتن أهل مكة عن دينهم .

كان الشباب وسفهاء القوم إذا رأوه أمطروه بالحجارة حتى يلجئوه إلى الجبال ، فكان يلوذ بها ثم يقصد إلى غار حراء يحتمي به ويمضى أغلب وقته فيه ، وما كان يذهب إلى دار زوجه صفية بنت الحضرمى فقد كرهت منه انسلاخه عن دين الآباء ومحاولته إثارة الفتن بين قومها الذين اطمأنوا إلى حياتهم الناعمة ، فكان إذا ذهب إليها بعثت إلى الخطاب أن ابن أخيه فى دارها فيأتى الخطاب وهو غاضب حانق فيطرده من الدار ، بل من مكة كلها .

وانطلق زيد يترقب ، ثم وقف على سفح جبل أبى قبيس ينظر إلى الكعبة والناس يتدفقون إليها من كل فج ومن كل سفح كالسيل ، يطوفون بها ويتمسحون بالأصنام التى وضعت حولها ، فأحس شوقا إلى الطواف بالبيت وتمنى لو كان له جناحان يحلق بهما كحمام الحمى حول أول بيت وضع للناس دون أن تقع عيناه على الأصنام التى بات يكرهها أشد الكره .

وراح يرقب الشمس وهى تغيب وراء الجبال فأحس ابتهاجا يملأ جوانحه وأنه مفعم بروح الله ، وتمنى لو أنه أوتى قوة ليصيح بقومه أن اعبدوا الله وحده ، ولكنه كان أضعف من أن يواجه الثورة العارمة التى

ستشب فى وجهه ، وكان يقشعر جلده كلما فكر فى أن يصمد للتحدى وأن يصبر على العدوان .

إنه لما طاف بالأرض سمع من الأحبار والرهبان أن النبى الذى سيظهر فى مكة قد أظل الأرض زمانه ، وأن ذلك النبى سينشر دين الله ، فعاد إلى مكة يلتمس الحنيفية دين إبراهيم وينتظر ذلك النبى فى لهفة لينصره ويؤيده حتى يظهر الحق ويغمر نوره العالمين .

وشخص ببصره إلى السماء وقال :

— اللهم إنى أشهد أنى على دين إبراهيم عليه أحيا وعليه أموت .

ثم التفت إلى الكعبة وقال :

— هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل ، لا أعبد حجراً ولا أصلى له ولا آكل ما ذبح له ولا أستقسم الأزلام وإنما أصلى لهذا البيت حتى أموت .

وانحدر مع الليل إلى الوادى المقدس وراح يطوف مع الطائفين وهو يعجب لاضطهاد عمه إياه ، فورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وكثير من قومه قد اعتنقو النصرانية وجلبوا تمثال العذراء وهى تحمل المسيح من أرض الروم ووضعوه بين التماثيل حول الكعبة فلم يضطهدهم المكيون بل كفلوا لهم حرية العبادة ، وإن العبيد والإماء من روم وفرس وأحباش ووثنيين يمارسون شعائر دينهم فى حرية وسماحة فما بال الخطاب يتعقبه ويغرى به سفهاء قومه ؟

أوسعت رحمة قريش اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الحجـارة وضاقت بالحنفاء الذين يطلبون دين إبراهيم الخليل وإسماعيل ؟ إن فى مكة حنفاء آخرين يعبدون الله وحده على قدر علمهم ويسيرون فى الأرض دون أن يقع عليهم اضطهاد أو تعذيب ، وما ذلك إلا لأنهم لم يسفهوا

أحلام قومهم و لم يسبوا آلهتهم ، فلماذا لا يمسك زيد لسانه عن عيب ما يعبدون وأن يعيش فى سلام مع أهله ، لهم دينهم وله دينه القويم ؟!

لم يكن مكلفا برسالة و لم يعده الله لحمل ما ينوء به أولو العزم من الرجال ، فقلبه أشرق باليقين وملأت أنوار الله جوانح صدره ، ولكنه لم يروض ليكون أقوى الناس يقينا وأشدهم عزما وأوفرهم علما وفهما وأرقهم قلبا ، و لم يؤته الله حِكمة وحكما ليفتح به أعينا عميا وقلوبا غلفا وآذانا صما ، فاطمأن إلى مسالمة قومه التماسا للنجاة والسلامة .

ووقعت عينا شاب من شباب قريش على زيد بن عمرو وهو يطوف بالبيت فراح يتفرس فيه ، حتى إذا ما تحقق منه طار إلى الخطاب بالنبأ ليأتى الخطاب وسفهاء القوم ويطردوه من الحرم قبل أن يفسد ضعاف النفوس من قومه .

كان الخطاب فى داره يغدو ويروح فزوجه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة كانت تضع ما فى بطنها ، إنها وضعت أنثى أول ما وضعت ولما بشر بها اسود وجهه وهو كظيم وأمسكها على هون و لم يدسها فى التراب وسماها فاطمة .

إن زوجه مخزومية وأبناء عمها سادات بنى المغيرة أبو جهل وعبد الله ابن أبى ربيعة والوليد بن المغيرة ، وهو فى حيرة من أمره لا يدرى ماذا يفعل لو وضعت امرأته أنثى مرة ثانية ، أيئدها ويغضب بنى مخزوم أم يمسكها وقد تجلب له العار كما جلبت ابنة قيس بن عاصم العار لقومها ؟

وأحس أن رأسه يكاد ينفجر فغادر الدار وانطلق إلى دار عبد الله بن جدعان ليسمر مع السمار حتى تضع زوجه ويأتيه البشير أو النذير ، فلم يعد يستطيع صبرا على الانفعالات الموارة بين جوانحه ، وقد زاد فى إغرائه

على التوجه إلى دار ابن جدعان أنه علم أن أمية بن أبى الصلت هناك وأنه سيعود فى الصباح إلى أهله فى الطائف .

وذهب الخطاب فى سكون الليل إلى دار ابن جدعان فإذا الموائد قد مدت ، وجلست الجرادتان على شرف عال وراحتا تغنيان أعـذب الألحان ، وإذا بابن جدعان وعن يمينه أمية بن أبى الصلت وعن يساره ومن حوله سادات قريش : أمية بن خلف والعاص بن وائل وأبو لهب بن عبد المطلب والوليد بن المغيرة وأبو زمعة الأسود بن عبد المطلب وحرب ابن أمية ، فلما رأى ابن جدعان إقبال الخطاب قام إليه وأجلسه إلى جواره .

وبدأ الناس يأكلون فقال قائل :

ـــ أهذه الوليمة تحفة أم قرى أم مأدبة ؟

كانت التحفة ما يصنع للزائر والقرى ما يصنع للضيف والمأدبة ما ليس له سبب ، فقال آخر :

ـــ أيام ابن جدعان كلها ولائم .

ودارت الكئوس على الحاضرين وقد ملئت من نبيذ الشام ، وما أن رفع أبو لهب كأسه حتى تذكر تلك الليلة التى سرق فيها غزالة الكعبة ليشترى بها نبيذا .

كان ابن جدعان أكثر القرشيين طلبا للغزالة كأنما كان يخشى أن يغضب رب الكعبة فيذهب ماله ، ولم يهدأ له بال حتى عثر عليها وأعادها إلى مكانها . كانت فعلة منكرة من أبى لهب ومن أصحابه وقد وصم بها إلى الأبد ، فقد سماه قومه « سارق غزالة الكعبة » ، وإنهم ليهمسون بتلك التسمية وإن لم يجرؤ أحد على أن يلقى بها فى وجهه .

إن ابن جدعان قد حرم على نفسه الخمر ولكنه كان يقدمها إلى ندمائه وكان يرى من فعالهم لما تلعب الخمر برءوسهم ما يزيده عزما على ألا يقرب الخمر أبداً ، فقد كانوا يأتون من الأعمال ما لا يليق بكرامة البشر .

ومال أمية بن خلف على جاره وراح يؤكد له أن صوت عبده الحبشى بلال بن رباح أندى من صوت الجرادتين ، فإنه إذا ارتفع صوته بالحداء يضفى على القافلة كلها راحة وبشرا .

وانتهت المغنيتان من غنائهما فقام الشعراء وراح كل منهم يلقى على أسماع السكارى ما معه من الشعر ، ثم قام الزبير بن عبد المطلب فأرهفت الآذان فقد كان الزبير شاعراً مقذعا ترهبه القبائل ويخشى الشعراء لذعه وسخريته وهجاءه وكانوا جميعا يتحاشون التعرض لآل عبد المطلب بل لبنى هاشم جميعا خوفا من لسان الزبير الذى كان أقسى من ضربات السياط على الظهور العارية .

وراح أمية بن أبى الصلت يتحدث ، وكان أمية قد ساح فى الأرض حتى بلغ فارس وسمع قصص « كليلة ودمنة » التى نقلها برزويه طبيب أنو شروان إلى البهلوية ، وكان برزويه قد أتى بأصلها الهندى أثناء رحلة له إلى بلاد الهند ، وقد دعى أمية كثيراً من تلك القصص التى انتشرت انتشاراً عظيما فى فارس وفى الحيرة ، فكان يروى ما تسعفه به الذاكرة فى مجالسه ، وكثيراً ما كان يترك بصمات فكره على ما يروى منها .

واعتدل أمية بن أبى الصلت وصمت قليلا حتى أذا ما اطمأن إلى أنه صار قبلة الأنظار ، قال :

ـــ كان الديك نديما للغراب ، فرهنه على الخمر وغدر به ، وتركه

عند الخمار رهينة ، فجعله الخمار حارسا .

ودخل الشاب الذى رأى زيد بن عمرو فى الحرم يتلفت ، حتى إذا ما وقعت عيناه على الخطاب ذهب إليه والتقم أذنه وهمس قائلا :

— عاد زيد إلى مكة .

فاربد وجه الخطاب وهب واقفا وقد ثارت فى صدره ثورة حانقة ، ثم انطلق لا يلوى على شيء والشاب فى أثره ، فلما بلغ الكعبة راح ينقب بعينيه عن ابن أخيه حتى إذا ما رآه ناداه بصوت فيه غضب ووعيد ، فلما هوى الصوت على أذنى زيد ارتجف وسرعان ما دار على عقبيه ووسع من خطوه ليختفى فى شعاب مكة .

كان زيد يطلب السلام بينه وبين قومه وكان أمله أن يكف عمه عن اضطهاده ، ولكن ما إن أصبح أمام الخطاب وجها لوجه حتى ارتعدت فرائصه وفر من أمامه مفضلا أن يبعث إلى الرجل العنيف سفيراً يصلح بينهما ، على ألا يسب زيد الآلهة ولا يسفه الأحلام وعلى أن يترك زيد حراً يعبد ما يشاء فهو لا يطلب حرية أكثر من الحرية المكفولة لليهود والنصارى والمجوس ، بل وللعبيد والإماء من كل أمة ومن كل جنس وعلى أى دين .

لم يكن زيد بن عمرو بن نفيل معداً لأعباء الرسالة ، فلم يقل لعمه ما قاله محمد بن عبد الله لعمه بعد ذلك بثلاثين سنة : « والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه » ، ولكنه آثر السلامة والفرار بدينه والاكتفاء بأنه قد رشد وحده .

وتذكر الخطاب زوجه حنتمة التى تركها وهى تلد فرأى أن يعود إلى

داره ليعلم ماذا وضعت له المخزومية ، فسار خافق القلب يخشى أن يبشر بالأنثى فيسود وجهه . ولكنه ما إن أشرف على الدار حتى هرع إليه البشير يقول :

— ولد .. ولد ..

وانبسطت أسارير الخطاب وتهلل فؤاده بالفرح واندفع إلى حيث كانت زوجه وهو فى غاية الانفعال ، ونظر نظرة طويلة كلها حب وحنان ورحمة وفكّر ..

— بماذا أسميه ؟

سأسميه عمر .. عمر بن الخطاب .

— ١٦ —

بدت جبال مكة والوادى المقدس كأنها قطع من لجين ، فقد كان القمر فى ليلة تمامه يريق أشعته الفضية على الكون فيضفى على الوجود سحراً ويملأ الصدور انشراحا ويطلق الأخيلة للرؤى المجنحة التى تهيم فى دنيا الأحلام والأمانى والآمال .

وانعقدت حلقات السمر فى الدور وعلى روابى الجبال وفى دار الندوة وفى الحرم ، وراح المكيون يتحاورون ويروون أساطير الأولين تارة ويقصون قصص كليلة ودمنة التى انتشرت فى فارس وفى الحيرة وفى كل القبائل العربية التى كانت على صلة بفارس والحيرة انتشار الريح تارة أخرى ، ويتدارسون دياناتهم وكرامات آلهتهم وقد نسوا دين أبيهم إبراهيم بعد أن مضت بينهم وبينه قرون فتطاول عليهم العمر وقست

قلوبهم ، أو يلقون سمعهم إلى شعرائهم فالشعراء هم قطب الرحى فى كل سامر وفى كل ناد ، وما زال القوم فى سمرهم حتى ظهرت تباشير الصباح .

وجاء محمد بن عبد الله يطوف بالحرم قبل أن ينطلق ليرعى غنم أهله ، فألفى بيت الله كأنما دثر بمخمل نسج بأسلاك من فضة وقد شع منه ضياء لطيف أنار روحه بفيض من نور انشرح له كل وجدانه ، إنه حرم آمن يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدن إلٰه كريم .

ووقعت عيناه على الأصنام التى نصبت حول البيت العتيق فإذا الصورة الرائعة التى رآها بعين بصيرته تهتز ، وإذا بالانشراح الذى ملأ جوانحه ينحسر أمام الانقباض الذى زحف لينزل بصدره . وإذا بالحب العميق الذى أحسه للبيت ينقلب فى غمضة عين إلى كراهية لتلك الحجارة التى لا ترى ولا تسمع ولا تملك لنفسها نفعا أو ضرا .

وسمع ما يدور بين الجالسين فى الحرم من لغو فأعرض عنه وراح يبتعد عن أحب مكان إلى قلبه ، فالأصنام قد دنسته ، وهى كلما مد بصره إليها تهيض جناح روحه التى استمرأت السمو إلى ما وراء الوجود ، وذلك اللغو الذى يتردد فى الوادى المقدس يؤذيه بل يرهقه إرهاقا . إنه يريد أن يلقى بنفسه فى أحضان الطبيعة قبل أن تمتد إليها يد الإنسان العابث . فما أجمل الطبيعة قبل أن تشوه وجهها أيدى البشر ! وما أروع ما توحى به ! إنها ترفع الراغب فى الوصال إلى ما وراءها ليتهلل بالفرح وينعم بالتجلى .

وجعل الكعبة بما فيها من أصنام ولغو دبر أذنه ، وذهب إلى حيث كانت غنم قومه فخرج بها قاصداً المرعى ، وقد أتت من بعيد أصوات

القيان بالغناء فقد كان هناك عرس فى مكة .

كان يحب الغنم ويغمرها بعطفه ، وكان إذا ما رأى سخلة ، — وهى ولد الشاة حين تضعه ذكراً كان أو أنثى — كان يحملها ويمرر يده عليها فى شفقة ويضمها إليه فى حنان وقد امتلأ قلبه رحمة . وكانت إذا شردت شاردة يعيدها إلى القطيع فى رفق ، وإذا قفز حمل أو عنزة فى الفضاء فى مرح ، ترف ابتسامة رضا على شفتيه ، وما كان يجهد غنمه فى السير بل كان يترفق بها ، فهو برعايته للغنم يتدرب على رعاية الناس .

وألقى نفسه فى الفضاء ، إنه أمام الوجود وجها لوجه ، فراح يتلفت فى ابتهاج وقد أحس فى أعماق ذاته أن ذلك العالم الذى يراه عالم ناقص لا يستطيع أن ينهض على قدميه دون الموجود الأسمى ، الحقيقة المقدسة ، ذات الذوات وروح الأرواح وحقيقة الحقيقة .

كان القمر يغمر الكون بالضياء ، وكانت الغنم ترعى الكلأ ، فراح يتأمل ويفكر ويتدبر فيحس كأن حكمة من فوق السموات تتدفق إلى قلبه ؛ لو أن روح الكون جعل الليل سرمداً إلى الأبد من إلـٰه غيره يأتى بالضياء ؟ وإن جعل النهار سرمداً إلى الأبد من إلـٰه غيره يأتى بليل يسكن الناس فيه ؟

ومد عينيه إلى المرعى وراح يفكر فى الإلـٰه الذى ينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ، أهبل الذى يسوق الرياح ؟ آللات والعزى ومناة اللاتى يملكن للناس رزقا ؟ إن هبل عاجز وكل الأصنام التى تكدست فى جوف الكعبة ومن حولها ليس لها من الأمر شىء ، إن إلـٰه هذا الكون هو صانع ما فيه من آيات وصاحب ما فى الوجود من أسرار وعنده مفاتيح الغيب .

هذا القمر المتألق فى السماء شاهد بوجوده ، وهذا الفضاء الواسع العريض شاهد بوجوده ، وهذه الغنم وهذا الكلأ وزفيف النسيم وخفقان قلب الكون وتعاقب الليل والنهار شاهد بوجوده ، وإنه بكل كيانه منحة من القدرة الإلـٰهية ، من الحقيقة المتعالية .

وأحس رغبة فى النزوع إلى الحقيقة الخالدة ، أن يرتفع إلى ما وراء عالم التجربة البشرية الناقصة أن يتصل بالخير الأسمى وأن يقف منه موقف العبد من المعبود . ولم يدر بخلده ما يدور بخلد الكهنة والسحرة من أن يتخذوا من هذه القوة المتعالية قوة سحرية يستغلونها لمصلحتهم ، بل إنه أراد أن يسلم لله وجهه وأن يستعين به وأن يتوكل عليه .

أيستطيع أن ينفذ إلى جوهر الحقيقة ؟ أن يغوص فى أعماق « السر الإلـٰهى » ؟ أم يكفيه ذلك الإشراق الذى أمسى يحسه فى صميم ذاته ؛ وأن يكف عقله عن الجرى وراء استجلاء الحقيقة المستغلقة ؟

إنه يستشعر الجوهر الأسمى فى كل ما يمد إليه عينيه ، وإنه ليسمع صوته فى كل صوت يتجاوب فى أرجاء الوجود ، وإنه من أمامه ومن خلفه ومن فوقه وحيثما يوجه البصر ، بل إنه فى قلب قلبه وفى نور عينيه وفى كل جارحة من جوارحه وفى أعماق أعماقه . وهو روح الروح .

إنه يحس نشوة تنبعث من صميم إحساسه بمن ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى ، وأنسا وبهجة وانبهارا كلما شاهد عجائب ملكوته وآثار قدرته ، وإنه ليخر ساجدا وقد تهلل بالفرح لعظمته وإن كانت روحه فى سجود دائم لا تعرف قياما ، فقد ملأه السرور أن قد عرف الخير المطلق والعدالة المطلقة والحق المطلق .

إن شجرة الإيمان تترعرع فى ضميره ، وإن عليه أن يرعاها بالمجاهدة

وأن يسقيها بالتأمل والتدبر والتفكير وإلقاء السمع إلى من ليس دونه منتهى . وأن يرقى ذاته بالصبر الطويل وتحمل ألم الوحدة والحزن العميق حتى ينعم بفيض علوى من السعادة ، وحتى يشرق الله قلبه بأنوار اليقين .

إن الوجود شيء أكثر مما نراه ونحسه ونلمسه ونشمه ونتذوقه أو يتخيله العقل ، إنه الطبيعة وما وراء الطبيعة ، إنه الكون وروح الكون ، إنه العالم والله ، وإن قلب الحقيقة إرادة الله ، وإن محمداً ليحس أن الله يهبه قلبا جديدا ناصعا كلما هام فى ملكوته وفكر فيه .

وجاء فتى من فتيان قريش فى غنم لأهله يرعاها ، فلما رأى محمدا راح يجاذبه أطراف الحديث ، وفيما هما يتحاوران تذكر محمد أصوات القيان التى مست أذنيه وهو منطلق بالغنم إلى أعلى مكة ، فخطر له خاطر : لم لا يسمر الليلة كما يسمر الفتيان وإنه لسمر برىء لا شىء بعده ، واستراح لذلك الوسواس فالتفت إلى الفتى وقال :

— انظر إلى غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان .

قال الفتى :

— نعم .

وترك محمد غنمه فى رعاية ذلك الفتى ثم سار يتكفأ مسرورا ، فهو مقدم على تجربة جديدة لم يمارسها من قبل ، فلما جاء أدنى دار من دور مكة سمع غناء وصوت دفوف ومزامير فقال :

— ما هذا ؟

— فلان قد تزوج من فلانة .

فجلس وتأهب ليسمع ، ولكن الله ضرب على أذنيه فراح فى سبات

ولم ير شيئا ولم يسمع شيئا ، فالسماء تعده لرسالة ليس سبيلها السمر وإلقاء السمع إلى الغناء وأصوات الدفوف والمزامير والألحان .

وانقضى الليل وهو غارق فى نومه ، وانفض السامر وأشرقت الشمس فلما أحس حرها استيقظ وراح يتلفت فى عجب ، فهو لا يدرى كيف غلبه النوم وما كان فى عينيه نعاس ، بل كان نشيطا يمنى النفس بليلة من ليالى السمر التى يسعد بها فتيان مكة .

ورجع إلى صاحبه فهرع إليه الفتى وقال :

— ما فعلت .

وترقب الفتى أن يسمع وصفا مسهبا لتلك الليلة من محمد الذى اشتهر بفصاحته ، ولم يمن النفس بأن تهز الليلة محمدا فيصوغ شعرا فقد عرف أن محمدا يكره أوزان الشعر ولا يتبع الشعراء الذين يهيمون فى وديان مكة وشعابها .

وقال محمد فى اقتضاب :

— خرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير ، فلهوت بذلك الصوت حتى غلبتنى عيناى فنمت فما أيقظنى إلا مس الشمس .

وعاد محمد بغنم أهله وهو يفكر فيما كان فى أمسه ، فإن كان النوم قد غلبه فسينام النهار حتى يقوى على أن يسهر الليل يسمر كما يسمر الفتيان، فهو مذ تفتحت عيناه على نور الدنيا لم يعرف اللهو ولا السمر، وإن كل ما يذكره تلك الأيام والليالى التى قضاها فى بنى سعد فى أحضان حليمة ، يشارك إخوته الشيماء وعبد الله وأنيسة لعبهم ، وكانت لعبته المفضلة « العظمة البيضاء » وكان كلما لعبها مع أنيسة وعبد الله يفوز

عليهما فهو يطوحها أبعد من أخويه ، وكان يراها فى ظلمة الليل قبل أن تقع أعينهما عليها .

وإنه ليذكر تلك الأيام التى قضاها فى يثرب عند أخوال جده من بنى النجار ، كانت أياما مترعة بالمتعة ، خرج فيها مع صبيان أخواله يجوس خلال آطام اليهود وأسواقهم ، ويقف على العداوة الناشبة بين الأوس والخزرج ، وقد تعلم العوم هناك كشفا عن حبه للمخاطرة والترقى والسمو على بيئته المكية التى ما كانت تعرف العوم أو تفكر فيه .

وإنه ليذكر أنيسة تلك الجارية من بنى النجار التى كانت تلعب معه على أطم من آطام عدى بن النجار ، وكان فى ذلك الوقت فى السابعة من عمره ، ومضى على ذلك ست سنوات لم يعرف فيها اللعب بل عرف التأمل والتدبر والتفكير فى ذلك الكون الرحيم الذى يحس توافقا بينه وبينه ، والذى يرفعه فى رفق إلى ما وراءه ليتصل بمن ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى .

كان ذلك كل ما عرفه من لعب ، وما كان فيه شىء قبيح مما كان متفشيا فى أهل الجاهلية . وقد هفت نفسه إلى أن يسمر ذلك السمر البرىء الذى يسعد به كل فتيان مكة دون حرج أو تثريب ، ولكن الله عصمه فى الليلة الأولى ، وهو عازم على أن يتأهب للسمر فى الليلة التالية ليعوض ما فاته .

وانصرم النهار وجاء الليل وارتفع القمر يبعث أشعته لتكسو الأرض ببساط من فضة ، وسرى محمد يرعى غنمه فى أعالى مكة وصوت القيان والدفوف والمزامير يهمس فى الوجود همسا كله إغراء وفتنة كوسوسة الشياطين فى صدور الضالين .

والتفت محمد إلى صاحبه وقال :

— أبصر لى غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة .

— نعم .

وانطلق محمد نشيطا حتى جاء دارا من دور السادات الذين يمضون الليل فى سمر وحبور يصيخون السمع للغناء وصوت الدفوف والمزامير ، فجلس وتأهب ليشنف أذنيه بالأصوات العذبة ، بعد أن نام النهار ليسهر الليل كله مع الساهرين . ولكن ما كاد يستقر فى مكانه حتى غلبه النوم قبل أن يرى شيئا أو يسمع شيئا ، وانقضى الليل وهو غارق فى النوم وما أيقظه إلا حر الشمس ، فقام وهو يتلفت فى دهش ، وسرعان ما أحس رهبة وكأنما قد أضاء ذهنه فجأة بحقيقة كانت غائبة عنه أو غابت عن ضميره فى الليلتين اللتين فكر فيهما أن يسمر كما يسمر الفتيان .

إنه سائر فى طريق التأمل والتدبر والاتصال بروح الوجود ، وإنه ليستشعر أن ذات الذوات تدنو منه كلما دنا منها ، بل إنه ليستشعر أنها صارت قريبة منه أقرب من حبل الوريد ، فما الذى جعله يعرج إلى طريق اللهو والسمر ؟!

إنه آسف لأنه هم بقبيح مما هم به أهل الجاهلية ، وإنه لسعيد فى نفس الوقت لأنه اكتشف أن الحقيقة الخيرة ترعاه وتحول بينه وبين أن ينغمس فى حياة يتنكب بها الطريق القويم الذى يقوده إلى غاية الغايات .

إنه يجاهد ويجتهد ويتحمل الألم والعذاب والحرمان ليبلغ ما تصبو إليه نفسه من الوصال ، وإن اللطيف قد لطف به وعصمه عن أن يدخل من باب اللهو الذى يقوده إلى الضلالة ، فعزم على ألا يعود لشىء من ذلك بعد أن رأى ببصيرته برهان ربه .

خرج حكيم بن حزام بن خويلد من دار الندوة ليطوف بالبيت قبل أن ينطلق إلى دار عمته خديجة ، وكان حكيم آدم شديد الأدمة خفيف اللحم ولد قبل الفيل باثنتى عشرة سنة ، فقد دخلت أمه الكعبة مع نسوة من قريش وهى حامل مُتم به فضربها المخاض فى الكعبة ، فأُتيت بنطع حيث أعجلها الولاد ، فولدت حكيما فى الكعبة على النطّع .

وكان حكيم راجح العقل له دراية ورأى ، وقد عرف عنه ذلك وهو لا يزال حدثا ، ولم يدخل دار الندوة للرأى أحد حتى يبلغ الأربعين إلا حكيم بن حِزام فإنه دخلها للرأى وهو ابن خمس عشرة سنة ، وكانت له كلمة بين شيوخ قريش وساداتها ، وصار من وجوه قريش ولما يبلغ العشرين من عمره ، وقد كان ذلك سببا فى تأجيج مطامع أبى الحكم بن هشام (أبى جهل) وأبى سفيان بن حرب ، فقد طمع كل منهما فى أن يدخل دار الندوة للرأى قبل أن يبلغ الأربعين كما فعل حكيم بن حزام .

وكان حكيم يعالج البر وإن كان يسجد لأصنام الكعبة ، وكان رجلا تاجرا يخرج إلى اليمن وإلى الشام فى رحلتى الشتاء والصيف فكان يربح أرباحا كثيرة فيعود على فقراء قومه يريد بذلك ثراء الأموال والمحبة فى العشيرة . وكان يحضر الأسواق ، وكانت سوق مجنّة تقوم عشرة أيام ، حتى إذا ما بدا هلال ذى الحجة انصرف العرب وانتهوا إلى سوق ذى المجاز فتقام ثمانية أيام ، ثم ينصرفون إلى أداء مناسك الحج والوقوف بعرفة .

كان دين إبراهيم قد اندثر و لم يبق منه إلا حج البيت وتقديس الحرم ، وإن كان الشرك قد دنس عقيدة التوحيد وإن كانت الأساطير قد طمست الدين القويم لما طال على الناس العمر بعد أن انقضت القرون ؛ فكان العرب جميعا وثنيين ويهود ونصارى أو حنفاء يحترمون البيت ، وإذا ما جاء أوان الحج يأتون على كل ضامر من كل فج عميق .

وكان حكيم يؤمن بالتجارة ويجد فيها عز العرب ، فكان لا يدع سوقا بمكة أو تهامة إلا حضرها ، وكان بتهامة أسواق أعظمها سوق حُباشة ، وقد رأى فيها محمد بن عبد الله مع أعمامه من آل عبد المطلب يشترى بزا من بز (ثياب) تهامة .

وانتهى حكيم من طوافه وخرج من الحرم قاصدا بيت عمته خديجة ، والناس ينظرون إليه وفى عيونهم حسد ، فهو رجل مجدود فى التجارة ما باع شيئا قط إلا ربح فيه ، ولقد كانت قريش تبعث بالأموال ويبعث بماله فلربما دعاه بعضهم إلى أن يخالطه بنفقته يريد بذلك الحظ فى ماله ، وذلك أنه كان كل ما ربح تحنث به (فعل البر ابتغاء التخفف من الإثم) أو بعامته ، ويريد بذلك البركة فى المال وتأليف قلوب عشيرته .

وكان ورقة بن نوفل عاكفا على التوراة والإنجيل يقرأ فيهما وينقل منهما وينقب فى ثناياهما عن النبى الأمى الذى فاضت بشارات الأنبياء به ، والذى أكد الرهبان والكهان والمنجمون أن زمانه قد أظل الأرض .

إنه يتحرق شوقا إلى ذلك النبى ، وإنه إنما دخل فى دين النصرانية انتظارا لبزوغ الدين القيم من مكة ، فقد قيل له أن النبى المنتظر من ذرية إبراهيم وإسماعيل وأنه من عند الحرم يبعث .

إنه وعبد الله بن جحش وزيد بن عمرو بن نفيل قد تركوا عبادة

الأوثان ، وقد تنصر هو وعبد الله بينا راح زيد بن عمرو يبحث عن الحنيفية دين إبراهيم ، وإن كانوا جميعا يترقبون أن يشرق نور النبى الذى فاضت صوامع الرهبان وبيع المتعبدين بذكره .

إن ورقة بن نوفل الأسدى القرشى قد هجر الدنيا ومباهجها وكرس حياته للعبادة وترقب ذلك الحدث الجليل الذى ملأ وجدانه واستولى على كل مشاعره ، فهو يرجو أن يظهر رسول الله ليؤيده وينصره نصرا مؤزرا ، ولقد قال أشعارا فى هجر الدنيا وسارت بها الركبان وأنشدها رواة الشعر فى حلقات السمر :

رحلت قُتَيْلة عيرها قبل الضحى
وإخال أن شحطت بجارتك النوى

أو كلما رحلت قتيلة غُدْوةً
وغدت مُفارقة لأرضهمُ بكى

ولقد ركبت على السفينة مُلجحا(١)
أذرُ الصديق وأنتحى دار العِدى

ولقد دخلت البيت يُخشى أهلهُ
بعد الهدوء وبعدما سقط الندى

فوجدت فيه طفلة قد زينت
بالحَلْيِ تحسبه بها جمر الغضا(٢)

فنعمت بالا إذ أتيتُ فراشها
وسقطت منها حين جئتُ على هدى

---

(١) على جانب منها .

(٢) أحسن الحطب نارا وأزهره .

فبتلك لذات الشباب قضيتُها
عنِّى فسائل بعضهم ماذا قضى
قدح الذباب[1] فليس يورى قدحُه
لا حاجة قضَّى ولا مالا نما
فارفع ضعيفك لا يحُل بك ضعفه
يوما فتدركه العواقبُ قد نما
يجزيك أو يثنى عليك وإن من
أثنى عليكَ بما فعلت كمن جَزَى

كان ورقة شاعرا رقيقا وكانت المجالس ترحب به وتزهو وتزدهر لو أنه كان من الشعراء الذين يهرعون إلى حلقات السمر ، ولكنه آثر الاعتكاف والتعبد والتحنث وانتظار إشراق نور النبوة .

وأغلق ورقة الكتب التى يقرأ فيها ونهض فارتدى أفخر ثيابه وانطلق إلى بيت ابنة عمه خديجة الطاهرة .

وكان عدى بن نوفل بن أسد فى دار أمه أمية بنت جابر بن سفيان ، وكان خاله ثابت بن جابر هناك وقد عرف خاله بتأبط شرا ، ففى ذات يوم تأبط ثابت سيفا وخرج فقيل لأمه : أين هو ؟ فقالت : لا أدرى تأبط شرا ، واشتهر بأنه من عدائى العرب ، وأنه إذا جاع نظر إلى الظباء فينتقى على نظره أسمنها ، ثم يجرى خلفه فلا يفوته حتى يأخذه .

وكان تأبط شرا يروى مغامراته فى كل مجلس ، فما إن جلس عدى ابن نوفل حتى راح خاله يقول :

---

(١) قدح الذباب لا يوقد نارا .

ـــ كنا ثلاثة ، أنا والشنفرى وعمرو بن برّاق ، ونحن أعدى العدائين فى العرب لا تلحقنا الخيل ، وكان بيننا وبين بجيلة ثارات ، فوجدنا بجيلة قد أقعدوا لنا الماء رصدا ، فلما ملنا فى جوف الليل قلت لصاحبى : « إن بالماء رصدا ، وإنى لأسمع وجيب قلوب القوم » . قالوا : « والله ما نسمع شيئا ولا هو إلا قلبك يَجِب » .

فوضعت يدى على قلبى وقلت : « والله ما يجب وما كان وجّابا » . قالوا « فلا والله ما لنا بد من ورود الماء » .

فخرج الشنفرى ، فلما رآه الرصد عرفوه فتركوه فشرب ثم رجع إلينا ، فقال : « والله ما بالماء أحد لقد شربت من الحوض » . فقلت : « بلى لا يريدونك ولكن يريدوننى » . ثم ذهب ابن براق فشرب ورجع فلم يعرضوا له ، فقال : « ليس بالماء أحد » فقلت : « بلى لا يريدونك ولكن يريدوننى » .

ثم قلت للشنفرى : « إذا أنا كرعت فى الحوض فإن القوم سيشدون على فيأسرونى ، فاذهب كأنك تهرب ثم ارجع فاستتر فى أصل ذلك الجبل ، فإذا سمعتنى أقول : خذوا خذوا ، فتعال فأطلقنى .

وقلت لابن براق : « إنى سآمرك أن تستأسر للقوم فلا تبعد منهم ولا تمكنهم من نفسك » . ثم أقبلت حتى وردت الماء فلما كرعت فى الحوض شدوا على فأخذونى وكتفونى بوتر ، وطار الشنفرى فأتى حيث أمرته وانحاز ابن براق حيث يرونه . فقلت : « يا بجيلة هل لكم فى خير ! هل لكم أن تياسروا لنا فى الفداء ويستأثر لكم ابن براق ؟ » . فقالوا : « نعم » فقلت لابن براق : « ويلك يا ابن براق ، إن الشنفرى قد طار

وهو يصطلي نار بني فلان ، وقد علمت ما بيننا وبين أهلك فهل لك أن تستأسر ويياسروننا فى الفداء ؟ » .

فقال : « أما والله حتى أجرب نفسى شوطا أو شوطين » . فجعل يعدو فى سفح الجبل ثم يرجع ، حتى إذا رأوا أنه قد أعيا وطمعوا فيه اتبعوه .

وناديت : « خذوا خذوا » فذهبوا يسعون فى أثره يطمعهم ويبعد عنهم ، ورجع إلى الشنفرى فقطع وثاقى فلما رآنى ابن براق قد قطع عنى انطلق وكروا إلى فإذا أنا قائم ، فقلت : أعجبكم يا معشر بجيلة عدو ابن براق ؟ أما والله لأعدون لكم عدوا أنسيكموه .

ثم انطلقت أنا والشنفرى نسابق الريح .

كانت العداوة ناشبة بين قبائل العرب وكان القتال يثور لأتفه الأسباب ، وكانت السيوف تسل لكلمة فخر أو لكلمة هجاء ، وما أيسر أن تزهق روح فى مشادة بين سفيهين من سفهاء الأسرات فتقوم سلسلة لا نهاية لها من الثارات والخصومات وسفك الدماء .

وكان الشعراء ورواة الأخبار يؤججون نار العداوة والبغضاء بين القبائل يثيرون النخوة فى النفوس فتنطلق أصوات من الحناجر « يا لثارات فلان » وتسل السيوف من أغمادها لتهوى على أى برىء من أسرة العدو فى غدر وغفلة .

وراح تأبط شرا يروى مغامراته نثرا ونظما وعدى بن نوفل يصغى إلى خاله وهو معجب بحديثه لا يدرى ما إذا كان ما يرويه قد وقع حقا أو من وحى خياله ، وما كان يهمه أن يكون الحديث صدقا فقد كان يكفيه ما فيه من طلاوة وسحر ، وظل تأبط شرا ينتقل من حديث إلى حديث

حتى راح يصف الغول ويذكر أنه راودها عن نفسها فامتنعت عليه فقتلها ، وقال :

فأصبحت والغول لى جـارة ... فيـا جـارة أنت مـا أغـولا
وطالـبتها بضعهـا فالتـوت ... فكـان مـن الـرأى أن تقتـلا
فجلـلتها مرهفـا صارمـا ... أبـان المرافـق والمفصلا
فطار بقحف[1] ابنـة الجن ذو ... شقـاشق قـد أطلـق المحمـلا
فمـن يك يسأل عـن جـارتى ... فـإن لها باللـوى منـزلا
وغطـاه أرض لها حلتـا ... ن مـن ورق الطلـح لم تغـزلا
وكنت إذا ما هممت اهتبلت[2] ... وأحـرى إذا قـلت أن أفعـلا

ونهض عدى بن نوفل مستأذنا ، إنه كان مأخوذا بخاله معجبا به ، ولولا أنه كان منطلقا إلى دار خديجة بنت عمه لسره أن يلقى سمعه إلى خاله يروى ظمأه إلى الشعر وأيام العرب .

ودخل عدى دار خديجة فإذا بسادات بنى أسد بن عبد العزى جالسين ، خويلد وإلى جواره أخوه عمرو عم خديجة ، وورقة بن نوفل وحكيم بن حزام بن خويلد والأسود بن المطلب بن أسد ، وكان القيان يضربن على الدفوف فقد انتهت أيام خديجة مع عتيق بن عابد بعد أن ولدت له بنتا أسمتها هندا ، وأنها ستتزوج اليوم سيدا من سادات قومها هو هند وستلد له ولدا وستسميه هالة إكراما لأختها هالة وسيعرف زوجها بأبى هالة ، ثم تلد له ولدا آخر اسمه هند وسيشتهر هند بن هند ويرتفع

(١) القحف : أعلى الدماغ .
(٢) أصل ما أريد .

ذكره لا لأنه ابن هند ، بل لأنه سينتسب إلى من ستعلو به عدنان بل إلى من سيشرف به العرب جميعا .

وأقبل العوام بن خويلد ومعه بعض سادات بنى عبد المطلب ، فهو زوج صفية بنت عبد المطلب ، وهو الذى شد الأواصر بين بنى أسد وبين بنى هاشم ، بل بين بنى خويلد بن أسد وبين بنى عبد المطلب بن هاشم . وهرع الموجودون إلى العوام يهنئونه بمولد ابنه الزبير بن العوام .

وقام أبو هند وألقى كلمة ذكر فيها فضل قومه ، ثم قام خويلد وراح يعدد مناقب بنى أسد ، وما انتهى الرجلان من إلقاء خطبتهما حتى تم زواج خديجة بنت خويلد من هند ، بينا كان الفتى الذى سيعلو به ذكر هؤلاء جميعا فى أحضان الطبيعة يسمو بروحه إلى ما فوق الكون ليتصل بذات الذوات ، حتى يوحى إليه بما فيه خير قومه ، بل بما فيه خير البشرية فى الدنيا وفى الآخرة .

— ١٨ —

جاءت الأشهر الحرم فتأهب الناس للخروج إلى الأسواق ، وكانوا ينطلقون إلى سوق مجنة فسوق ذى المجاز فموسم الحج الأكبر ، ولكن فى هذه السنة ظهرت سوق جديدة بينها وبين الطائف ليلة وبينها وبين مكة ثلاث ليال ، وراء قرن المنازل بمرحلة على طريق صنعاء . وكانت هذه السوق يُعرض فيها فى أول الأمر الأشياء المسروقة ، ثم اجتمع الناس فيها وتعاكظوا (تفاخروا) فسميت عكاظ ، وعلا ذكرها فراح بنو هاشم وبنو أمية وبنو المغيرة وبنو تيم وكل قبائل قريش يتأهبون ليفدوا إليها آمنين

يمنون النفس بأرباح وفيرة من التجارة ، فمن يريد الميرة أصبح يذهب إليها ، ومن فقد شيئا التمسه فيها لعله يجده فى سلعها ، ومن أراد أن يخطب أو ينشد ذهب إليها ليذهب الشعر فى الناس .

وتجهز بنو هاشم ثم امتطوا رواحلهم ، وكان محمد بن عبد الله فى رفقة أعمامه . إنه ذهب مع عمه الزبير إلى اليمن ومر بذلك السهل الواسع الذى انتشرت فيه أحجار كبيرة بيضاء من المرمر عرفت بالعُبيلات ، إلا أن ذلك كان قبل أن تصبح تلك الأرض الواسعة المطمئنة أشهر سوق من أسواق العرب .

وخرج عتيق (أبو بكر) مع بنى تيم إلى عكاظ وكان سعيدا غاية السعادة ، فسيلتقى فى عكاظ وفى مجنة وفى ذى المجاز وفى موسم الحج بصديقه محمد . وإن أسعد أيام حياته لتلك التى يمضيها فى رفقة صاحبه الذى كان يزداد إعجابا به على مر الأيام .

وانطلقت قافلة قريش فى معبد الله ومحمد يرى فى كل ما يوجه إليه بصره إرادة الله الحرة ، فيتهلل بالفرح بالحكمة التى كانت تنسكب فى روحه من فوق السموات ، حتى بات يحس أن شهيقه إن هو إلا مجد الله ، وأن الحياة التى تسرى فى الوجود إن هى إلا خفق قلب رحيم ، وأن شيئا آسرا ساحرا يجذبه إلى الجوهر الأسمى وينزعه من ذاته ويحفزه إلى تجاوز الطبيعة ويهيب به أن يتحد بالعالم وأن يستجيب للنداءات التى توصيه بأن يستمسك بمكارم الأخلاق .

كان الفضاء ممتدا أمامه ولكن نفسه كانت أكثر اتساعا من تلك البيداء التى تضرب فيها قوافل قريش ، إنه يحس حرية طاغية ولكنها لم تكن حرية مطلقة بل حرية واصلة توسع آفاق الروح المجنحة وتوهن

رغبات الجسد أو تكبح جماحها .

وقويت بصيرته حتى صار يرى بنور الله ، وانداحت موجات تفكيره حتى وسعت الوجود وما وراء الوجود ، وإن ذاته التى تتدبر وتتروى وتتأمل فى تدريب شاق مستمر ، وفى نزوع إلى غاية ليس بعدها غاية ، وإن هى تترقى كل يوم بل كل ساعة وكل لحظة لتبلغ أسمى ما تبلغه روح بشرية ، ألا هو الاتصال بالجوهر الأسمى وتلقى أوامر السماء لتبيلغها إلى أهل الأرض .

وانقضت ليلة وقافلة قريش فى طريقها إلى عكاظ ، وانقضت الليلة الثانية وأدبرت الليلة الثالثة وقد أشرفت القافلة على سهل واسع به أحجار كبيرة من المرمر والرخام ، ومحمد يجاهد ليلحق نفسه الذكية بنفسه وبالوحى الذى بات يحس أنه ينزل بصدره وينير جوانحه بنور اليقين ، وباتصال روحه بذات الذوات .

ونزلت قافلة قريش برجالها وشبابها وعبيدها وتجارتها بالقرب من العُبيلات ، وراح محمد يتلفت فقد كانت أول مرة يفد فيها إلى عكاظ ، فرأى أرضا واسعة مطمئنة كانت مجتمع مياه السيل ، وإلى الشرق حرة كبيرة عالية ، فذهب إليها فإذا بها مشرفة على سهل واسع ، وإذا بأحجار بيضاء من المرمر عرفت بالعبيلات ، وإذا ببعض الرجال يطيفون بالعبيلات البيض وينحرون عندها .

ورمى ببصره شطر الجنوب فإذا جبل بعيد ينتهى إليه النظر ، إنه هضبة جلدان . وإلى الغرب والشمال من هذا الجبل البعيد أكمة بيضاء من رخام هى العُبيلا ، وإلى الشمال والغرب جبيل أدكن هو العرفا ، وطمح البصر إلى جبال بعيدة هى جبال عسير .

ويأتى من الجنوب والغرب وادى يشرب وتلتقى به أودية منها وادى الأخيضر به نخل لقبيلة عدوان ؛ إنها سوق لقيس عيلان وثقيف ، وقد جاء إليها الناس من مكة ومن الطائف ومن نجد ومن اليمن فقد كانت فى طريق أهل اليمن ونجد إلى مكة .

وهبط محمد من فوق الحرة وراح يجوس خلال السوق فألفى النابغة الذبيانى وقد ضربت له قبة من أدم ، واجتمع إليه الناس يصغون إلى ما يقول من الأشعار . وكان محمد يكره الشعر ويمقت ذلك الطواف الذى يمارسه الناس حول العبيلات ، وما كانت غير مرمر أبيض .

ونصبت هوازن صنما لها فى السوق كان يعرف بجُهار ، فراح الناس يطيفون به ويتمسحون به وينحرون عنده ويحلقون رءوسهم ، فضاق محمد بما يفعل قومه وذهب بعيداً ليناجى السماء تلك المناجاة الصامتة التى كانت أحر وأصفى من أى صلاة .

إنه بات لا يستشعر راحة نفسية إلا إذا ألقى بنفسه فى أحضان الطبيعة لترفعه إلى ما وراءها ، إلى الخير الأسمى وفيض النور . وإنه مذ تلك الليلة التى خرج فيها مع قومه فى عيد من أعيادهم إلى حيث تقام الأصنام ، ودنا من صنم بوانة فخيل إليه أن مارداً هائلا يحول بينه وبينه ، ثم جرى ليرتمى فى أحضان بركة الحبشية وهو يخشى أن يكون به مس من الشيطان ، إنه مذ تلك الليلة لم يدن من صنم ولم يحاول أن يمسه .

وإنه مذ خرج ليلتين متتاليتين ليسمر فى مكة كما يسمر الفتيان وعصمه الله بأن ألقى عليه النعاس لم يفكر قط فى السمر ، فحلقات السمر منتشرة فى كل مكان فى أرجاء عكاظ ، وأصوات الدفوف والمزامير وغناء القيان تسرى مع النسيم فى السهل الواسع، ولكن محمداً قد صم أذنيه

وفطم جوارحه عن كل لهو ، فهو غائب عن نفسه وعن كل ما حوله بالفيض الروحى الذى يغمره فيملأ عين وجود بالابتهاج .

وضربت خيمة لعامر بن الظرب العدوانى وكان من حكماء قيس لا تعدل العرب بفهمه فهما ولا بحكمه حكما ، ويتحاكمون إليه فى كل معضلة ، فما كان يغلظ فى حكمه ، وقد جاءه صعصعة بن معاوية يخطب إليه ابنته فقال :

ـــ يا صعصعة إنك جئت تشترى منى كبدى ، وأرحم ولدى عندى ، منعتك أو بعتك ، النكاح خير من الأيمة ، والحسيب كفء الحسيب ، والزوج الصالح يعد أبا ، قد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك .

ثم أقبل على قومه ، فقال :

ـــ يا معشر عدوان أخرجت من بين أظهركم كريمتكم على غير رغبة عنكم ، ولكنه من خُطَّ له شيء جاءه ، رب زارع لنفسه حاصد سواه . ولولا قسم الحظوظ على غير الجدود ما أدرك الآخر من الأول شيئا يعيش به ، ولكن الذى أرسل الحيا (المطر) أنبت المرعى ، ثم قسمه أكلا لكل فم بَقَلة ، ومن الماء جرعة . إنكم ترون ولا تعلمون ، لن يرى ما أصف لكم إلا كل ذى قلب واع ، ولكل شيء راع ، ولكل رزق ساع ، ما أكيس وما أحمق ! وما رأيت شيئا قط إلا سمعت حسه ، ووجدت مسه . وما رأيت موضوعا إلا مصنوعا ، وما رأيت جائيا إلا داعيا ، ولا غانما إلا خائبا ، ولا نعمة إلا ومعها بؤس ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء ، فهل لكم فى العلم العليم ؟!

ـــ ما هو قد فات فأصبت ، وأخبرت فصدقت ؟

ـــ أرى أمورا شتى وشيئا شيا ، حتى يرجع الميت حيا ، ويعود

اللاشيء شيا ، ولذلك خلقت الأرض والسماء .

فتولوا عنه راجعين فقال :

— ويْلمُهّا نصيحة لو كان من يقبلها .

لم يكن كثير من الجاهليين يؤمنون بالبعث فكانوا يرون أن الموت نهاية وأنهم غير مبعوثين ، وأن البعث بعد الموت أمر لا يصدق فكانوا يقولون لكل من يقول بالبعث : إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين . وأنكر البعث أقوام من كل قبيلة ، بل إن أناسا من قريش أنكروا الآخرة والربوبية ، أخذو زندقتهم هذه من الحيرة . وإن كانوا يقدمون القرابين للأصنام ويهدون إليها فإنهم لا يرجون ثوابا فى الآخرة بل لتمن عليهم بالنعم والخيرات فى هذه الحياة الدنيا .

وكانت فئة قليلة من الجاهليين يؤمن بالبعث وبالحشر بالأجساد بعد الموت ، فإذا ما مات أحد منهم عقروا ناقة أو جملا أو بقرة أو شاة عند قبره ، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعا أو عطشا ، أو يحفر لها أو تترك فيها حتى تبلى ، فقد كانوا يعتقدون أن الناس ركبانا على البلايا ، وأن من لا بلية له يحشر ماشيا .

وكان فى السوق غيلان بن سلمة الثقفى وهو من حكماء قيس ، وكان عنده حرب بن أمية وأبو سفيان بن حرب فالصداقة بينه وبين بنى أمية كانت وثيقة ، وكثيراً ما اشترك غيلان فى تجارة بنى أمية . وكانت له ثلاثة أيام : يوم يحكم بين الناس ، ويوم ينشد فيه شعره ، ويوم ينظر فيه إلى جماله فقد كان جميلا آية فى الحسن وكان يسره أن يطيل النظر إلى جماله فى المرآة . وكانت عنده عشر نسوة غير الإماء ، فقد كان العربى يتزوج بلا حدود ولا قيود يأخذ من النساء ما يشاء ما دام قادراً على أن

يطعمهن ويقوم بنفقتهن .

والتقى محمد بصديقه عتيق (أبو بكر) فذهبا فى السوق ، أبو بكر يصغى إلى الأنساب وحكماء العرب من تميميين وعدوانيين وقرشيين ويهتم بالديات ، ومحمد يرصد فعال قومه ويقيسها على ما كان ينبغى أن تكون عليه ، وإذا بقيس بن ساعدة الأيادى يقبل على جمل أورق فيهرع الناس إليه ، فقس تضرب بحكمته الأمثال ، أيقن بالبعث والحساب وسلم بالقضاء وذكر النشور ووعظ دائبا وخوّف الدهر وشوّق إلى الحنيفية .

وألقى محمد سمعه إلى قس ، وراح أبو بكر يرنو إليه فى انتباه ، وقال قس بن ساعدة :

ــ يأيها الناس ، اجتمعوا واستمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا . مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تغور . وأقسم قس قسما حقا ، لئن كان فى الأمر رضى ليكونن بعده سخط . إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه . ما لى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون . أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟

وانفض الناس من حوله وبعضهم يروى شعره :

فى الذاهبين الأوليـــن من القرون لنا بصائر
لما رأيت مــــواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوهـــا يمضى الأصاغر والأكابر
لا من مضى يأتى إليـــك ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا لة حيث صار القوم صائر

ودار الحديث حول قس فقال قائل من إياد ، إن قساً وقف ذات يوم يعظهم فقال :

ــ أما بعد ، فيا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد ، وأين العليل والعواد ؟ كل له معاد . يقسم قس برب العباد ، وساطح المهاد ، لتحشرن على الانفراد ، فى يوم التناد ، إذا نفخ فى الصور[1] ، ونقر فى الناقور ، وأشرقت الأرض ووعظ الواعظ ، فانتبذ وأبصر الملاحظ ، فويل لمن صرف عن الحق الأشهر ، والنور الأزهر ، والعرض الأكبر ، فى يوم الفصل ، وميزان العدل ، إذا حكم القدير ، وشهد النذير ، وبعد النصير ، وظهر التقصير ، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير .

وفى ناحية من السوق كان راوية ويروى شعر قس :

ذكر القلب من جواه ادكار   وليال خلالهن نهار

وسجال هواطل من غمام   ثرن ماء وفى جواهن نار

ضوءها يطمس العيون وأرعا   د شداد فى الخافقين تطار

وقصور مشيدة حوت الخـ   ـير وأخرى خلت بهن قفار

وجبال شوامخ راسيات   وبحار مياههن غزار

ونجوم تلوح فى ظلم الليـ   ـل نراها فى كل يوم تدار

ثم شمس يحثها قمر الليـ   ـل وكل متابع موّار

وصغير وأشمط وكبير   كلهم فى الصعيد يوما مزار

وكبير مما يقصر عنه   حدسة الخاطر الذى لا يحار

---

(١) انظر التذييل .

فالذى قد ذكرت دل على اللـ ... ـه نفوسا لها هـدًى واعتبـار

وقام الشعراء فى السوق يتفاخرون ليذهب صيتهم فى الناس ، وكان بدر بن مَعْشر أحد بنى غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وهو أبو أبى ذر الغفارى ، جعل له مجلس بسوق عكاظ ، وكان حدثا منيعا فى نفسه ، فقام فى المجلس وقام على رأسه قائم وأنشأ يقول :

نحن بنـو مُدركـة بـن خِنْـدف
مـن يَطعنـوا فى عَينـه لم تطْـرف
ومـن يكونـوا قومـه يُغَطْـرف[١]
كـأنهم لجة بحر مُسدف[٢]

ومد رجله وقال :

ـــ أنا أعز العرب ، فمن زعم أنه أعز منى فليضربها .

فجاء الأحَيمر بن مازن ، أحدُ بنى دُهمان بن نصر بن معاوية وضربها بسيفه ضربة يسيرة شجت الجلد قليلا وقال :

خذهـا إلـيك أيها المُخنـدف
نحن بنـى دُهمان ذو التغطـرُف
بحر لبحـر زاخـر لم ينـزف
نبنـى على الأحيـاء بالمُعـرَّف

وثارت كنانة لبدر ، وثارت هوازن القبيلة التى استرضع فيها محمد للأحيمر ، وكادت الحرب أن تنشب فى الأشهر الحرم بين الحيين ،

(١) يختال فى مشيته تكبرا .

(٢) مظلم .

وتحاور الرجال حتى كاد أن يكون بينهما الدماء ، ثم تراجعوا ورأوا أن الخطب يسير ، وكان دم الغفارى هو أول دم سال فى عكاظ فى الشهر الحرام ، فكان ذلك أول يوم من أيام الفِجار .

وانتهت أيام عكاظ فرحلت القبائل إلى سوق مجنة ، وقد حسب الشعراء أن شعرهم سيرفع ذكرهم على مر الأيام ، وظن زعماء القبائل أن المناوشات التى تدور بين أحياء العرب والتى عرفت بأيام العرب ستخلد أعمالهم ، وما دار بخلد أحدهم أن محمد بن عبد الله ذلك الفتى الذى يبدو هادئا ساكنا ، والذى يسير إلى جوار صديقه عتيق (أبو بكر) هو الذى سيكتب تاريخهم ويحفر أسماءهم على جبين الزمن بأحرف من نور .

— ١٩ —

دبت الحياة فى بيت أبى طالب ، وقامت فاطمة تجهز الطعام لزوجها وأبنائها وللفتى محمد الذى كان أول من غادر فراشه وذهب إلى النافذة يرقب الأفق الشرقى فى الفجر ، لتبتهج نفسه بتأمل مولد النهار .

كان فى تطور روحى مستمر ، وكان الكون النابض بروح الله هو المنهل العذب الذى ترده روحه لتعب منه فى نهم واشتياق . وإنه يحس عطشا إلى المعرفة على الدوام ، فكانت الأواصر تشتد بينه وبين الوجود وروح الوجود على مر الأيام ، وكان البعد الذى بينه وبين الخير الأسمى يطوى مع الزمن ، فهو يسير فى طريق الحقيقة الخالدة ويدنو من الإشراق . إنه يرى أن غايته وراء هذه الطبيعة وفوق الكون : فهذا

الوجود لا يمكن أن يكون مبدع نفسه ومنظم نفسه . والأصنام التى فى جوف الكعبة ومن حولها إن هى إلا حجارة نحتتها يد البشر فكيف يسجد لها إنسان ؟ إن الأمر ليس فيه التباس ولا اشتباه ولا غموض ولا شك : بل يقين ما بعده يقين ، وتوازن وانسجام وتوافق مع مبدع الكون ومنظم الحياة ، مع الحقيقة الأزلية الأبدية ، مع الإرادة الخيرة المتعالية التى أصبح يحسها فى أعماق وجوده : مع الله .

ووضع الطعام فخف إليه بنو أبى طالب ينتهبون . بينا ذهب أبو طالب إلى محمد يقدم إليه طعامه فقد اهتدى أبو طالب إلى أن محمدا إذا ما جلس مع أبناء عمه على طعام لا ينتهب كما ينتهبون ، ويمنعه حياؤه ورقته بل ورحمته من أن يمد يده إلى ما تمتد إليه أيد قلما تشبع من طعام ، فكان أبو طالب يفرد له طعاما وما كان محمد يأتى عليه على الرغم من قلته ، فامتلاء المعدة يهيض جناح روحه بينا كانت سعادته فى أن تحلق روحه إلى ما فوق السموات ، لتقتبس نور الهداية من نور النور .

كان أبو طالب كثير العيال وكانت دكان العطارة لا تسد حاجات الأسرة التى يزيد عددها على مر السنين ، وكانت رفادة حجاج بيت الله وسقايتهم عبئا ثقيلا ينوء به الرجل الذى ورث ذلك الشرف عن أبيه ، وإن الأرباح التى جناها من رحلة الشام قد ذابت جميعها فى موسم الحج بل لقد اقترض من أخيه العباس مبلغا ليس باليسير لينفق منه على إطعام فقراء الحجاج وسقايتهم ، فالرفادة والسقاية شرف يهون فى سبيله كل مال .

بعث العباس بضاعته المتواضعة مع أخيه إلى الشام وقد حققت له أرباحا مكنته من أن يزيد فى تجارته التى بعث بها إلى سوق عكاظ وسوق

مجنة وذى مجاز . ولما لم يكن العباس رب أسرة كبيرة كأخيه أبى طالب فقد ربا له ماله واستطاع أن يقرض أخاه وإن كان على ثقة من أن أبا طالب لن يستطيع أن يردّ ما اقترض فهو يطمح فى أن تئول إليه السقاية والرفادة وإن كان من أحدث أبناء عبد المطلب سنا ، فذلك الشرف يستأهل أن يترك لأخيه كل ما اقترضه وكل ما سيقترضه من الأموال ، فإنها لأمنية عزيزة وشرف ما بعده شرف أن يتنازل له أخوه المعسر عن الرفادة والسقاية لقاء أن يتنازل له عن دَينه .

وكان محمد يحس إملاق أبى طالب فكان يرعى غنم أهله بقراريط وكان ينطلق إلى الأسواق فى المواسم مع أعمامه ليكسب قوته بجهده ، فما كان يرضى أن يكون عالة على أحد من أعمامه ، فكل ما ورثه عن أبيه جاريته الحبشية وبعض غنمات لا تغنى ولا تسمن من جوع .

كانت دور بنى هاشم متقاربة ، فدار الزبير عمه قريبة من دار أبى طالب ، وبيت عبد المطلب الكبير الذى ينزل فيه أعمامه حمزة والمقدّم وضرار ، ودار أبى لهب إلى جوار دور بنى عبد المطلب ، ولم تكن دور عماته بعيدة عن الحى فدار صفية زوجة العوام بن خويلد ، ودار أم حكيم البيضاء توأم أبيه عبد الله ، ودار ابنتها أروى بنت كريز التى تزوجت عفان بن أبى العاص بن أمية وولدت له عثمان بن عفان ، ودار عاتكة وأروى وأميمة وبرة كلها دور تطل على الحرم ، وهو يستطيع أن يدور عليها لو شاء ليجد الترحيب به والمبالغة فى تكريمه ، ولكنه كان يؤثر أن يفر بنفسه من أسر أسرته لينطلق حرا طليقا فى الوجود الذى أصبح يستريح كلما ارتمى فى أحضانه ، وأضحى بنشرح له صدره كلما أحس

بتوافق بينه وبينه ، وأمسى يبتهج لما تهيم ذاته لتتصل بذات الذوات ، وبات يتهلل بالفرح لما يحس كأنما الحكمة تنسكب من فوق السموات فى صميم وجوده وعين ذاته وأعماق أعماقه .

كان فى بنى هاشم كثيرون فى مثل سنه ، وكان فى قريش فتيان ظرفاء ممن يحب من كان وحيدا مثله أن يألفهم ويألفونه ، ليفر من وحدته ويقضى على ألم الانطواء فى قوقعة ذاته ، ولكنه لم يكن يستريح لصحبتهم فهم يطلبون اللهو وما كان طالب لهو ، وهم يسجدون للأصنام دون تفكير لأنهم وجدوا آباءهم على ذلك وهو تأبى عليه كرامته الإنسانية أن يخر ساجدا لحجر ، وهم يمضون النهار وطرفا من الليل فى اللغو وهو يمر باللغو مر الكرام ، وهم يرون فى آبائهم وأمهاتهم كل آمالهم وهو ينعطف إلى الذى ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى ويستشعر بكل وجوده أن روح الأرواح تحنو عليه وترعاه وتؤتيه الحكمة وتعلمه ما لم يكن يعلم ، وأنه مفعم بروح الله .

كان يحب بركة جاريته الحبشية وكان يناديها بيا أماه ، وكان لا ينسى أن ثويبة جارية عمه أبى لهب قد أرضعته فكان يعطف عليها ويترفق بها ، وكان كلما رآها تذكر حليمة السعدية وإخوته الشيماء وأنيسة وعبد الله الذين أول ما تفتحت عيناه تفتحت عليهم وخفق قلبه الكبير بحبهم ، وكان يحب عمه الزبير فهو لا ينسى ما قالته له بركة من أن عمه الزبير كان يرقصه وهو طفل ويقول :

محمـــد بـــن عبـــد م	عشت بعـــيش أنعـــم
فى دولـــة ومغنـــم	دام سجـــيس[1] الأزلم

(١) الأزلم: الكريم من الإبل، والسجيس: بمعنى أبدا يريد دام له العيش الكريم.

وكان عمه أبو طالب فى سويداء قلبه ، أما زوجة عمه فاطمة فلا يدرى كيف يجازيها عن عطفها السابغ الذى غمرته به مذ ماتت آمنة وعوضته بحنانها عن حنان الأم الراحلة .

وكان عمه حمزة رفيق طفولته وصباه ولدا معا وترعرعا معا ، وكان ألمهما مشتركا لما مات عبد المطلب ، فقد ذاق حمزة مرارة أول يتم ، أما هو فقد تجرع فى صمت مرارة الألم للمرة الثانية ، فيتمه بعد عبد المطلب كان أقسى من يتمه بعد آمنة ، وقد جمع اليتم بين قلبيهما ؛ إنه يحب حمزة حب الشقيق للشقيق بل حب النفس لذاتها .

وكان عمه حجل يغدق عليه من ماله وعطفه كلما رآه ، فقد اشتهر حجل بكرمه حتى سمى الغيداق لإغداقه على قومه ، وهو يحب عمه وعماته وكل من اتصل بهم من قرشيين ومكيين وعبيد وإماء ، ولكن حبه للذات العلية التى صار يستشعرها فى صميم وجدانه يفوق كل حب أحس به لأهل الأرض .

إنه لو شاء أن يحيا حياة ناعمة راضية لوجد ذلك ميسورا ، فتيان قريش من هاشميين وأمويين ومخزوميين وتيميين وأسديين يمضون نهارهم يتسكعون فى الحرم يتمسحون بالأصنام ويطوفون بالكعبة ، ويدخلون إلى حيث كان هبل يرقبون الذين يستقسمون بالأزلام ، أو يسارعون إلى جفان الكرام الذين ينفقون الأموال ليذهب صيتهم فى القبائل ، أو يهرعون إلى حلقات المناقشات الدينية التى كانت تدور بين هواة التسكع الذهنى من حنفاء ومجوس ووثنيين ويهود ونصارى ، فإذا ما جن الليل انسلوا إلى السمار يمتعون العيون برقص الإماء ، ويشنفون الآذان بغناء القيان وشعر الشعراء .

كان عمه أبو طالب شاعرا من فحول شعراء قريش ، وكان عمه الزبير شاعرا مفلقا شديد العارضة قذع الهجاء ، وكانت دار أبي طالب موئل الشعراء فى الليل ، فلو شاء أن يسمر فما أيسر أن يسمر فى نادى قومه ، ولو شاء أن يلهو لذهب مع أبى لهب وأبى سفيان ، ولكنه لم يخلق للسمر أو اللهو أو العبث بل خلق ليكون نورا يقتبس نوره من نور النور ليشعه على العالمين .

وغادر محمد دار أبى طالب وانحدر إلى الحرم ، فإذا بسادات قريش قد أتوا بأبنائهم ليطوفوا بالبيت ثم ينطلق من ينطلق إلى دار الندوة ، ويذهب من يذهب إلى الأسواق ، ويجلس من شاء أن يجلس فى ظل الكعبة يبرم العقود ويوثق المواثيق ويعقد الصفقات التجارية .

كان أبو بكر فى رفقة أبيه أبى قحافة ، وكان خالد فى رفقة الوليد بن المغيرة ، وعثمان مع أبيه عفان بن أبى العاص ، وعمرو مع العاص بن وائل ، وصبيان قريش وفتيانها مع الآباء أو العبيد أو الأصدقاء ، وما طمع أحدهم فى أكثر من حياة مترعة بالمتعة ، وما خطر لهم على قلب أن يتجاوز صيتهم حدود مكة ، وكانت أقصى أمانيهم أن يأتى ذلك اليوم الذى يستقبلهم فيه البلاط الفارسى أو البلاط الرومانى فى القسطنطينية أو قصر الخورنق بالحيرة ، ولم يطف بأذهانهم أن أسماءهم ستخلد فى تاريخ البشرية بفضل ابن عبد الله الذى يسير فى الحرم هونا متواضعا لتلك القوة العلية التى صار يوقرها كل التوقير ، فقد كان ذلك بعيدا عن كل تصور ، وما كانت تتطال إليه الأحلام .

كان الناس يطوفون بأول بيت وضع للناس ولكنهم لم يكونوا على ملة واحدة ولا على قلب رجل واحد ، فمنهم من أنكروا الخالق والبعث

وقالوا : ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، ومنهم من أقروا بالخالق وابتداء الخلق وأنكروا البعث ، ومنهم من أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله فى الدار الآخرة وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر وأحلوا وحرموا ، ومنهم من يعتقدون التناسخ فيقولون إذا مات الإنسان أو قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته فانتصب طيرا « هامة » فيرجع إلى رأس القبر كل مائة سنة .

ومنهم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوة ، ومنهم من كان يعبد النار ويحسب أنه على دين زرادشت ، ومنهم من اعتنق اليهودية ، ومنهم من كان على دين النصرانية ، وقد قالت امرأة تنهى ابنها عن الظلم فى الحرم :

أبنىّ لا تظلم بمكة لا الصغير ولا الكبير
أبنىّ من يظلم بمكة يلق أطراف الشرور
أبنىّ قد جربتها فوجدت ظالمها يبور
أبنىّ ا أمّن طيرها والوحش يأمن فى ثبير

وما دروا أنهم أنفسهم يظلمون .

وطاف محمد بالبيت وإن كانت فى نفسه كراهية للأصنام التى حولها ، وما أتم طوافه حتى غادر المسجد إلى أعالى مكة ، إلى الصحراء المترامية ، حيث الحرية الراشدة والحياة الروحية الحقة التى تنتصر فيها الروح على الجسد ، وتندمج فى الخير الأسمى ، فى القوة الإلٰهية نفسها .

إنه يتعاطف مع الوجود والموجود ، وينجذب إلى الكون ورب الكون ، ويحب العالمين ورب العالمين ، مفضلا العزلة على الإندماج فى

مجتمعه ، لا لأن الجحيم هو الغير ولا لينفصل انفصالا مطلقا عن دنيا الناس طلبا للسلامة وراحة البال ، بل ليستمد من الحق أفكارا جديدة وعواطف خيرة ومعتقدات سليمة ومبادىء رشيدة تخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وترتفع بالبشرية إلى ذروة العزة والكرامة والإنسانية .

إنه يفر من المجتمع لخير المجتمع ، وإنه وإن ذهب إلى البيداء ليتأمل ويفكر ويتدبر بعيدا عن الجماعة فهو فى قلب الجماعة ، فما لاذ بالقوة العلية ملتمسا الخير لنفسه وحده ، بل طلبا للحكمة التى سيسبغها على قومه وعلى العالم أجمع ، ومن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .

كان الإخلاص فى النية يملأ قلبه ، والتجرد من الغرض الدنيوى سمته ، لا يرغب إلا فى الخير ولا يطمح إلا إليه ، فسمت روحه وارتفعت واتصلت بروح الوجود ، فلم يعد الله عالما غامضا بل حقيقة حية تعيش فى ضميره ويراها ببصيرته ، وتدنو منه وتغمره بالبركات كلما خر ساجدا وباكيا .

— ٢٠ —

اجتمع الناس يتسامرون فى الدور وحول الحرم ينشدون الشعر ويروون ما وصل إليهم من كتاب كليلة ودمنة ، أو يحاكون قصصه ويتسلون بالأحاجى ، أو يقصون قصص ملوك فارس وما جرى بين شعرائهم وساداتهم وبين النعمان بن المنذر ملك الحيرة ؛ ومن ذهب إلى قصور ملوك الغساسنة كان يروى ما بهره فى تلك القصور من قيان وغناء

وخمور وحضارة تضاهى حضارة الروم ، أما الذين لم يسعدهم الحظ بالسياحة فى الأرض فقد كانوا يقصون قصصا تدور حول الوقائع الحربية التى وقعت بين القبائل والتى عرفت بأيام العرب .

كانت حلقة من السمار تصغى إلى قصص الحيوانات والأحاجى ، قال قائل :

— ذهبت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين ، وذهب الغراب يتعلم مشية القطاة فلم يتعلمها ونسى مشيته فلذلك صار يحجل ، وأن الضفدع كان بلا ذنب لأن الضب سلبه إياه .

وقال آخر :

— إن الهدهد لما ماتت أمه أراد أن يبرها فجعلها على رأسه يطلب موضعا فبقيت فى رأسه ، فالقُنْزَعة التى فى رأسه هى قبرها وإنما أنتنت ريحها لذلك .

— الهَدِيل فرخ كان على عهد نوح فصاده جارح ، فما من حمامة إلا وهى تبكيه .

— إن امرأ القيس الى على نفسه ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنين ، فجعل يخطب النساء فإذا سألهن عن هذا قلن له أربعة عشر ، فبينما هو يسير فإذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمه ، فأعجبته فقال لها : يا جارية ! ما ثمانية وأربعة واثنان ؟ فقالت : أما ثمانية فأطباء الكلبة ، وأما أربعة فأخلاف الناقة ، وأما اثنان فثديا المرأة . فخطبها من أبيها .

وراح رجل فى حلقة أخرى يروى ما جرى فى حرب البسوس قال :

— كان كليب بن ربيعة سيدا على معد ، وقد اجتمعت عليه معد

كلها وجعلوا له قَسم الملك وتاجه وتحيته وطاعته بعد أن قضى على جموع اليمن وهزمهم ، ثم دخله زهو شديد وبغى على قومه لما هو فيه من عزة وانقياد معد له ، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حِماه ، ويجير على الدهر فلا تخفر ذمته ويقول : وحش أرض كذا فى جوارى فلا يهاج ، ولا تورد إبل واحد مع إبله ، ولا توقد نار مع ناره ، حتى قال العرب : أعز عن كليب وائل .

وكان بنو جُشم وبنو شَيبان فى دار واحدة بتهامة ، وكان كليب بن وائل قد تزوج جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان وأخوها جسَّاس بن مرة .

وكانت البسوس بنت منقذ التميمية خالة جسَّاس بن مرة ، وكانت نازلة فى بنى شيبان مجاورة لجساس ، وكانت لها ناقة يقال لها سراب ، فمرت إبل الكليب بسراب ناقة البسوس وهى مَعقولة بفناء بيتها فى جوار جساس بن مرة . فلما رأت سراب الإبل نازعت عِقالها حتى قطعته وتبعت الإبل واختلطت بها حتى انتهت إلى كليب وهو على الحوض معه قوس وكنانة ، فلما رآها أنكرها فانتزع لها سهما فخرم ضلعها ، فنفرت الناقة وهى ترغو .

فلما رأتها البسوس قذفت خمارها عن رأسها وصاحت :

— واذلاه ! واجاراه !

وخرجت فأحمشت جساسا فركب فرسا له عريانة ، وأخذ آلته وتبعه عمرو بن الحارث بن ذهل بن شيبان على فرسه ومعه رمحه ، حتى دخلا على كليب الحمى فقال له :

— يا أبا الماجدة ! عمدت إلى ناقة جارتى فعقرتها .

— أتراك مانعى أن أذب عن حماى ؟

فأحسنه الغضب فطعنه جساس فقصم صُلبه ، وطعنه عمرو بن الحارث من خلفه فقطع بطنه ، فوقع كليب وهو يفحص برجله وقال لجساس :

— أغثنى بشربة من ماء .

— هيهات تجاوزت شبيثا والأحص(١) .

فلما قتل كليب ارتحلت بنو شيبان حتى نزلوا بماء يقال له النِّهى . وتشمر المهلهل أخو كليب وهو عَدى بن ربيعة ، وإنما قيل له المهلهل لأنه أول من هلهل الشعر (أرقه) ، واستعد لحرب بكر . وترك النساء والغزل وحرم القمار والشراب وجمع إليه قومه فأرسل رجالا منهم إلى بنى شيبان يعذر إليهم فيما وقع من الأمر .

فأتوا مرة بن ذهل بن شيبان وهو فى نادى قومه فقالوا له :

— إنكم أتيتم عظيما بقتلكم كليبا بناب من الإبل ، فقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة ، وإنا كرهنا العجلة عليكم دون الإعذار إليكم ، ونحن نعرض عليهم خلالا أربعا لكم فيها مخرج ولنا مقنع .

فقال مرة :

— وما هى ؟

— تحيى لنا كليبا أو تدفع إلينا جساسا قاتلة فنقتله به ، أو هماما فإنه كفء له ، أو تمكننا من نفسك من فإن فيك وفاء من دمه .

— أما إحيائى كليبا فهذا ما لا يكون ، وأما جساس فإنه غلام طعن

---

(١) غديران بمنازل ربيعة بنجد . أى ليس هذا الوقت لجلب الماء .

طعنة على عجل ثم ركب فرسه فلا أدرى أى البلاد احتوى عليه ، وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان قومه ، فلن يُسلموه لى فأدفعه إليكم يقتل بجريرة غيره ، وأما أنا فهل هى إلا أن تجول الخيل جولة غدا فأكون أول قتيل بينها ، فما أتعجل من الموت ؟

ولكن لكم عندى خصلتان : أما أحدهما ، فهؤلاء بَنِىَّ الباقون فعلقوا فى عنق أيهم شئتم نسعه فانطلقوا به إلى رحالكم فاذبحوه ذبح الجذور ، وإلا فألف ناقة سوداء المُقل أقيم لكم بها كفيلا من بنى وائل .

فغضب القوم وقالوا :

ــ لقد أسأت ، ترذل[1] لنا ولدك ، وتسومنا اللبن من دم كليب .

ووقعت الحرب بينهم .

ولحقت جليلة زوجة كليب بأبيها وقومها ودعت تغلب فانضمت إلى بنى كليب وساروا يدا معهم على بكر ، واعتزلت قبائل بكر بن وائل وكرهوا مُجامعة بنى شيبان ومساعدتهم على قتال إخوتهم ، وأعظموا قتل جساس كليبا رئيسهم بناب من الإبل .

فظعنت لُجيم عنهم وكفت يشكر عن نصرتهم وانقبض الحارث بن عباد فى أهل بيته وهو أبو بجير وفارس النعامة . وقال المهلهل يرثى كليبا :

بت ليلى ، بالأنعمين[1] طويلا

أرقب النجم ساهرا أن يزولا

كيف أهدا ، ولا يزال قتيل

---

(١) ترذل : أى تعطينا الرذل من ولدك .

(٢) الأنعمان : واديان .

من بنى وائل يُنسِّى قتيلا
غَيت دارنا تهامة فى الدهر
وفيها بنو معد حلولا
فتساقوا كأسا ، أمرَّت عليهم
بينهم يقتل العزيز الذليلا
فصبَّحْنا بنى لُجيم بضرب
يترك الهام وقعه مفلولا
لم يطيقوا أن ينزلوا ونزلنا
وأخو الحرب من أطاق النزولا
انتضوا معْجَس القسى وأبرقـ
ـنا كما تُوعد الفحول الفحولا
قتلوا ربَّهم كليبا سفاها
ثم قالوا : ما إن نخاف عويلا
كذبوا ، والحرام والحِلّ ، حتى
تسلب الخدر بيضه المحجولا[1]
ويموت الجنين فى عاطف الرحم
ونروى رماحنا والخيولا

وراح الرجل يقص ما كان بين بكر وتغلب ابنى وائل من قتال ، ويروى أحداث يوم النهَّى ويوم الذنائب ويوم واردات ويوم عنيزة ويوم قضة ، يوم أسرف مهلهل فى القتل ولم يبال بأى قبيلة من قبائل بكر

(١) الذى فيه بياض

أوقع ، وكان أكثر بكر قعدت عن نصرة بنى شيبان لقتلهم كليب بن وائل ، فكان الحارث بن عُباد قد اعتزل تلك الحروب حتى قتل ابنه بجير ابن الحارث ، فلما بلغ الحارث قتله قال :

ـــ نعم القتيل ، أصلح بين ابني وائل .

وظن أن المهلهل قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفؤا له ، فقيل له :

ـــ إنما قتله بشسع نعل كليب .

وراحوا يروون له أن المهلهل لما قتل بجيرا قال : بؤبشسع نعل كليب . فغضب الحارث بن عُباد وكانت له فرس يقال لها النعامة ، فركبها وتولى أمر بكر ، فقتل تغلب حتى هرب المهلهل وتفرقت قبائل تغلب ، فقال فى ذلك الحارث بن عُباد :

قرِّبا مربط النعامة منى
لقحتْ حرب وائل عن حيالى(١)
لم أكن من جناتها ، علم الله ،
وإنى بحرها اليوم صالى

وأسر الحارث بن عباد المهلهل (عدى بن ربيعة) وهو لا يعرفه ، فقال له :

ـــ دلنى على عدى بن ربيعة وأخلى عنك .

ـــ عليك العهود بذلك إن دللتك عليه ؟

ـــ نعم .

ـــ فأنا عدى .

---

(١) أى قبالتى

فجز ناصيته وتركه وقال فيه :

لهف نفسي على عدى ولم أعرف
عديا ، إذ أمكنتني اليدان

وفى حلقة من حلقات السمر فى دار سيد من سادات قريش الذين عادوا من فارس ، راح السيد يروى آخر أنباء الفرس ، قال :

ـــ مات كسرى أنو شروان وتولى الملك من بعده هرمزد وهو يحاول أن يشتهر بالعدل كما اشتهر أنو شروان ، ولكن هيهات ! إن أنو شروان قد وضع على باب قصره سلسلة تنتهى بجرس عند الملك ليمكن لذوى المظالم إبلاغ الملك ظلاماتهم ، وقد ظلت السلسلة سبع سنوات ونصف سنة لم يمسسها إنسان . ثم دق الجرس فظهر أن حمارا أجرب قد تحكك بالسلسلة ، فأمر الملك بالبحث عن صاحب الحمار وأرغم على العناية بحماره .

ـــ إن أمر أكاسرة الفرس عجيب ، فما من أحد يعرف أين ينامون خشية الاعتداء عليهم ، فإنه يفرش للملك منهم أربعون فراشا فى أربعين موضعا ليس منها فراش إلا ومن رآه من بعيد على الانفراد لا يشك أنه فراش الملك خاصة وأنه نائم فيه ، ولعله لا يكون على واحد منها بل لعله ينام على مجلس رقيق وربما توسد ذراعه ونام .

وليس لأحد الحق فى أن يدخل غرفة الملك الخاصة ، حتى ابن الملك عليه أن يستأذن قبل أن يدخل . وقد حدث ذات يوم أن رأى يزدجر ابنه بهرام وكان فى الثالثة عشرة بموضع لم يكن له فقال :

ـــ مررتَ بالحاجب ؟

ـــ نعم .

ـــ وعلم بدخولك ؟

ـــ نعم .

ـــ فاخرج إليه واضربه ثلاثين سوطا ونحه عن الستر ووكل بالحجابة آزاد مرد .

ففعل ذلك بهرام ، فلما جاء بهرام بعد ذلك ليدخل دفعه آزاد مرد فى صدره دفعة أوجعته كثيراً وقال :

ـــ إن رأيتك بهذا الموضع ثانية ضربتك ستين سوطا ، ثلاثين منها لجنايتك على الحاجب بالأمس وثلاثين لئلا تطمع فى الجناية على .

فبلغ ذلك يزدجر فدعا آزاد مرد فخلع عليه وأحسن إليه .

وفى حلقة من حلقات الشعراء راح كل منهم يتحدث عن الشيطان الذى يلقى إليه الشعر ، قال قائل :

إنى وإن كنت صغير السن   فإن فى العين نبوًّا عنى

فإن شيطانى أمير الجن   يذهب بى فى الشعر كل فن

وقال آخر :

إنى وكل شاعر من البشر   شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

وقال رجل لا ينظم الشعر :

ـــ أحقا ما يقال : إن الشعراء كلاب الجن ؟

ـــ ومن قال ذلك ؟

ـــ عمرو بن كلثوم فى معلقته ، إنه يقول :

وأنزلنا البيوت بذى طلوح   إلى الشامات تنفى الموعدينا

وقد هرّت كلاب الجن منا   وشذبنا قتادة من يلينا

وراح الأعشى قيس بن ثعلبة يروى عن نفسه قال :

ـــ خرجت أريد قيس بن معديكرب بحضرموت ، فضللت فى أوائل أرض اليمن لأنى لم أكن سلكت ذلك الطريق قبل ، فأصابنى مطر فرميت ببصرى أطلب مكانا ألجأ إليه ، فوقعت عينى على خباء من شعر فقصدته ، وإذا أنا بشيخ على باب الخباء فسلمت عليه فردّ على السلام ، وأدخل ناقتى خباء آخر كان بجانب البيت فحططت رحلى وجلست فقال :

ـــ من أنت ؟ وأين تقصد ؟

ـــ أنا الأعشى أقصد قيس بن معديكرب .

ـــ حياك الإلٰه ، أظنك امتدحته بشعر .

ـــ نعم .

ـــ فأنشدنيه .

فابتدأت مطلع القصيدة :

رحلت سمية غدوة أجمالها　　غضبا عليك فما تقول بدالها

فلما أنشدته هذا المطلع منها قال :

ـــ حسبك . أهذه القصيدة لك ؟

ـــ نعم .

ـــ من سمية التى تنسب بها ؟

ـــ لا أعرفها ، إنما هو اسم ألقى فى روعى .

فنادى :

ـــ يا سمية اخرجى .

وإذا جارية خماسية قد خرجت فوقفت وقالت :

ـــ ماذا تريد يا أبت ؟

ـــ أنشدى عمك قصيدتى التى مدحت بها قيس بن معديكرب ونسبت بك فى أولها .

فاندفعت تنشد القصيدة حتى أتت على آخرها لم تخرم منها حرفا ، فلما أتمتها قال :

ـــ انصرفى .

ثم قال :

ـــ هل قلت غير ذلك ؟

ـــ نعم ، كان بينى وبين ابن عم لى يقال له يزيد بن مسهر يكنى أبا ثابت ما يكون بين بنى العم فهجانى وهجوته فأفحمته ، قال :

ـــ ماذا قلت فيه ؟

قلت :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

فلما أنشدته البيت الأول قال :

ـــ حسبك . من هريرة هذه التى نسبت بها ؟

ـــ لا أعرفها وسبيلها سبيل التى قبلها .

فنادى :

ـــ يا هريرة .

فإذا جارية قريبة السن من الأولى خرجت ، فقال :

ـــ أنشدى عمك قصيدتى التى هجوت بها أبا ثابت يزيد بن مسهر .

فأنشدتها من أولها إلى آخرها لم تخرم منها حرفا ، فسُقط فى يدى وتحيرت وتغشتنى رعدة ، فلما رأى ما نزل بى قال :

ـــ ليفرخ روعك يا أبا بصير ، أنا هاجسك مسحل بن أثاثة الذى

ألقى على لسانك الشعر .

وفى حلقة أخرى من حلقات السمر راح الشباب يتحدثون أحاديث الهوى وينشدون أشعار الغزل ، ويروون كيف شق المحب برقع حبيبته وكيف شقت الحبيبة رداء الحبيب ليصلح حبهما ويدوم ، وقال قائل منهم :

وكم قــد شققنــا مــن رداء محبر
ومن برقـع عـن طفلـة غير عـانس
إذا شق بـرد شق بـالبرد برقـع
دوالـيك حتـى كلنـا غير لابس
نـروم بهذا الفعـل بُقيـا على الهوى
وإلف الهوى يغرى بهذى الـوساوس

كان الشعر هو محور السمر فى مكة ، وكانت الخمر تـدور على السمار ، وكانت القيان يغنين شعر الفحول بما فيه من تهتك ومجون ، وكان شباب مكة فى أحضان البغايا أو يلعبون الميسر ، وكان أطهر سمر أن يقرأ المتعبدون من الشيوخ فى صحيفة لقمان حكمه ووصاياه لابنه ، أو يعكف الذين تنصروا على النظر فى التوراة والإنجيل .

ولم يؤم محمد نوادى قومه ولم يلق سمعه إلى أساطير الشعوب وقصص الأيام وشعر المُجّان وخلاعة الشبان المترفين الغارقين فى اللهو حتى الآذان ، فما خلق إلا ليتمم مكارم الأخلاق ، فحببت إليه العزلة ، فكان هناك فى بيداء مكة يعمل على تنقية وجدانه بمحاولة الاتصال بالله بتخلية القلب من كل من عداه وما عداه ، يستلهم من معارفه ويستضىء بأنواره وترفعه تأملاته العميقة إلى ما فوق السموات ليتحقق له الكمال

الخلقى الباطنى الذى ينشده .

إنه فى كفاح مستمر متجدد مع نفسه ، وإنه يحس أنه على مر الأيام يزداد دنواً من الذات العلية ، فحبه لله قد صار وجداً ، والتفكير فيه قد أصبح مراقبة . وقد أضاءت مصابيح أفكاره بفيض نوره ، وانتشرت فى جوانبه أشعة من الحقيقة الأزلية ، وتغلغلت فى أغوار ذاته لتتخذ أعماقا رصينة وأغواراً بعيدة تعده لما هو ميسر له .

لم يعد يرفع صوته بابتهالاته ولا بصلواته فقد اهتدى إلى أن الخير الأسمى يعلم ما فى نفسه وما تخفى الصدور ، وأنه يتولاه برعايته لينمى فيه القيم الأخلاقية ليبلغ غايته ، ولن يصل إلى نبع المعرفة قبل أن يوحى إليه فالوحى تاج المعرفة ، وإنه طريق شاق ، كله جهاد وكفاح وإن أشق الجهاد جهاد النفس .

— ٢١ —

شرد أبو طالب يفكر وقد لاح الهم فى وجهه ، فموسم الحج جاء وليس عنده من المال ما ينفقه على إطعام فقراء الحجاج وسقايتهم ، إنه اقترض من أخيه العباس ما أنفقه فى السقاية والرفادة فى العام الفائت ، وإن عليه أن يسدد دينه فى هذا العام وأن يحصل على مال وفير ينفقه على ضيفان بيت الله ، وإن تجارته تقصر عن سد الدين وإطعام الناس فى الموسم .

كان عبد المطلب يبث الزبيب فى مياه زمزم التى توضع فى أحواض من أدم هنا وهناك ، وكان ينحر الجزور للناس ويتركها للطير فى رءوس

الجبال حتى لقبوه بالفياض ، وإن أبا طالب يسير على سنة أبيه ليحافظ على الشرف الذى آل إليه ، ولكن أبا طالب كثير العيال وبيته مفتوح للقرشيين جميعا ولعابرى السبيل ، ويده مبسوطة لا يرد سائلا ولا محتاجا ، فذاب كل ما جنى من أرباح رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، ولم يبق عنده إلا بعض أنواع الطيب التى سيخرج بها إلى سوق عكاظ وذى المجنة وذى المجاز ، وهو على ثقة من أن ثمنها لن يكفى حاجة فقراء الحجيج ، وإن علل النفس بالتريث إلى أن تنتهى أيام الأسواق فمن يدرى فقد يأتى اليسر بعد العسر والفرج بعد الضيق .

كان أغنياء قريش يخرجون عن بعض مالهم لأبى طالب لينفق منه على إطعام الناس فى الموسم ، وكان أبو طالب يحمل العبء الأكبر فهو صاحب شرف السقاية والرفادة ، فراح يمنى نفسه بأن يجود الأجواد فى هذه السنة بمال أكثر مما جادوا به فى السنين الماضية يربأ الصدع ويسد العجز ويحول بينه وبين الاقتراض ، ويمر هذا الموسم بسلام .

وجاء ما جاد به الأجواد إلى الحظائر والمخازن ، وراح أبو طالب يحصى فى لهفة ما شارك به أثرياء قومه فى رعاية ضيف الله فإذا به نفس ما اشتركوا به فى العام الفائت بلا زيادة ولا نقصان ، فغام وجهه بسحابة من الكدر ، وفطن إلى أنه أعجز من أن ينهض بذلك الشرف شرف السقاية والرفادة التى انحدر إليه من هاشم العظيم وعبد المطلب مطعم الطير فى رءوس الجبال .

وهم بأن يذهب إلى أخيه العباس يقترض منه ما يحتاج إليه من مال ولكنه آثر أن يتريث حتى يعود من الأسواق انتظارا لما تأتى به الأيام فمن يدرى فقد يكسب غدا ما يغنيه عن الاقتراض .

وكانت سوق عكاظ تقوم صبح هلال ذى القعدة وتستمر عشرين يوما ، فخرجت قوافل قريش تحمل تجارتها من طيب وبخور وحرير وأسلحة وتوابل وحبوب وزيوت جلبت من اليمن والحبشة والشام ومصر وفارس وبلاد الروم ، يموج فيها ساداتها وعبيدها وإماؤها من عرب وأحباش وروم وفرس لتأخذ مكانها فى السوق التى ذاع صيتها ، حتى صار النعمان بن المنذر ملك الحيرة يبعث بها لطيمة (جمالا تحمل التجارة) فى جوار رجل شريف من أشراف العرب يجيرها له ، حتى تباع هناك ويشترى له بثمنها من أدم الطائف ما يحتاج إليه .

وانسابت قوافل مكة ثلاث ليال فى طريق اليمن فى ظلام دامس ، حتى لاحت صخور المرمر البيضاء فصاح الناس فى ابتهاج .

— العبيلات .

واشتدت الإبل حتى إذا ما بلغت السهل العريض أناخت به ، وخف الرجال والنساء والولدان من سادة وعبيد إلى مروة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج ثم راحوا يطوفون بها ويذبحون عندها ، فهى صنم ذى الخلصة وكانت تتعبد له خثعم ودوس وبجيلة .

وراح الذين لا يؤمنون بالله ولا بعث ولا حساب يسخرون من الطائفين بالصنم ويتندرون بما كان بينه وبين امرىء القيس ، فإن امرأ القيس بن حجر حين وترته بنو أسد بقتل أبيه استقسم عند ذى الخلصة بثلاثة أزلام وهى الزاجر والآمر والمريض ، فخرج له الزاجر ينهاه عن الثأر لأبيه فسب الصنم ورماه بالحجر وقال له :

— اعضض ببظر أمك .

ومنذ ذلك الوقت لم يستقسم عنده بالأزلام وإن كان الناس يطوفون

به ويتمسحون .

وراحت القوافل تفد من كل حدب ، وضربت خيام حكام القبائل ، ونصبت خيمة النابغة الذبيانى لتكون قبلة الشعراء ، وكان كل شريف إنما يحضر سوق بلده إلا سوق عكاظ فإنهم كانوا يتوافون بها من كل جهة ، فكان يأتيها قريش وهوازن وسليم وعقيل والمصطلق وطوائف من العرب .

ومن كان له أسير سعى فى فدائه ، ومن كانت له حكومة ، ارتفع إلى الذى يقوم بأمر الحكومة ، وكان الذى يقوم بأمر الحكومة فى هذه السوق أناس من بنى تميم ، وكان أحدهم الأقرع بن حابس .

وكانت قبيلة كلب قد أصابت رجلا من بجيلة يقال له مالك بن عتبة ، فوافوا عكاظ ، فمر مالك بابن عم له يقال له القاسم بن عقيل يأكل تمراً ، فتناول من ذلك التمر شيئا ليتحرم به ، فجذبه الكلبى فقال له القاسم :

ــ إنه رجل من عشيرتى .

فرماه الكلبى بنظرة احتقار وقال :

ــ لو كانت له عشيرة منعته .

فانطلق القاسم إلى بنى عمه بنى زيد بن الغوث فاستنجدهم فقالوا :

ــ نحن منقطعون فى العرب وليست لنا جماعة نقوى بها .

فانطلق إلى آخرين فاستنجدهم فقالوا :

ــ كلما طارت وبرة من بنى زيد فى أيدى العرب أردنا أن نتبعها !

وراح يفكر فى رجل ينجده فالتمعت الفكرة فى رأسه ، فانطلق يغذ السير إلى قسر ، حتى إذا ما لاحت له القباب الحمر ذهب إليها والتمس أن

يقابل جرير بن عبد الله البجلي سيد بني مالك بن سعد بن زيد بن قسر ، فلما قابله قص عليه قصته ، وما انتهى منها حتى دعا جرير قومه إلى النهوض معه لانتزاع مالك من كلب فتبعوه .

خرج جرير في ثياب مصبغة لم ير العرب مثلها من قبل ، ورجاله معه حتى هجم على منازل كلب بعكاظ فانتزع منهم مالك بن عتبة ، وقامت كلب دونه فقال جرير :

— زعمتم أن قومه لا يمنعونه .

فقال كلب :

— إن رجالنا خلوف .

فقال جرير :

— لو كانوا لم يدفعوا عنكم شيئا .

فقالوا :

— كأنك تستطيل على قضاعة . إن شئت قايسناكم المجد .

فقال جرير :

— ميعادنا من قابل سوق عكاظ .

فجمعت كلب وجمعت قسر ووافوا عكاظ من قابل ، وصاحب أمر كلب خالد بن أرطأة . وانطلقوا إلى حيث كان الأقرع بن حابس ، وارتضى الحيان أن يكون حكما بينهما .

وجاء أشراف قريش ليشهدوا المنافرة بين كلب وبجيلة ؛ وقام خالد ابن أرطأة فقال لجرير :

— ما تجعل ؟

— الخطر في يدك .

— ألف ناقة حمراء فى ألف ناقة حمراء .

فقال جرير يزيد الرهان :

— ألف قينة عذراء فى ألف قينة عذراء ، وأن شئت فألف أوقية صفراء لألف أوقية صفراء .

كان النساء لا وزن لهن ، يرثهن الوريث ويلعب عليهن الرجال الميسر ، أو تقاد ألف منهن فى مفاخرة وما تساوى إحداهن من أوقية من الذهب ، وقال خالد :

— من لى بالوفاء ؟

فقال جرير :

— كفيلك اللات والعزى وأساف ونائلة ويعوق وذو الخلصة ونسر ، فمن عليك بالوفاء ؟

— ود ومناة وفلس ورضا .

قال جرير :

— لك بالوفاء سبعون غلاما مُعِمًّا مُخْوِلا يوضعون على أيدى الأكفاء من أهل الله .

ووضعوا الرهون على أيدى عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وأشراف قريش أهل بيت الله .

وبدأت المنافرة لما قال الأقرع بن حابس لخالد :

— ما عندك يا خالد ؟

وراح خالد يجمع شتات فكره ليذكر أفضل خصال قومه ، ثم قال :

— ننزل البراح ، ونطعن بالرماح ، ونحن فتيان الصباح .

فالتفت الأقرع وقال :

ــ ما عندك يا جرير ؟

قال :

ــ نحن أهل الذهب الأصفر والأحمر المعتصر ، نخيف ولا نخاف ، ونطعم ولا نستطعم ، ونحن حى لَقَاح ، نطعم ما هبت الرياح ، نطعم الشهر ، ونضمن الدهر ، ونحن الملوك القسر .

ووقف الأقرع ليعلن حكمه فحبست الأنفاس وأرهفت الآذان ، وتعلقت العيون بشفتيه فما سينطق به سيحمله الركبان إلى كل مكان ، ترى لمن يحكم ؟

وقال الأقرع فى صوت رن فى سوق عكاظ كرنين الذهب فى آذان بجيلة ، وكنعيب البوم فى آذان كلب :

ــ واللات والعزى ، لو فاخرت يا جرير قيصر ملك الروم ، وكسرى عظيم فارس ، والنعمان ملك العرب ، لنصرتك عليهم .

وضجت السوق بصيحات فرح وصيحات إنكار ، وجاء رجل من بجيلة بفرس إلى جرير فركبه من فرط فرحه من الجانب الأيسر ، فقال الشانئون :

ــ لم يحسن أن يركب الفرس .

فقال جرير :

ــ الخيل ميامن ، وإنا لا نركب إلا من وجوهها .

وذهب الشعراء إلى خيمة النابغة ، وراح كل شاعر يلقى عليه ما عنده وهو يزعم أنه أشعر العرب ، ثم قام الشعراء ينشدون أشعارهم فى السوق فتعطل البيع والشراء ، وأقبل الناس من كل جانب يتزاحمون بالمناكب ، فقد كان الشعر أشجى عندهم من شدو المغنين وغناء القيان .

(اليتيم)

وانفض سامر الشعراء فراح الرواة يترنمون بما سمعوا كأنما قد حفرت القصائد فى ذاكرتهم ، ليذيعوه فى القبائل وليكون مادة السمر فى نواديهم يملئون به فراغ الليالى ويسدون به جوع الأرواح .

وانتشر الشباب يلهو ويمرح ويشتد فى اللهو أحيانا حتى يقسو على الناس ويجرح كرامتهم ويسيء إلى مشاعرهم ، وتنطلق الضحكات مجلجلة عقب كل إساءة كأنما لم يخلق الناس إلا ليكونوا هدفا للسخرية والأذى ووسيلة من وسائل الإضحاك .

وجاء فتية من قريش ورأوا امرأة من بنى عامر بن صعصعة وضيئة جميلة وعليها برقع ، وهى فى درع عليه تهاويل تجذب الأبصار فطافوا بها ثم قالوا :

— أسفرى عن وجهك .

فأبت عليهم ، فأتى أحدهم من خلفها فشد دبر درعها بشوكة فضحكوا وقالوا :

— منعتنا النظر إلى وجهها ، فقد رأينا دبرها .

فنادت المرأة فى فزع وغضب :

— يا لعامر !

وخف إليها بنو عامر بن صعصعة ، وما أن عرفوا ما حل بالعامرية حتى استلوا سيوفهم ، وجاء القرشيون ينصرون شبابهم ظالمين ، وتحاور الناس ، ثم نشب بينهم قتال سالت فيه دماء يسيرة . وقبل أن تشتعل نار الحرب بين الحيين جاء حرب بن أمية زعيم قريش وأعلن أنه يحمل ما سال من دماء ويعوض عنها ، وأصلح بينهم وبذلك انتهى الفجار الثانى .

وانقضت أيام عكاظ ، وحمل الناس ما بقى معهم من سلع وانطلقوا إلى سوق ذى المجنة للتجارة قبل أن يذهبوا إلى سوق ذى المجاز ، فموسم الحج الأعظم . وسار أبو طالب على راحلته شارد اللب يفكر فى أمره فقد نفدت بضاعته و لم تأت بالأرباح التى كان يرجوها ليسدد دينه وينفق منها على ضيف الله . فلم يبق أمامه إلا أن يأتى أخاه العباس يقترض منه ويعده أن يسدد دين السنة الماضية وهذه السنة فى العام القابل .

ومشى أبو طالب إلى أخيه العباس وطلب منه أن يقرضه قرضا ينفق منه على حجاج بيت الله ، فقال له العباس إنه لم يسدد قرض العام الفائت ، فوعد أبو طالب أن يسدد القرضين فى العام القابل ، فقال العباس لأخيه وهو يقرضه ما طلب :

— إن عجزت عن تسديد القرضين آخذ بدينى الرفادة والسقاية .

وقبل أبو طالب ذلك الشرط وهو يرجو أن تتحسن أحواله المالية ويسدد ما عليه ، حتى لا يخرج من يده ذلك الشرف الذى ورثه عن أبيه دون بنى عبد المطلب جميعا .

وانقضت أيام الأسواق ، وخلف الناس دنياهم وراء ظهورهم وراحوا يتدفقون إلى الحرم يطوفون بالبيت ويذبحون بين إساف ونائلة ويسعون بين الصفا والمروة ، ثم يذهبون إلى عرفة جميعا فى يوم واحد ويقفون المواقف ، وسرعان ما يعودون إلى اللعب واللهو والانغماس فى شهوات الدنيا .

كانت أيام التعبد أياما معدودات وكثيرًا ما كان العبث يتخللها ، وما كان أحد فى العرب يحتمل أن تكون حياته كلها لله وفى الله إلا فتى واحد هو محمد بن عبد الله ، فهو يتعالى عن أهوائه وأغراضه الخاصة ويعكف

على التأمل حتى لكأنه يشعر برنين الوجود يجلجل فى وجدانه ، إنه يسير من خلال الليل المظلم الجاثم على الأرض إلى الله ، ويعرج على أنوار النهار الى ما فوق السموات ، فمساؤه مع اليقين نهار ، ونهاره سعادة وأنس وانشراح .

إنه كله فى يد الله ، قد خرج من حوله إلى حول الله ، وغايته هى ذات الله ، ومحراب قلبه هو الله ، لا يتحول عنه لا فى زمان ولا إلى مكان ، فأحيا الله بمعرفته فؤاده ، وظهر بمراقبته أسراره ، وإنه سائر فى طريق الرقى ، وإنه ليطرب ويسعد لما يستشعر من نماء .

إنه يراقب نفسه ويدعو قلبه إلى أن يتنبه إلى النعم التى حباه الله بها على الدوام . وإن مراقبة النفس هى الأساس الذى سيقوم عليه كل البناء الشامخ الذى سيربط الأرض بالسماء ؛ وإن الإخلاص المطلق هو السبيل الذى سيقود إلى الرحاب الأسمى ، إلى لب الحقيقة ؛ وإن ما يفعم به قلبه من رضى وشكر ، وما يتسربل به من حياء ، وما يتحلى به من إيثار ، وما يتصف به من صدق ، وما يتزكى به من مكارم الأخلاق ، سيفتح له أبواب السموات ليكون خزانة أسرار الله وعلمه ، ورسول رب العالمين .

كانت يثرب تموج بالعداوات ، فما كان يمر عام دون أن ينشب قتال بين الأوس والخزرج ، أو بين أحد الحيين العربيين وبين يهود بنى النضير أو بنى قينقاع أو اليهود النازلين بخيبر أو تيماء . وفى أيام السلم كان شعراء كل طرف من أطراف النزاع يؤججون نار البغضاء بقصائد الفخر أو الهجو ، وكان ظهور شاعر فى إحدى القبائل يعتبر من الأحداث الهامة التى تحتفل بها القبيلة ، وقد احتفل الخزرج احتفالا رائعا اشتركت فيه القيان بالضرب على المزاهر والرقص والغناء يوم أن برز فيهم حسان بن ثابت .

شب حسان بين سادة قومه ، فأبوه ثابت بن حزام بن المنذر كان من حكام يثرب ، ولو أنه كان خزرجيا إلا أنه حكم بين الأوس والخزرج يوم سُمَير وحقن دم الحيين ، وإن حسان لا يفتأ يذكر ذلك الحدث ويفخر بأن أباه إذ حكموه أراد إطفاء الفتنة فيما بين القوم ولمَّ شعثهم ، فأخرج خمسا من الإبل من قبيلته حين أبت عليه الأوس أن يؤدى إلى طالب الدية أكثر من خمس ، وأبى صاحب الدية أن يأخذ دون عشر . فلما أخرج ثابت الخَمْس أرضى صاحب الدية بذلك ورضيت الأوس واصطلحوا بعهد وميثاق ألا يقتل رجل فى داره ولا فى معقله (نخله) ، فإذا خرج رجل من داره أو معقله فلا دية له ولا عقل ، وقال فى ذلك :

وأبى فى سُمَيْحة القائل الفا صل حين التفت عليه الخصوم

• قام فى الأوس قيس بن الخطيم يفخر بقومه وينال من أعدائهم ،

وكانت الخزرج العدو اللدود ، فما افتخر حسان بأبيه حتى رد عليه قيس بقصيدة طويلة :

ردَّ الخليطُ الجمالَ فانصرفوا ماذا عليهم لو أنهم وقفوا

ونشبت العداوة بين حسان وقيس ، بين شاعرى القبيلتين المتنافستين اللتين لم تهدأ الثارات بينهما .

قتل جدَّ قيس رجل من بنى عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة يقال له مالك ، وقتل أباه الخطيم بن عدى رجل من عبد القيس ممن يسكن هَجرَ . وكان قيس يوم قتل أبواه صغيرًا ، وقتل الخطيم قبل أن يثأر بأبيه عدى ، فخشيت أم قيس على ابنها أن يخرج فيطلب بثأر أبيه وجده فيهلك ، فعمدت إلى كومة من تراب عند باب دارهم ، فوضعت عليها أحجارا ، وجعلت تقول لقيس : هذا قبر أبيك وجدك . فكان قيس لا يشك أن ذلك على ذلك .

ونشأ أيِّدا شديد الساعدين ، فنازع يوما فتى من فتيان بنى ظفر فقال له ذلك الفتى :

— والله لو جعلت شدة ساعديك على قاتل أبيك وجدك لكان خيراً لك من أن تخرجها على .

— ومن قاتل أبى وجدى ؟

— سل أمك تخبرك .

فأخذ السيف ووضع قائمه على الأرض وذبابه بين ثدييه ، وقال لأمه :

— أخبرينى من قتل أبى وجدى ؟

— ماتا كما يموت الناس ، وهذان قبراهما بالفناء .

— والله لتخبرنّني من قتلهما أو أتحاملنّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى .

— أما جدك فقتله رجل من بنى عمرو بن عامر بن ربيعة يقال له مالك ، وأما أبوك فقتله رجل من عبد القيس .

— والله لا أنتهى حتى أقتل قاتل أبى وجدى .

— يا بنى إن مالكا قاتل جدك من قوم خداش بن زهير ، ولأبيك عند خداش نعمة هو لها شاكر ، فأته فاستشره فى أمرك واستعنه يُعنك .

فخرج قيس من ساعته حتى ناضحه (بعيره يسقى عليه الماء) وهو يسقى نخله ، فضرب الحبل بالسيف فقطعه ، فسقطت الدلو فى البئر ، وأخذ برأس الجمل فحمل عليه غِرارتين من تمر وقال :

— من يكفينى أمر هذه العجوز ؟ (يعنى أمه) فإن مت أنفق عليها من هذا الحائط (البستان) حتى تموت ، ثم هو له ، وإن عشتُ فمالى عائد إلىّ ، وله منه ما شاء أن يأكل من تمره .

فقال رجل من قومه :

— أنا له .

فأعطاه الحائط ثم خرج يسأل عن خداش بن زهير حتى دل عليه بمرّ الظهران بالقرب من مكة ، فصار إلى خبائه فلم يجده ، فنزل تحت شجرة يكون تحتها أضيافه ، ثم نادى امرأة خداش :

— هل من طعام ؟

فأطلّت عليه فأعجبها جماله ، وكان من أحسن الناس وجها ! قالت :

— والله ما عندنا من نُزُل (ما يهيأ للضيف من قرى) نرضاه لك إلا

تمر .

ـــ لا أبالى ، فأخرجى ما كان عندك .

فأرسلت إليه بمكيال كبير فيه تمر ، فأخذ منه تمرة فأكل شقها ورد شقها الباقى فى المكيال ، ثم أمر بالمكيال فأُدخل على امرأة خداش ، ثم ذهب لبعض حاجته .

ورجع خداش فأخبرته امرأته خبر قيس فقال :

ـــ هذا رجل متحرِّم (له عندنا حرمة وذمة) .

وأقبل قيس راجعا وكان خداش مع امرأته يأكل رطبا ، فلما رأى خداش رِجْله وهو على بعيره قال لامرأته .

ـــ هذا ضيفك ؟

ـــ نعم .

ـــ كأن قدمه قدم الخطيم صديقى اليثربى .

فلما دنا قيس منه قرع طُنُب البيت بسنان رمحه واستأذن ، فأذن له خداش ، فدخل إليه ، فطلب إليه أن ينتسب فانتسب وأخبره بالذى جاء له ، وسأله أن يعينه وأن يشير عليه فى أمره ، فرحب به خداش وذكر نعمة أبيه عنده وقال :

ـــ إن هذا الأمر مازلت أتوقعه منك منذ حين . فأما قاتل جدك فهو ابن عم لى وأنا أعينك عليه ، فإذا اجتمعنا فى نادينا جلستُ إلى جنبه وتحدثت معه ، فإذا ضربت فخِذَه فثِبْ إليه فاقتله .

وذهب قيس وخداش إلى حيث كان الزجل ، فلما جالسه خداش قام قيس على رأس غريمه ، فحين ضرب خداش فخذه ضرب قيس رأسه بسيف يقال له ذو الخُرصين ، فثار إليه القوم ليقتلوه ، فحال خداش

بينهم وبينه وقال :

— دعوه فإنه والله ما قتل إلا قاتل جده .

وهدأ الناس كأن لم يكن هناك قتيل ، فقد كانت الثارات بين العرب أمرا مألوفا لا غرابة فيه ، بل كانت الغرابة كل الغرابة والعار الذى ما بعده عار أن يسكت إنسان على ثأره ، وكانت دماء الأبرياء تسيل دون أن يستنكر أحد ذلك أو يرى فيه ظلما .

ودعا خداش بجمل من إبله فركبه ، وانطلق مع قيس إلى العبدى الذى قتل أباه ، حتى إذا كانا قريبا من هجر أشار عليه خداش أن ينطلق حتى يسأل عن قاتل أبيه ، فإذا دل عليه قال له إن لصا من لصوص قومك عارضنى فأخذ متاعا لى ، فسألت من سيد قومه فدللت عليك ، فانطلق معى حتى تأخذ متاعى منه فإن اتبعك وحده فستنال ما تريد ، وإن أخرج معه غيره فاضحك ، فإن سألك مم ضحكت ؟ فقل : إن الشريف عندنا لا يصنع كما صنعت إذا دعى إلى اللص من قومه ، إنما يخرج وحده بسوطه دون سيفه ، فإذا رآه اللص أعطى كل شىء أخذ هيبة له ، فإن أمر أصحابه بالرجوع فسبيل ذلك ، وإن أبى إلا أن يمضوا معه فأتنى به فإنى أرجو أن تقتله وتقتل أصحابه .

كان الخداع والكذب والخيانة متفشيا فى قبائل العرب جميعا ، وما كانت مكارم الأخلاق تتبع إذا ما كان الأمر يتعلق بثأر ، بل كان الأبرياء يقتلون غفلة فى ضعة وجبن ، وكان القتلة يفخرون بما أتوا من أعمال حقيرة ما داموا قد ثأروا لقتلاهم ورفعوا عن جباههم العار الذى يجللهم ، وما كان يدور بخلد أحد من العرب أن تحقن الدماء بينهم ذات يوم وأن تتعطل الثارات ، فذلك أبعد من خيال أى حالم من الحالمين بالسلام ، وما أقلهم فى قبائل يسودها قانون الغاب وعصبية الجاهلية .

ونزل خداش تحت ظل شجرة ، وخرج قيس حتى أتى العبدى فقال له ما أمره خداش فأحفظه ، فأمر أصحابه فرجعوا ومضى مع قيس ، فلما طلع على خداش قال له :

— اختر يا قيس إما أن أعينك وإما أن أكفيك .

— لا أريد واحدة منهما ، ولكن إن قتلنى فلا يُفلتك .

ثم ثار إليه فطعنه قيس بالحربة فى خاصرته فأنفذها من الجانب الآخر ، فمات فلما فرغ منه قال له خداش :

— إنا إن فررنا الآن طلبنا قومه، ولكن ادخل بنا مكانا قريبا من مقتله فإن قومه لا يظنون أنك قتلته وأقمت قريبا منه ولكنهم إذا افتقدونا اقتفوا أثره، فإذا وجدوه قتيلا خرجوا فى طلبنا فى كل وجه، فإذا يئسوا رجعوا.

فدخلا فى دارات من رمال هناك ، وافتقد العبدىّ قومه فاقتفوا أثره فوجدوه قتيلا ، فخرجوا يطلبونهما فى كل وجه ثم رجعوا .

وأقام قيس وخداش مكانهما أياما ثم خرجا ، فلم يتكلما حتى أتيا منزل خداش ، ففارقه عنده قيس بن الخطيم ورجع إلى أهله وقال :

تذكّر ليلى حسنها وصفاءها

وبانت فما إن يستطيع لقاءها

ومثلك قد أصبيت ليس بكنّة

ولا جارة أفضت إلىّ خباءها

إذا ما اصطبحت أربعا خط مئزرى[1]

وأتبعت دلوى فى السماح رشاءها[2]

---

(١) يريد أنه إذا شرب ربعا اختال حتى جر ثوبه من الخيلاء .

(٢) يريد أنه بلغ فى السماح منتهاه : يقال أتبع الدلو رشاءها وأتبع الفرس لجامها إذا بلغ آخر مجهوده .

ثـأرت عديـا والخطيم فلـم أضع
وصيـة أشيـاخ جُعـلتُ إزاءهـا

وفرغ قيس من ثأره وعاد إلى قومه ليفخر بفضائلهم وليهجو الخزرج وحسان بن ثابت ، وقد قامت مشادة بين الأوس والخزرج فى الحديقة ، وهى قرية من أعراض المدينة فى طريق مكة ، وتراموا بالحجارة وتضاربوا بالخشب والرطائب والسعف ، ولكن ما انتهت المشادة حتى قال قيس ابن الخطيم :

أجالدهـم يـوم الحديقـة حـاسرا
كأن يـدى بالسيـف مِخـراق لاعبِ

فالشعراء يقولون ما لا يفعلون .

وتزوج حسان بن ثابت عمرة بنت الصامت الأوسية ، فكان كل واحد منهما معجبا بصاحبه ، ولكن حمية الجاهلية قد قطعت أواصر المحبة وقضت على غرام مشبوب ، فقد تكلم حسان بكلام نال به الأوس أغضب عمرة ، فعيرته بأخواله وفخرت عليه بالأوس ، فغضب لهم فطلقها ، فأصابها من ذلك ندم وشدة ، وندم هو بعد ، ولكن ماذا يفعل الندم فى مساوىء الجاهلية ؟

وشد حسان الرحال إلى الحيرة ، وانطلق إلى قصر الخورنق فقد كان النعمان بن المنذر يرحب بالشعراء . وما إن بلغ القصر حتى فتحت له أبوابه ، ودخل فألفى النعمان محمولا على أكتاف الرجال يتعاقبونه ، فقد كانت ملوك العرب إذا مرض أحدهم حملوه على الأعناق لأنه عندهم أوطأ له من الأرض .

وراح النعمان يحادث حسان بن ثابت ليقوى روحه وينسى مرضه ،

ويصغى إلى جيد شعره فيخفف عنه آلامه ، وكان النعمان يفضل النابغة الذبيانى على كل الشعراء ، وكأن خاطره يهمس وهو يستمع لحسان : ليت النابغة يقبل وينسى ما بيننا من جفاء .

كان النابغة عند النعمان كبيرا عنده خاصا به ، وكان من ندمائه وأهل أنسه فحسد على منزلته منه ، فاتهموه بأمر فغضب عليه النعمان وأراد البطش به ، وكان للنعمان بواب يقال له عِصام شَهبر الجرمى قال للنابغة :

ــ إن النعمان موقع بك فانطلق .

فهرب النابغة إلى ملوك غسان الشام فكان يمدحهم ، وترك النعمان فاشتد ذلك عليه ، وعرف أن الذى بلغه كذب فبعث إليه :

ــ إنك لم تعتذر من سخطة إن كانت بلغتك ، ولكنا تغيرنا لك عن شيء مما كنا لك عليه ، ولقد كان فى قومك ممتنع وحصن فتركته ثم انطلقت إلى قوم قتلوا جدى وبينى وبينهم ما قد علمت .

وكان النعمان وأبوه وجده قد أكرموا النابغة وشرفوه وأعطوه مالا عظيما ، وما كان يأكل ويشرب إلا فى آنية من الذهب والفضة من عطايا النعمان وأبيه وجده . وبلغ النابغة أن النعمان ثقيل من مرض أصابه ويخشى عليه منه ، فأتاه محمولا على رجلين ينقل ما بين الغمر وقصوره التى بين الحيرة ، فقال لبوابه عصام :

ألم أقسم علــــيك لتُخبـــــرَنى

أمحمــول على النــعش[1] الهُمــامُ

---

(١) المراد بالنعش هنا مركب شبه هودج .

فـــإنى لا ألـــومك فى دخـــول
ولكـــن مـــا وراءك يـــا عِصام
فـــإن يهلك أبـــو قابـــوس يهلك
ربيـــع النـــاس والشهـــر الحرام
ونأخـذ بعـده بذنـاب(١) عـيش
أجبِّ الظهـر لـيس لـه سنـام

ودخل النابغة فلما رآه النعمان أبو قابوس تهلل بالفرح ، وراح النابغة يروى شعره والنعمان يصغى إليه ، ثم نزل النعمان عن أعناق الرجال وأدنى النابغة منه ، ثم أمر له بمائة ناقة من نجائب له يقال لها العصافير ، وحسام وآنية من فضة ، وحسده حسان على ثلاث لا يدرى على أيتهن كان أشد حسدا: أعلى إدناء النعمان له بعد المباعدة ومسامرته له وإصغائه إليه ، أم على جودة شعره ، أم على مائة بعير من عصافيره ؟

وانتهت زيارة حسان للحيرة فعاد إلى يثرب ، وما إن بلغ أرباض المدينة حتى ألفى مشادة بين اليهود والعرب فانكمش فهو يمقت القتال ، ولما خبت أوارها قال اليهود :

— إن نبيا مبعوثا قد أظل زمانه نتبعه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم .

ولم تكن هذه أول مرة يسمع فيها حسان بن ثابت بذلك المبعوث ، فإنه خرج من داره مع أبيه وأخته ذات ليلة وكان ابن سبع سنين على صوت يهودى ينادى :

— يا قوم ! يا قوم !

---

(١) خيط يشد به ذنب البعير .

فلما اجتمع إليه الناس قال :

ـــ طلع الليلة نجم أحمد الذى يولد به .

وعرف أن أحمد هو النبى الذى يتوعدهم به اليهود ، وما دار بخلده أن ذلك النبى هو ذلك الغلام الذى جاء إلى دار عدى بن النجار ليزور قبر أبيه عبد الله ، وأن أخوال جده عبد المطلب هم آباؤه بنو النجار ، وأن الخئولة تربط بينه وبين ذلك النبى ، وأن كل ما قال من شعر لن يخلده على مر الأيام إلا فى ذلك النبى المنتظر ، فسيكون شاعره . ولو قيل لحسان فى ذلك الوقت الذى يخوض فيه فى الجاهلية إنه سيؤيد بروح القدس لما فقه شيئا من ذلك القول ، ولكن رسول الله سيقول لحسان لما يهجوه المشركون : أجب عنى « اللهم أيده بروح القدس » وسيقول « اهجم وجبريل معك » . « إن روح القدس مع حسان مادام ينافح عن رسول الله » .

إن حسان يتمرغ فى الجاهلية ، وسيسمو به الإسلام حتى يقف الجبان الرعديد للخليفة عمر بن الخطاب لما يمر عليه وهو ينشد فى المسجد ويقول له :

ـــ أفى مسجد رسول الله تنشد الشعر ؟

فيقول حسان فى ثابت :

ـــ كنت أنشد وفيه من هو خير منك .

استأجر خداش وهو رجل من قريش ، رجلا من بنى هاشم ، فانطلق معه فى إبله ، فمر به رجل من بنى هاشم قد انقطعت عروة جُوالقه فقال :

ــ أغثنى بعقال أشد به عروة جوالقى مخافة أن تنفر الإبل .

فأعطاه عقالا فشد به عروة جوالقه ، فلما نزلوا عقلت الإبل إلا بعيرا واحدا ، فقال خداش :

ــ ما شأن هذا البعير لم يعقل من بين الإبل ؟

ــ ليس له عقال .

ــ فأين عقاله ؟

ــ مر بى رجل من بنى هاشم قد انقطع عروة جوالقه ، واستغاث بى فأعطيته .

فحذفه (رماه) خداش بعصا كان فيها أجله ، فمر به رجل من أهل اليمن وهو يجود بأنفاسه وقال له :

ــ أتشهد الموسم ؟

كان موسم الحج قد آن وكانت قبائل العرب فى طريقها إلى عكاظ ، قال اليمنى :

ــ ما أشهد وربما شهدته .

ــ هل أنت مبلغ عنى رسالة من الدهر ؟

ــ نِعْمَ ذلك .

فكتب الرجل وهو فى النفس الأخير .

ـــ إذا أنت شهدت الموسم فناد : يا آل قريش ، فإذا أجابوك فناد : يا آل بنى هاشم ، فإن أجابوك فاسأل عن أبى طالب فأخبره أن خداشا قتلنى فى عقال .

كان أبو طالب فى قوافل قريش المنطلقة إلى عكاظ ، وكان مطرقا مهموما فقد استدان من أخيه العباس السنتين الفائتتين لينفق على السقاية والرفادة على أمل أن تزدهر تجارته وتربو أرباحه فيتمكن من سداد دينه ويبقى من ماله فضل ينفقه على فقراء الحجاج ، وقد أرسل تجارته فى رحلة الشتاء إلى اليمن وفى رحلة الصيف إلى الشام ، وقد ربحت تجارته ولكن عياله وأهل بيته والضيفان أتوا على كل أرباحه فلم يبق معه ما يكفى سداد دين أخيه .

إن العباس أقرضه السنة الفائتة على شرط إن عجز عن سداد الدين أن تئول إليه السقاية والرفادة ، وهو عاجز هذه السنة عن أن يؤدى ما عليه ، ولا يحسب أنه قادر على أن يتشبث بهذا الشرف فأعباؤه المالية تتزايد على مر الأيام ، وقد صار العباس فى ثلاث سنين من أثرياء مكة يقرض من يشاء بالربا ، وهو قادر على أن ينهض بعبء سقاية حجيج بيت الله وإطعام فقرائهم .

وحطت قوافل قريش فى سوق عكاظ ، وذهب أبو طالب إلى أخيه العباس وقال له إنه لن يسدد ما عليه وأنه قد أصبح من حق العباس أن يأخذ السقاية والرفادة بما عليه من دين ، فكاد العباس أن يطير فرحا بهذا النبأ ، ففى غمضة عين صار سيدا من سادات قومه له من الشرف ما لحزام بن حكيم الذى دخل دار الندوة قبل أن يطر شاربه ، بل أنه تساوى

فى الشرف مع حرب بن أمية زعيم بنى أمية وهو لا يزال حدثا ، فحرب ابن أمية حامل لواء قريش ، وهو صاحب السقاية والرفادة فى قريش !

وضربت للنابغة الذبيانى فى السوق قبة حمراء من أدم ، وجاء إليه الأعشى وحسان بن ثابت والخنساء وشعراء العرب ، فراح الأعشى ينشد شعره وامرأة عربية ترقبه من بعيد. إنها امرأة المحلق فقد قدم الأعشى مكة قبل أن ينطلق إلى عكاظ ، وتسامع الناس به فقالت امرأة المحلق له :

ـــ إن الأعشى قدم وهو رجل مفوه مجدود فى الشعر ، ما مدح أحدا إلا رفعه ولا هجا أحدا إلا وضعه ، وأنت رجل كما قد علمت فقير خامل الذكر ذو بنات ، وعندنا لقحة نعيش بها ، فلو سبقت الناس إليه فدعوته إلى الضيافة ونحرت له واحتلت لك فيما تشترى به شرابا يتعاطاه ، لرجوت لك حسن العاقبة .

فسبق إليه المحلق فأنزل ونحر له ، فلما أكل الأعشى وأصحابه وكان فى عصابة قيسية ، قدم إليه الشراب واشتوى إليه من كبد الناقة وأطعمه من أطايبها ، فلما جرى فيه الشراب وأخذت منه الكأس سأله عن حاله وعياله ، فعرف البؤس فى كلامه وذكر البنات فقال الأعشى :

ـــ كفيت أمرهن .

وها هو ذا الأعشى بعكاظ ، ترى أيذكر بنات المحلق ؟

وانتهى الأعشى من قصيدته وراح حسان ينشد :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بنى العنقاء وابن محرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فلما انتهى منها قال النابغة :

ـــ أنت شاعر .

ولم يعجب الخنساء إطراء النابغة لحسان فقالت :

ـــ أى فخر يكون فى أن له ولعشيرته ولمن ينضوى إليهم من الجفان ما نهايتها فى العدد عشرة وكذا من السيوف ؟ ألا استعمل جمع الكثرة : الجفان والسيوف ؟ وأى فخر فى أن تكون جفنة وقت الضحوة ـــ وهو وقت تناول الطعام ـــ غراء لامعة كجفان البائع ؟ أما يُشبه أن قد جعل نفسه وعشيرته بائعى عدة جفنات ؟ ثم أنى يصلح للمبالغة فى التمدح بالشجاعة وأنه فى مقامها يقطرن ؟ أما كان يجب أن يتركها إلى يَسِلن أو ما شاكل ذلك ؟

وراحت الخنساء تنشد شعرها وقد ألقى الشعراء إليها سمعهم فاستولت على ألبابهم ، ولا غرو فأبوها شاعر وخالها شاعر وأختها سلمى شاعرة وأخوها زهير بن أبى سلمى من فحول شعرائهم ، وما انتهت الخنساء من قصيدتها حتى راح أحد الحاضرين يترنم بقصيدة أخيها زهير أحكم حكماء العرب :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة
يُضرَّس بأنياب ويُوطأ بمنسم[١]

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

---

(١) خف الجمل .

ومن لم يذد عن حَوْضه بسلاحه
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفي على الناس تُعلم

وقال قائل :

ـ إن كعب بن زهير ينشد الشعر و لما يشب عن الطوق .

وانتهت ندوة الشعراء فى قبة النابغة ، وقام الأعشى ينشد قصيدته على الناس فخفق قلب امرأة المحلق وأصبحت كل حواسها آذانا ، قال :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق
وما بى من سقم وما بى تعشق

ورأى المحلق اجتماع الناس فوقف يستمع وهو لا يدرى أين يريد الأعشى بقوله ، إلى أن سمع :

نفى الذم عن آل المحلق جفنة
كجابية الشيخ العراقى تفهق
ترى القوم فيها شارعين وبينهم
مع القوم ولدان من النسل دردق[1]

---

(١) الدردق : الأطفال وصغار الإبل .

تشب لمقروريـــن يصطليـــانها
وبـات على النـار النـدى والمحلـق
رضيعـى لبـان ثـدى أم تحالفـا
بأسحم داج عـوض[1] لا نتفـرق
ترى الجود يجرى ظاهرا فوق وجهه
كما زان متـن الهنـدوانى رونـق

ووقف المحلق مذهولا ودموعه تترقرق فى عينيه ، فهو لا يكاد يصدق أذنيه ، وما أتم الأعشى قصيدته إلا والناس ينسلون إليه جريا يخطبون بناته .

ودبت الحياة فى عكاظ ، شعر ينشد هنا وجدال يشب هناك ، وشباب ماجن يطلق الضحكات ، وبيع وشراء ، وفخر وهجاء . وجاء رجل من بنى نصر بن معاوية من هوازن بقرد ، فأوقفه فى السوق وقال بصوت عال :

— من يبيعنى مثل هذا بمالى عند فلان ؟

وكان فلان هذا رجلا من بنى كنانة كان عليه دين للنصرى فأعدم وصار لا يقدر على سداد دينه ، واستمر النصرى يصيح تعييرا للكنانى ولقومه :

— من يبيعنى مثل هذا بمالى عند فلان ؟

فمر به رجل من بنى كنانة فضرب القرد بسيفه فقتله ، فهتف النصرى :

---

(١) عوض : أبدا .

ـــ يا لهوازن !

وهتف الكنانى :

ـــ يا لكنانة !

فتهايج الناس حتى كاد أن يكون بينهم قتال ، ثم رأوا الخطب يسيرا فتراجعوا و لم يفهم الشر بينهم ، وكان ذلك الفِجار الثالث وبه انتهت أيام الفِجار الأول .

وانقضى عشرون يوما من صُبح هلال ذى القعدة ، فحمل الناس تجارتهم وأمتعتهم على رواحلهم وانطلقوا إلى سوق ذى مجنة ليستأنفوا تجارتهم ، وقبل غروب الشمس كان سهل عكاظ العريض الذى كان ينبض بالحياة قاعا صفصفا لا صوت ولا نأمة ، ولولا وسوسة نسيم الليل فى سعف النخيل وعواء كلب آت من بعيد لسكنت السوق سكون الرموس .

وانقضت أيام ذى المجنة وذى مجاز وتدفق الناس إلى مكة ليؤدوا فريضة الحج التى بقيت فى القبائل مذ أيام إبراهيم خليل الرحمن ، وإن تسلل إليها الشرك لما طال على الناس العمر .

كانوا يقفون المواقف كلها ، وكانوا يهدون الهدى ويرمون الجمار . وكان الرجل منهم إذا أحرم تقلد قلادة من شعر فلا يتعرض له أحد ، فإذا حج وقضى حجه تقلد قلادة من إذخر أو من لحاء شجر الحرم فلا يخاف من أحد ولا يتعرض له أحد بسوء .

كان الناس كلهم فيهم ملوك يدفع بعضهم عن بعض ، و لم يكن فى العرب ملوك كذلك ، فجعل الله تعالى لهم البيت الحرام قياما يدفع به بعضهم عن بعض ، فلو لقى الرجل قاتل أبيه أو ابنه عنده ما قتله .

وقد كانت قريش ابتدعت رأى الحمس رأيا رأوه وأداروه ، فقالوا :

— نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وسكانها . فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا ، فلا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم .

فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها وهم يعترفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم عليه السلام ، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها إلا أنهم قالوا :

— نحن أهل الحرم فليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما نعظمها ونحن الحمس أهل الحرم .

ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكنى الحل والحرم مثل الذى لهم بولادتهم إياهم يحل لهم ما يحل لهم ويحرم عليهم ما يحرم عليهم ، وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم فى ذلك .

ثم ابتدعوا أموراً لم تكن لهم حتى قالوا :

— لا ينبغى للحمس أن يأتقطوا الأقط (يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل) ولا يسلأوا السمن وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتا من شعر ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما كانوا حرما .

ثم رفعوا ذلك فقالوا :

— لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجا أو عماراً . ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس ، فإن لهم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت

عراة ، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ، ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً .

وسموا تلك الثياب « اللقى » فحملوا على ذلك العرب فدانت به ، ووقفوا على عرفات وأفاضوا منها وطافوا بالبيت عراة .

كان العرب يقاسون تنطع الحمس كما قاسى بنو إسرائيل من تنطع الصدوقيين والفريسيين . وكان محمد بن عبد الله يرى ذلك العنت فيضيق بذلك السخف ويرمى نفسه فى أحضان الكون ويرتفع إلى ما وراء الطبيعة ويسمو ليتصل بذات الذوات . وسيوحى إليه الله لما يبعثه إلى الناس رسولا يبطلان ما ابتدعوه : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » .

وأبطل الله ما ابتدعوه من تحريم الطعام واللبوس عند البيت حين طافوا عراة وحرموا ما جاءوا به من الحل من الطعام : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » .

وراح خداش الذى قتل الهاشمى الذى استأجره يطوف بالبيت ، ووقعت عينا أبى طالب عليه فأتاه وقال له :

ـــ ما فعل صاحبنا ؟

فقال خداش فى بساطة :

ـــ مرض ، فأحسنت القيام عليه فوليت دفنه .

فقال أبو طالب فى أسى :

ــ قد كان أهل ذاك منك .

وصدقه أبو طالب وراح يغدو ويروح فى الحرم يسهر على راحة الحجيج ، فإن كانت الرفادة والسقاية قد خرجت من يده إلى يد العباس فهو يستطيع أن يؤدى إلى الحجاج بعض الخدمات وأن يبذل لهم من عطفه ورعايته .

ورن صوت فى الحرم ينادى :

ــ يا آل قريش .

قالوا :

ــ هذه قريش .

قال الرجل اليمانى الذى أوصى إليه المقتول أن يبلغ عنه :

ــ يا بنى هاشم .

ــ هذه بنو هاشم .

ــ من أبو طالب ؟

ــ هذا أبو طالب .

فذهب اليمانى إلى أبى طالب وقال :

ــ أمرنى فلان أن أبلغك رسالة أن خداشا قتله فى عقال .

فأتى أبو طالب خداشا وقال له :

ــ اختر منا إحدى ثلاث : إن شئت أن تؤدى مائة من الإبل فإنك قتلت صاحبنا ، وإن شئت حلف خمسون من قومك أنك لم تقتله ، فإن أبيت قتلناك به .

فأتى خداش قومه فقالوا :

ـــ تحلف .

وكان حويطب بن أبى قيس العامرى فيمن قبل أن يحلف ، وكانت أمه امرأة من بن هاشم ، فلما عرفت أن ابنها سيحلف قسامة على باطل بين الركن والمقام فزعت وخافت على ابنها فهى تسمع من قومها أن أناسا حلفوا عند البيت على باطل ثم خرجوا فنزلوا تحت صخرة فانهدمت عليهم ، فجاءت أمه إلى أبى طالب وقالت :

ـــ أحب أن تجيز ابني هذا برجل من الخمسين ، ولا تصبر الأيمان (أى لا تلزمه أن يحلف بأعظم الأيمان) .

ففعل ، فأتاه رجل منهم فقال :

ـــ يا أبا طالبْ ، أردت خمسين رجلا أن يحلفوا مكان مائة من الإبل يصيب كل رجل بعيران ، فاقبلهما عنى ولا تصبر يمينى حيث يصبر الأيمان .

فقبلهما أبو طالب وجاء ثمانية وأربعون فحلفوا بين الركن والمقام أن خداشا برىء من دم المقتول ، وبات الناس ينتظرون ما سيحل بالذين حلفوا عند البيت على باطل ، وقال قائل :

ـــ والذى نفسى بيده لن يحول الحول ومن الثمانية والأربعين عين تطرف .

كان أبو طالب راضيا عن حياته كل الرضا وإن قل ماله ، سيدا فى قومه مسموع الكلمة وإن خرج من يده شرف السقاية والرفادة ، وكان الزبير مرهوب الجانب تخشى القبائل قذعه وهجوه ، وكان أبو لهب غارقا فى اللهو والميسر والمجون وما كانت مثل هذه الأفعال تشين الرجل فى مكة ، بل كانت ترفع ذكره ويتغنى بها الشعراء فى المجلس ، وكان حمزة

يشب فارسا ويتحلى بأخلاق الفرسان من نجدة ومروءة وكرم وإن عرف الكأس والشراب ، وكان العباس متهللا بعد أن انقاد له شرف السقاية والرفادة حلمه الذى كان يحلم به مذ مات عبد المطلب .

وكانت قريش تزهو على القبائل بأنها أهل الحرم الذى يأمن فيه الطير وأنهم بنو إبراهيم وإسماعيل ، وكانت راضية بما ابتدع لهم الحمس من فضائل وتفضيل ، وكان النصارى منهم واليهود يعظمون البيت أكبر تعظيم ويؤمنون بما قام حوله من أساطير ، ولم يحاول منهم أحد أن يعيد قومه إلى الجادة ويزيل الخرافات عن جوهر الحقيقة ، حتى الحنفاء اكتفوا بأن بحثوا عن دين إبراهيم وعبد كل منهم ربه على طريقته ، واكتفى بهداية ذاته ولم يدع إلى ربه ويحتمل فى سبيل دعوته الاضطهاد والتعذيب .

كان محمد بن عبد الله وحده يحاول أن ينطلق من جسده وينفصل عن مجتمعه ليهيم فى الوجود ويتصل بالله ، وإن الاتصال لا ينفصل عن إرادة الاتصال ، فهو فى صميم ذاته يستشعر أن الوصال غاية الغايات ، فى سبيله جهاد وصراع وعقبات وألم وتضحيات ، ولكنه شيء ينبغى أن يكون .

إن الله هو المطلق الأوحد الذى يوجه إليه نفسه ويسلم له وجهه ، وإن عليه أن يسعى إليه وأن يجعله أمله الذى يبذل كل طاقاته ليبلغه ، وإن كل جهد يهون وكل ألم يستمرأ وكل تضحية تحتمل فى سبيل أن تتحقق الغاية التى ما بعدها غاية : الاتصال بجوهر الحقيقة ، والاقتباس من نور النور ، وخفق قلب اليقين فى جنبات صدره .

إنه لا يألو جهداً فى سبيل تحرير ذاته من أسر جاهلية قومه ، ويجاهد جهاداً دائبا لكيلا يجد ذاته أسير نظام اجتماعى تختنق فى نطاقه كل حرية

وكل شخصية . وإن ذلك أليم شاق ، فهو يهجر الدعة والهدوء حيث لا ألم ولا شقاء إلى صراع النفس ومجاهدة الرغبات والشهوات والسمو بالغرائز ليصل إلى الانتصار الروحى الذى جعله هدفه ومبتغاه .

إنه يعرض عن كل سعادة أرضية سهلة هينة ، ويحتمل كل حرمان فى صبر ، ويفطم جوارحه عن شهوات النفس ، وينأى بروحه عن مسرات قومه ، ويحيا الحياة الروحية الصحيحة ، ويتحرر من القيود التى تشده إلى الأرض مهما قاسى فى سبيل ذلك من ألم ومشقة ليصل إلى السعادة الحقة ،.سعادة الوصال التى تتهلل لها نفسه ، والتى يفيض بها وجدانه بفرح يفوق كل أفراح الأرض .

إنه أصبح يشعر بالحقيقة المطلقة فى باطن تأمله العقلى الذى صار طابعه ، فهو ينظر إلى السموات والأرض فيرى آيات الله التى ملأ الله بها أجواء الكائنات ، ويسير فى الأرض فيكون له قلب يعقل به ويحفزه إلى التطلع لما وراء العقول والحواس والطبيعة من أسرار . وإن طول التأمل ومداومة التدبر والنظر فى الكون هى مفتاح الإشراقات الروحية التى تزداد تألقا على مر الأيام .

إنه لا يريد أن يطفىء مصباح عقله ويتبع ما ألفى عليه آباءه ، فهو يهتدى إلى أن آباءه لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ، بل إنه يريد أن يسمو عن مجتمعه بل ويسمو على ذاته وأن يسير فى طريق الترقى بالكفاح والجهاد والحرمان والتقشف والصبر الطويل ، حتى يصل إلى الروح المطلق ، روح الأرواح وذات الذوات .

كان أمية بن أبى الصلت من ثقيف ، وكان يمضى أغلب أيامه فى مكة فأمه رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف قرشية ، وهو يحب عبد الله بن جُدعان سيد بنى تيم لكرمه ، ويا طالما أمضى الأمسيات معه يصغى إلى مغنيتيه الجرادتين اللتين ذاع صيتهما فى مكة ، وكانت أحب أغانيهما إلى نفسه تلك الأغنيات التى تشدوان بها من شعره .

وكان ابن أبى الصلت يداعب ابن جدعان بشعره بين الحين والحين ، وكان يمدحه ويمدح طعامه وسمره ، وقد قال فيما قال :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى	حياؤك إن شيمتك الحياء
وعلمك بالحقوق وأنت فرع	لك الحسب المهذب والسناء
كريم لا يغيره صباح	عن الخلق الجميل ولا مساء
يبارى الريح مكرمة وجودا	إذا ما الكلب أجحره الشتاء
وأرضك أرض مكرمة بنتها	بنو تيم وأنت لها سماء
إذا أثنى عليك المرء يوما	كفاه من تعرضه الثناء

وكان أمية بن أبى الصلت يلقى أبا قحافة وابنه أبا بكر فى دار ابن جدعان ، وكان أبو قحافة يخرج فى تجارة قريش ، وكان ابن أبى الصلت يخرج فى قوافلها ، ولكن الصداقة لم تتوطد بين أبى قحافة وبين أمية ، بل اشتدت أواصرها بينه وبين أبى سفيان بن حرب .

كان بحكم مولده أميل فى شعوره إلى بنى أمية منه إلى بنى هاشم ، فهو وإن كان يصغى إلى شعر الزبير وأخيه أبى طالب ويشارك أبا لهب فى

سمره ، إلا أنه قد اتخذ أبا سفيان بن حرب خزانة أسراره ، وما كان يلتفت إلى محمد بن عبد الله فهو يراه غلاما من بني هاشم يسير فى ركاب أعمامه إذا ما ذهبوا إلى الأسواق ، ويغيب عن مجالس السمر والشراب ، ولم يشتهر بالظرف كطاهر بن الزبير ولا بالخلاعة كأبى سفيان وأبى لهب ، بل عرف عنه الانطواء والحياء والفرار من نوادى قومه ، وما كان ميله إلى العزلة ليلفت نظر شاعر مثل أمية يحيا حياة صاخبة فى الدور وفى القصور وفى أسواق العرب .

وكان يؤم دار ربيعة بن عبد شمس خاله ، ويداعب ابنى خاله عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، ويروى لمن فى الدار أبياتا من شعره ، ويحكى روائع ما رآه فى قصور اليمن والحيرة وحوران عاصمة الغساسنة ، فقد سافر مع عبد المطلب لتهنئة سيف بن ذى يزن لما انتصر على الحبشة. كان يومها فى مقتبل عمره ، وقد قال بين يدى ابن ذى يزن :

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا
فى رأس (غُمدان) دار منك محلالا

وشد الرحال إلى النعمان بن المنذر فى قصر الخورنق ، وانطلق إلى أمراء الغساسنة ينشد أشعاره ويزين السؤال والعطاء ، ولا غرو فهو القائل :

عطاؤك زين لامرئ إن حبَوته
بخير وما كان العطاء يزين
وليس بشَين لامرئ بذل وجهه
إليك كما بعض السؤال يشين

وكان يروى نوادر الشعراء والأجواد ، ويقص أن أول ما ظهر من

جود حاتم الطائى أن أباه خلفه فى إبله وهو غلام ، فمر به جماعة من الشعراء فيهم عبيد بن الأبرص وبشر بن أبى حازم والنابغة الذبيانى يريدون النعمان بن المنذر ، فقالوا له :

— هل من قِرَى ؟

ولم يعرفهم فقال :

— أتسألونى القرى وقد رأيتم الإبل والغنم ؟! انزلوا .

فنزلوا فنحر لكل واحد منهم وسألهم عن أسمائهم فأخبروه ، ففرق فيهم الإبل والغنم ، وجاء أبوه ولم يجد إبلا ولا غنما فقال :

— ما فعلت ؟

— طوقتك مجد الدهر طوق الحمامة .

وعرفه القصة فقال أبوه :

— إذا لا أساكنك بعدها أبدا ولا آويك .

— إذاً لا أبالى .

وكان حديث حاتم يعيد إلى الأذهان ذكر أشعاره ، فكان أحدهم يروى ما قاله لزوجته ماوية بنت عبد الله :

أماوىَّ قد طال التجنب والهجر
وقد عذرتنا فى طلابكم العذر

أماوىّ إن المال غاد ورائح
ويبقى من المال الأحاديث والذكر

أماوىّ إما مانع فمبين
وإما عطاء لا يُنَهْنِهه الزجر

أمــاوىّ إنى لا أقــولُ لسائــل
إذا جاء يوما حل فى مالى النّـزْر
أماوىّ لا يغنــى الثراء عــن الفتــى
إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
أمــاوىّ إن يصبــح صداى بقفــرة
مــن الأرض لا مــاء لــدىّ ولا خمر
تَرى أن مــا انفــقت لم يك ضرنى
وأن يــدى مما بخلت بــه صفــر
إذا أنــا دلاّنى الذيــن يلوننــى
بمظلمــة لج جــوانبها غبر
وراحــوا سراعــا ينــفضون أكفهــم
يقولــون قــد أدمــى أظافرنــا الحفــر
أمــاوىّ إن المال مــال بذلتــه
فأولــه شكــر وآخــره ذكــر
وقــد يعلــم الأقــوام لــو أن حــاتما
أراد ثــراء المال كان لــه وفــر
فــإنى وجــدى رب واحــد أمــة
أخــذت فــلا قتــل عليــه ولا أسر
ولا أظلم ابــن العــم إن كان إخــوتى
شهــوداً وقــد آوى بإخوتــه الدهــر
غنينــا زمانــا بالتــقصد والغنــى
وكل سقانــا وهــو كاسبنــا الدهــر

فما زادنا مأوى على ذى قرابة
غنانا ولا أزرى بأحلامنا الفقر

وتأهبت قافلة قريش للانطلاق إلى الشام ، وخرج أمية بن أبى الصلت فى تجارة ثقيف . إنه لا يفارق أبا سفيان بن حرب فى الليل أو فى النهار ، إنه يجاذبه أطراف الحديث ويروى شعره ويصغى إلى ما يردده أبو سفيان من أشعار غيره من الشعراء ، فقد كان الشعر غذاء الأرواح وراحة النفوس .

ونزلت القافلة بالقرب من صومعة راهب ، فإذا بأمية ينسل إلى الصومعة ويطرق الباب فى رفق ثم يستأذن فى الدخول ، فلما أذن له الراهب دلف إلى داخل الصومعة وأدار عينيه فى المكان وهو يعجب للبساطة التى تسود الصومعة ، ويمتلئ فؤاده خشوعا للروحانية التى تغمر كل شىء .

وجلس أمية إلى الراهب ودار بينهما حديث الدين ، فإذا بالراهب يذكر أن نبيا سيبعث من قبل بيت الله وأن زمانه قد آن ، وراح يصف ذلك النبى فسرت قشعريرة فى جسم أمية فبعض صفات النبى المنتظر هى صفاته ، وتدسس فى ضميره أنه قد يكون ذلك النبى ، فعزم على أن ينزل بصوامع الرهبان وأن يطوف بالكنائس يتدارس أمر الدين ، حتى إذا ما بعث إلى قومه كان على علم بالكتاب والإيمان وبمن سبقه من الأنبياء الصالحين .

واستأنفت القافلة رحلتها فشرد أمية يفكر فيما سمع من الراهب ، وكان يظل فى تأمله وتفكيره حتى تحط القافلة بالقرب من صومعة أو بيعة أو كنيسة فيهرع إلى رجال الدين يحاورهم ويحاورونه ويلقى إليهم سمعه .

وما انتهت الرحلة حتى كان أمية بن أبى الصلت قد تنصر ولبس مسوح الرهبان وعاد يحمل الكتاب المقدس ، وقد وطد النفس على أن يعكف عليه يلتهم ما فيه .

واعتزل أمية قومه الثقفيين وراح يقرأ فى التوراة ، حتى إذا ما وجد بشارة بالنبى المرتقب وقف عندها يستبطن أسرارها ، قرأ : « جاء الله من طور سيناء ، وأشرق لنا من ساعير ، واستعلن من جبال فاران » وترك الكتاب وأطلق لخياله العنان ؛ جاء الله من طور سيناء ، فإن مجىء الله هو مجىء كتابه وأمره ، وقد نزلت التوراة على موسى فى طور سيناء ؛ وأشرق من ساعير كناية عن ظهور أمره وكلامه ، وساعير جبل بالشام وبالقرب منه قرية الناصرة التى ولد فيها المسيح ونزل فيها الإنجيل على المسيح ؛ واستعلن من فاران أى سيظهر أمره من فاران ، وفاران هى مكة وليست الطائف . وكاد الأسى ينزل بقلب أمية ولكنه راح يقنع نفسه أن الطائف مصيف مكة وأنها قطعة منها !

واستأنف القراءة فى التوراة حتى توقف عند قول الله لموسى : « والله ربك يقيم نبيا من إخوتك ، فاستمع له كالذى سمعت ربك فى حُوريت يوم الاجتماع حين قلت : لا أعود أسمع صوت الله ربى لئلا أموت ، فقال الله لى : نعم ما قالوا : وسأقيم لهم نبيا مثلك من إخوتهم ، وأجعل كلامى فى فمه ، فيقول لهم كل شىء آمره به ، وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمى فإنى أنتقم منه » .

وشرد أمية يفكر فيما يقرأ ، فموسى وقومه من بنى إسحاق وإخوته بنو إسماعيل ، ولو كان الموعود من بنى إسحاق لكان من أنفسهم ، لا من إخوتهم ، وإنه ليذكر أنه قرأ فى التوراة : « لا يقوم فى بنى إسرائيل

أحد مثل موسى » فالنبى الموعود من بنى إسماعيل وهو من بنى إسماعيل ، وإنه ليتأهب بالاعتكاف والدراسة أن يوحى الله إليه بكلامه لينطق به .

وراح يقرأ فى زبور داود : « اللهم اجعل جاعل السُّنة يحيا ، يعلم الناس أنه بشر » . « إنه فاضت الرحمة على شفتيك ، من أجل ذلك أبارك عليك إلى الأبد . فتقلد السيف فإن بهاءك وحمدك الغالب ، واركب كلمة الحق فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك ، والأمم يخرون تحتك » .

وراح يقرأ فى أشعيا : « عبدى الذى سرت به فى نفسى ، أنزل عليه وحيى ، فيظهر فى الأمم عدلى ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ولا يسمع صوته فى الأسواق ، يفتح العيون العمى والآذان الصم ويحيى القلوب الغلف ، وما أعطيه لا أعطى أحدا . مشقع (محمد) يحمد الله حمدا جديدا ، يأتى من أقصى الأرض . تفرح البرية ، وسكانها يهللون الله على كل شَرَف ويكرزونه على كل رابية ، ولا يضعُف ولا يغلب ولا يميل إلى الهوى ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة ، بل يقوى الصديقين ، وهو ركن المتواضعين ، وهو نور الله الذى لا يطفأ ، أثر سلطانه على كتفيه »(١) .

وقرأ قول أشعيا : « قم نظَّارا فانظر ما ترى فأخبر به ، فقلت : أرى

---

(١) الأجزاء السابقة ذكرت البشارات حسب الترجمة العربية للكتاب المقدس التى طبعت بتكلفة جمعية التوراة الأمريكانية ، أما البشارات هنا فهى مأخوذة عن الترجمة الواردة فى « خير البشر » لابن ظفر والسيرة الحلبية والزرقانى .

راكبين مقبلين ، أحدهما على حمار والآخر على جمل ، يقول أحدهما لصاحبه : سقطت بابل وأصنامها » .

وانفعل أمية بما قرأ أشد الانفعال ، فقد جاء عيسى على حمار و لم يبق إلا صاحب الجمل ولا يظن إلا أنه هو ، وبلغ به التأثر حتى طفرت الدموع من مآقيه وسالت تغسل وجهه .

وقرأ : « أيتها العاقر ! افرحى واهتزى وانطلقى بالتسبيح ، فإن أهلك يكونون أكثر من أهلى » .

وفكر أمية فالعاقر مكة لأن الله لم يبعث بها نبيا ، وها هو أوان بعثه قد آن وسيكون أهلها أكثر من أهل أورشليم وقرأ قول شمعون : « جاء الله بالبينات من جبال فاران ، وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته » . وقرأ كتاب حزقيل ، وكان يروى كفران اليهود للنعم فشبههم فيها بالكرمة حيث قال : لم تلبث تلك الكرمة أن قلعت بالسخطة ورمى بها على الأرض ، فأحرقت السمائم أثرها ، فعند ذلك غرس غرس فى البدو وفى الأرض المهملة العطشى ، فخرجت من أغصانه الفاضلة نار فأكلت تلك الكرمة حتى لم يوجد فيها قضيب » .

يا لها من بشارة ! وهل أرض البدو المهملة العطشى غير أرض العرب ، وهل سيُخزى الله اليهود بغيره ؟ وعكف أمية على التوراة يقرأ من كلام خيقوق : « إذا جاءت الأمة الآخرة يسبِّح بهم صاحب الجمل تسبيحا جديدا فى الكنائس الجدد ، فافرحوا وسيروا إلى صهيون بقلوب آمنة وأصوات عالية ، بالتسبيحة الجديدة التى أعطاكم الله فى الأيام الآخرة ، أمَّة جديدة بأيديهم سيوف ذوات شفرتين ، فينتقمون من

الأمم الكافرة فى جميع الأقطار »[١] .

وملأت فكرة أنه النبى المنتظر وجدانه ، فراح ينظر فى الإنجيل ويقف طويلا عند البشارات وعند الفارقليط الذى بشر به المسيح : « إن أجبتمونى فاحفظوا وصيتى ، وأنا أطلب إلى أبى فيعطيكم فارقليط آخر يكون معكم الدهر كله » . « إن هذا الكلام الذى سمعتموه ليس هو لى ، بل للأب الذى أرسلنى ، كلمكم بهذا وأنا معكم ، فأما الفارقليط روح القدس الذى يُرسِل أبى باسمى ، فهو يعلمكم كل شىء ويذكركم جميع ما أقول لكم » .

« إذا قال الفارقليط الذى أرسل إليكم من عند أبى ، روح الحق الذى يخرج من الأب ، فهو يشهد لى وأنتم تشهدون لى أيضا لكينونتكم معى من أول الأمر » .

لمن يكن أمية بن أبى الصلت يعرف بماذا يشهد للمسيح ، فهو لا يدرى شيئا عما افترى عليه وبأنه روح الله وكلمته وصفيه ورسوله ، ولكنه لم يقف طويلا عند هذه البشارة وراح يقرأ قول المسيح : « إن انطلاقى خير لكم ، لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط ، فإذا انطلقت أرسلتُ به إليكم ، فإذا جاء فند أهل العلم » . ترى ما الذى يفنده الرسول المرتقب ؟ إنه سيفند علماء اليهود النصارى فيما أطبقوا عليه من أن المسيح قتل وصلب بعد أن عذب ، وما انفرد به علماء اليهود من بهتانهم فى الطعن على السيد المسيح ، وما انفرد به علماء النصارى من الدعوة إلى ألوهية المسيح . إن الله سيوحى إلى عبده بالحقائق ، وكان أمية

---

(١) خير البشر لابن ظفر .

يؤمن بالصلب والقتل والبنوة !

« الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب ، فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاء نفسه ولكنه ما يسمع يكلّم به ويسوسهم بالحق ويخبرهم بالحوادث والغيوب » .

على أية خطيئة سيوبخ أمية العالم ، إنه لا يدرى ، وإنه يترقب أن يسمع من الله ما يقوله فى شأن هذه الخطيئة ، وما دار بخلده أن الخطيئة التى أوجبت توبيخ العالم هى قولهم اتخذ الرحمن ولدا ، وقولهم : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقولهم إن الله ثالث ثلاثة ، وسيوحى الله إلى رسوله « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة » ، « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم » .

وأوهم أمية بن أبى الصلت نفسه أنه هو ذلك النبى الذى تنتظره بلاد العرب ، فخرج إلى نساء ثقيف وراح يحدثهن أن نبيا قد أوشك أن يبعث ، وأنه ذلك النبى المنتظر .

— ٢٥ —

كان النعمان بن المنذر فى قاعة العرش بقصر الخورنق ، وكان رجال من أشراف عرب الجزيرة عنده فيهم عروة الرحّال بن عتبة بن جعفر بن كلاب سيد هوازن ، والبرّاض من كنانة ، وكان موسم الحج قد أشرف ، وكان النعمان يبعث بسوق عكاظ فى كل عام قافلة تجارية فى جوار رجل شريف من أشراف العرب يجيرها له ، حتى تباع هناك . ويشترى له بثمنها من أدم الطائف ما يحتاج إليه .

وكانت العرب تجتمع فى عكاظ للتجارة والتهيؤ للحج من أول ذى القعدة ، فجهز النعمان عير التجارة ثم قال :

— من يجيرها ؟

فقال البراض بن قيس النمرىّ :

— أنا أجيرها على بنى كنانة .

فقال النعمان :

— ما أريد إلا رجلا يجيرها على أهل نجد وتهامة .

فقال عروة الرحّال وهو يومئذ رجل هوازن :

— أكلب خليع يجيرها لك أبيت اللعن ؟ أنا أجيرها لك على أهل الشيح والقيصوم من أهل نجد وتهامة .

فقال البراض فى غضب وإنكار :

— أعلى بنى كنانة تجيرها يا عروة ؟

— وعلى الناس كلهم .

فدفعها النعمان إلى عروة فخرج بها ، وتبعها البّراض وعروة لا يخشى منه شيئا لأنه كان بين ظهرانى قومه من غطفان إلى جانب فَدك إلى أرض يقال لها أوارة فى بلاد بنى تميم ، فنزل بها عروة فشرب من الخمر وغنته قينة ، ثم قام فنام . فجاء البراض فدخل عليه فناشده عروة وقال :

— كانت منى زلة ، وكانت الفعلة منى ضلّة .

فقتله وخرج يرتجز ويقول :

قد كانت الفعلة منى ضلّة

هلا على غيرى جعلت الزلة

فسوف أعلو بالحُسام القلة

وظل البرَّاض بفخر بقتل سيد هوازن ويقول :

وداهيــــــة يهال النــــــاسُ منها
شددتُ لها ، بنــى بكــر ، ضُلوعــى
هتــكت بها بيــوتَ بنــى كــلاب
وأرضعت الموالى بـــــــــالضُّروع
جمعت لــه يــدىّ بــنصل سيــف
أفــلَّ ، فخــر كالجذع الصريـــع

واستاق البرَّاض العير إلى خيبر ، واتبعه المُسلور بن مالك الغطفانى وأسد بنى خيثم الغنوى حتى دخل خيبر ، فكان البراض أول من لقيهما فقال لهما :

— من الرجلان ؟

— من غطفان وغنَىّ .

فقال البراض وقد أحس الخطر :

— ما شأن غطفان وغنى بهذه البلدة ؟

قالا :

— ومن أنت ؟

— من أهل خيبر .

— ألك علم بالبرَّاض ؟

— دخل علينا طريدا خليعا فلم يؤوه أحمد بخيبر ولا أدخله بيتا .

— فأين يكون ؟

— وهل لكما به طاقة إن دللتكما عليه ؟

— نعم .

— فانزلا .

فنزلا وعقلا راحلتيهما . قال :

— فأيكما أجرأ عليه وأمضى مقدما وأحد سيفا ؟

قال الغطفانى :

— أنا .

قال البراض :

— فانطلق أدلك عليه ويحفظ صاحبك راحلتيكما .

ففعل . فانطلق البراض يمشى بين يدى الغطفانى حتى انتهى إلى خربة فى جانب خيبر خارجة عن البيوت ، فقال البراض :

— هو فى هذه الخربة وإليها يأوى ، فانظرنى حتى أنظر أثمّ هو أم لا .

فوقف له ودخل البراض ، ثم خرج إليه وقال :

— هو نائم فى البيت الأقصى خلف هذا الجدار عن يمينك إذا دخلت ، فهل عندك سيف فيه صرامة ؟

— نعم .

— هات سيفك أنظر إليه أصارم هو ؟

فأعطاه إياه ، فهزه البرّاض ثم ضربه حتى قتله ووضع السيف خلف الباب ، وأقبل على الرجل الآخر فقال الغنوى :

— ما وراءك ؟

— لم أرَ أجبن من صاحبك ، تركته قائما فى الباب الذى فيه الرجل والرجل نائم لا يتقدم إليه ولا يتأخر عنه .

قال الغنوى :

ـــ يا لهفاه ، لو كان أحد ينظر راحلتينا ؟

ـــ هما عليَّ إن ذهبت .

فانطلق الغنوى والبراض خلفه ، حتى إذا جاوز الغنوى باب الخربة أخذ البراض السيف من خلف الباب ، ثم ضربه حتى قتله ، وأخذ سلاحيهما وراحلتيهما ثم انطلق .

وكانت سوق عكاظ تموج بقريش وكنانة وهوازن وكل قبائـــل العرب .

وبلغ قريشا خبر البرَّاض فأيقنوا أن هوازن لن ترضى بقتل البراض بعروة ، فالبراض خليع من بنى كنانة وعروة الرحال سيد هوازن ولا بد من أن يقتلوا به عظيما من قريش ، فقر رأيهم على أن يعودوا إلى الحرم يلوذون به .

وبلغ قيس قتل زعيمهم وفرار قريش إلى مكة ، فخرجت فى أثرهم وعليهم أبو براء بن مالك فأدركوهم وقد دخلوا الحرم ، ونادوهم :

ـــ يا معشر قريش ، إنا نعاهد الله أن لا يبطل دم عروة الرحال أبدا ونقتل به عظيما منكم ، وميعادنا وإياكم هذه الليالى من العام المقبل .

فقال حرب بن أمية لأبى سفيان ابنه :

ـــ قل لهم إن موعدكم قابل فى هذا اليوم .

فقال خداش بن زهير فى هذا اليوم وهو يوم نخلة :

يـــا شِدَّةً مـــا شددنـــا ، غير كاذبـــة

على سخينـــة[1] لـــولا البـــيت والحرم

---

(١) كانت العرب تسمى قريشا سخينة لأكلها السخن .

لما رأوا خيلنـــا ترجـــى أوائلهـــا
آساد غيـــل حمى أشبـــالها الأجَـــمُ
واستُقبلـــوا بضراب ، لا كفـــاءَ لـــه
بيـــدى العـــزَّل الأُكفـــال مـــا كتمـــوا
ولَّـــوا شلالا ، وعُظـــمُ الخيـــل لاحقـــة
كما تخب إلى أوطـــانها النَّعـــمُ
ولت بهم كل مِـــحْضار مُلملمـــة
كـــأنها لقـــوة[1] يحثهـــا ضَرَم

وحال الحول وتأهب الناس للانطلاق إلى عكاظ ، فجمعت كنانة قريشها وعبد منافها والأحابيش ومن لحق بهم من بنى أسد بن خزيمة ، وسلح يومئذ عبد الله بن جدعان مائة كَمِىٍّ بأُداة كاملة سوى من سلح من قومه .

وجمعت سُليم وهوازن جموعهما وأحلافهما غير كلاب وبنى كعب فإنهما لم يشهدا يوما الفجار غير يوم نخلة ، فاجتمعوا بشمطة من عكاظ فى الأيام التى تواعدوا فيها على قرن الحول ، وعلى كل قبيلة من قريش وكنانة سيدها ، وكذلك على قبائل قيس ، غير أن أمر كنانة كلها إلى حرب بن أمية ، وعلى إحدى مجنبتيها عبد الله بن جدعـان ، وعلى الأخرى كريز بن ربيعة ، وحرب بن أمية فى القلب ، وأمر هوازن كلها إلى مسعود بن معتب الثقفى .

فتناهض الناس وزحف بعضهم إلى بعض ، فكانت الدائرة فى أول

(١) اللقوة : الخفيفة السريعة .

النهار لكنانة على هوازن ، حتى إذا كان آخر النهار تداعت هوازن وصابرت وانقشعت كنانة ، فاستحرَّ القتل فيهم فقتل منهم تحت رايتهم مائة رجل ، ولم يقتل من قريش أحد يذكر .

فكان يوم شمطة لهوازن على كنانة .

ومرت سنة وجمع هؤلاء وأولئك فالتقوا على قرن الحول فى اليوم الثالث من أيام عكاظ ، ودارت الحرب وقتل من قريش العوام بن خويلد والد الزبير بن العوام وشقيق خديجة ، وستحزن عليه خديجة حزنا يفوق حزنها على أبيها الذى مات فى نفس العام .

قتل مرة بن مُعتَب الثقفى العوام بن خويلد ، فقال رجل من ثقيف :

منَّا من اتَّرك العوام مُجندلا
تنتابه الطير لحما بين أحجار

وانتصرت فى هذا اليوم هوازن على كنانة ، ولما كانت الحرب قد دارت عند العبلاء فقد سمى ذلك اليوم يوم العبلاء ، وفيه يقول خداش ابن زهير :

ألم يبلغك ما لقيت قريش
وحى بنى كنانة إذ أُبيروا[1]
دهمناهم بأرعن مكفهر
فظل لنا ، بعَقْوتهم[2] زئير

وانصرم عام ، وخرجت قريش وكنانة وخرج آل عبد المطلب فيمن

---

(١) أهلكوا .

(٢) العقوة : شجر .

خرج إلى عكاظ . وقد أخذ أبو طالب ابن أخيه محمد بن عبد الله معه فهو يتفاءل به ويرجو أن يكون النصر حليفهم ببركته ، وحمل ابن جدعان مائة رجل على مائة بعير ممن لم تكن له حمولة ، وقد كان لهوازن على كنانة يومان ، يوم شمطة ويوم العبلاء ، وكانت قريش وكنانة تطمع فى النصر وإزالة ما لحق بهم من عار .

والتقى هؤلاء وأولئك على قرن الحول فى الثالث من أيام عكاظ بشَرِب ، فحميت قريش وكنانة ، وقيد أمية وحرب ابنا أمية بن عبد شمس وأبو سفيان بن حرب أنفسهم كيلا يفروا ، فسموا العنابس (الأسود) . وصابرت بنو مخزوم وبنو بكر ، وراح محمد بن عبد الله ينبل على أعمامه ، وراح أبو ربيعة بن المغيرة يقاتل برمحين فسمى بذى الرمحين ، واستبسل قصى بن المغيرة وهاشم بن المغيرة فى القتال ، فانهزمت هوازن وقتلت قتلا ذريعا وأثلجت صدور القرشيين ، والتفت أبو طالب إلى ابن أخيه محمد بن عبد الله وقال له :

— لا أبالك لا تغب عنا .

وقال عبد الله بن الزّبعرى يمدح بنى المغيرة :

ألا لله قـــــوم وَ	لَدت أخت بنى سَهم
هشام وأبـــو عبـــد	مناف مدره[1] الخصم
وذو الرمحين ، أشبال	مـــن القـــوة والحزم
فهـــذان يـــذودان	وذا من كثب يَرمى

وقال جذل الطعان :

---

(١) المسيد : زعيم القوم .

جـــاءت هـــوازن ، أرسالا وإخـــوتها
بنـــو سليم ، فهابـــوا الموت وانصرفـــوا
فاستقبلـــوا بضراب فضَّ جَمْعهـــم
مثل الحريق ، فمـا عاجـوا ولا عطفـوا

وانقضت سنة وقريش سعيدة بنصرها وأبو طالب ينظر إلى ابن أخيه فى إكبار ، فقد وقر فى ضميره أن النصر كان ببركة ابن عبد الله . وخرجت قريش وأراد عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أن يخرج مع الخارجين ولكن حرب بن أمية أشفق من خروجه ، فقد كان يتيما فى حجره فضن به .

والتقى القرشيون والكنانيون بهوازن وبنى سُليم بالحريرة وهى حَرَّة إلى جنب عكاظ ، ودار قتال رهيب ، فقتل أبو سفيان بن أمية أخو حرب بن أمية ، وقتل خلق من الجانبين ، وإذا برجل بين الصفين ينادى :

— يا معشر مضر علام تفانون ؟

فقالت هوازن : ما تدعو إليه ؟

— الصلح ، الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم ونعفو عن دمائنا .

— وكيف ؟

— ندفع لكم رهنا منا إلى أن نوفى لكم ذلك .

— ومن لنا بهذا ؟

— أنا ؟

— ومن أنت ؟

— عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

وراح حرب بن أمية ينظر إلى عتبة فى إعجاب وإن كان قد خرج بغير إذنه ، ورضيت بما حكم هوازن وكنانة وقريش ، ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلا فيهم حكيم بن حزام ابن أخى خديجة بنت خويلد ، فلما رأت هوازن الرهن فى أيديهم عفوا عن الدماء وأطلقوهم ، وخشى الطرفان أن تثور حروب فى الأشهر الحرم فاتفقا على أن يترك كل من يرد إلى عكاظ سلاحه عند عبد الله بن جدعان ، حتى إذا ما انتهت أيام الموسم ، أعاد ابن جدعان إلى كل سلاحه ، وبذلك انقضت أيام الفجار التى قال فيها محمد بن عبد الله بعد أن بعث : « قد حضرته مع عمومتى ورميت فيه بأسهم ، وما أحب أنى لم أكن فعلت » .

— ٢٦ —

تداعى الناس إلى الصلح بعد أن سالت دماء بريئة فى الفجار الآخر ، وعادت كنانة وقريش والأحابيش حلفاؤهم ، وراح الناس يطوفون بالبيت ويشكرون آلهتهم أن حقنت دماءهم .

كانت الأحابيش قوة عربية عسكرية تحمى القوافل وتخوض غمار القتال مع حلفائها ، وقد تحالفت قريش والأحابيش الأحلاف فصاروا حلفاء لقريش دون بنى كنانة ، والذين عقدوا معهم من قريش بنو عبد مناف بن قصى . والأحابيش بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والحيا والمصطلق من خزاعة والقارة بنو الهون بن خزيمة ، فكانت قريش والأحابيش أحلافا متعاقدين ، والأحابيش على بنى بكر بن عبد مناة وبنى مدلج ، فإن دهمهم أمر اجتمعوا فصاروا يدا واحدة . وكانت

هذيل مع قريش والأحابيش ، وكانت خزاعة كلها إلا الحيا والمصطلق مع بنى مدلج .

وتحالفت قريش وبنو الحارث بن عبد مناة والحيا والمصطلق من خزاعة بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة ، فسموا أحابيش قريش باسم الوادى . وكان تحالف قريش والأحابيش على الركن ، يقوم رجلان أحدهما من قريش والآخر من الأحابيش فيضعان أيديهما على الركن فيحلفان بالله القائل بحرمة هذا البيت والمقام والركن والشهر الحرام ، على النصر على الخلق جميعا ، وعلى التعاقل والتعاون وعلى من عاداهم من الناس جميعا ما بل بحر صدفة ، وما قام حراء وثبير ، وما طلعت الشمس من مشرقها وما غربت من مغربها .

وذهب رجال الحكومة إلى دار الندوة ، وأخذت كل أسرة مكانها عند البيت فالأسرة هى المجتمع عند المكيين ، والمال هو عصب الحياة ومقوم الرجال ، والرقيق هو نبع الثراء ومصدر الثروات ، ومن عجب أن ساد فى هذا المجتمع أبو طالب وعتبة بن ربيعة بن عبد شمس وكانا أفلس من أبى المزلق ، وهو رجل من بنى عبد شمس لم يكن يجد مئونة ليلته ، وكذا أبوه وجده كلهم يعرفون بالأفلاس .

وعاد المجتمع المكى إلى لهوه وعبثه وسمره ، وراحت كل قبيلة تنصر بنيها فى مظالمهم ، فكان أشراف القوم يغتصبون حقوق الغرباء الوافدين إلى الحرم فلا يجد المظلومون ناصرا ولا وليا ، وراح الأرقاء يقومون بأشق الأعمال بالنهار والفتيات بأحط الأعمال فى الليل ، ليضعوا فى أيدى السادة أموالا ينفقونها على القيان والخمر والميسر وفى دور البغايا .

وهجر محمد بن عبد الله المجتمع المكى بشروره ووثنيته وعصبيته

ومظالمه . كان إذا ما انتهى من عمله اعتزل الناس وهام فى الوجود ليتطلع إلى عرش فوق تاج الشمس ، عرش النور الذى لا يأفل ولا يغيب يستلهم منه نور اليقين ، فقد اختار العزلة فى نور النور لينفرد بالأنس به والاتجاه إليه ، ويقتبس من فضله علما وحكمة .

كان يقلب وجهه فى السماء فى صمت ، وإن كانت كل جوارحه فى أعمق صلاة !، فما آن بعد أوان إزاحة الصمت عن فمه ، فشدو الطبيعة لم يزل فى سمعه صداحا ، وجمال الكون فى عينيه انبهارا ، بيد أن غايته فوق إدراك العيون كل العيون ، وفوق إدراك الخيال كل الخيال .

كان الوجود فى جوارحه ترنيمة قدسية ، ولو كان شاعرا لتغنى بما تهللت به الحواس . ولكنه كان وراء جوهر الحقيقة ، روح الحق ، ذات الذوات ، فراح يغوص فى أعماق الأعماق ويحلق فوق السموات لتسكن الجوارح إلى قواعد الأشياء وتسلم بها ، وليهمّ القلب إلى الحكمة والتفويض حتى يكون الرضا بما يكون كيفما يكون .

إن نفسه تواقة إلى طلب العلم الحق ، وهو يبغى أن يذوقه من منابعه الغزيرة التى تفيض بالسقى ، وقد بدأ يحس فى مصيم وجدانه أن رب الكون لا يعطى العلم من لا يسأله ، ولا يلهمه لمن لا يتقيه ، فراح يجتهد فى سؤاله ويجاهد فى سبيل تقواه والخضوع له والرغبة فيه ليشرح له صدره بالعلم . وينير له قلبه بالفهم ونور اليقين .

وفى عزلته راح يفكر فى الموت وما بعد الموت ، فى عبد الله وآمنة وعبد المطلب وكل الذين ذهبوا دون أوبة ، ترى ماذا بعد الموت ؟ إنه لايعجز عن إماطة اللثام عن ذلك السر وإن استشعر فى أعماق ذاته أن

أستار سر الوجود تكاد أن ترتفع عن الحقيقة ، إنه فى طريقه إلى الخير الأسمى وسينفذ إلى سر الأزلية ، وعندها سترتفع الحجب عن كل ما فى الوجود من أسرار .

إنه فى ساعات تأمله يعيد نسيج نفسه بالعلم والنور والحكمة التى يستمدها من الذات العلية ؛ من الحقيقة المقدسة ، وإنه ليتحمل كل مشقة وكل ألم وحرمان فى صبر عجيب ليصبح الإنسان الكامل ، خير البشرية ، الذى يتلقى وحى السماء ليبلغه لأهل الأرض .

وكان الفجار الآخر هو حديث النوادى فى مكة بعد أن تم الصلح بين كنانة وقريش وبين هوازن ، وكان كل رجل منهم يحدث حديثه فى فخر أو أسى أو ندم ويروى ما علق فى ذهنه من الأشعار الكثيرة التى أنشدت فى تلك الأيام .

كان ابن محمية أخو بنى الدئل بن بكر فى نادى قومه يروى فى ندم ما فعله يوم الحزيرة آخر أيام الفجار ، قال :

ــ كان الرجل يلقى الرجل أو الرجلين أو أكثر من ذلك أو أقل فيقتتلون ويقتل بعضهم بعضا ، وبينا كنت سائرا لقيت أخا خداش بن زهير بالصفاح بين حنين وأنصاب الحرم على يسار الداخل إلى مكة من عرفات ، فتذكرت ما قاله خداش فينا من هجو ، فرفعت سيفى لأقتل الرجل فقال :

ــ جئت معتمرا .

وكانت دماء الغضب قد ثارت فى عروقى فقلت :

ــ لا يلقى الدين أن قلت معتمرا .

وعدوت عليه فقتلته ، ولما رأيته جثة هامدة تحت قدمى اعترانى ندم ،

واقشعر جلدى خشية غضب الإلٰه أن قتلت من جاء معتمرا يبغى وجهه ، فقلت :

اللهـم إن العامـرى المعتمـر لم آت فيـه عُـذرا لمعتـذر

وراح ابن محمية يروى ما قال من شعر ، بينا كان رجل يقص فى ناد آخر حول الحرم بعض ما كان فى يوم الحزيرة قال :

ـــ ثم إن الناس تداعوا إلى السلم على أن يُرى الفضل من القتلى التى فيهم أى الفريقين أفضل على الآخر ، فتواعدوا عكاظا ليتعادُّوا القتلى ، وتعاقدوا وتواثقوا على ذلك ، وجعلوا بينهما موعدا يلتقون فيه لذلك ، فأبى وهب بن متعب ما اتفق عليه الفريقان ، وحالف على قومه وجعل لا يرضى بالصلح حتى يدركوا ثأرهم ، فلما رأى أمية بن جُدعان بن الأشكر عناده قال :

المرء وهب وهب آل متعبـــة

مـــل الغـــواة وإن يماطـــل يملـــل

يسعـــى يعوذهـــا بجزل وقودهـــا

وإذا تعامَى صلـح قـومك فاعمـــل

واندس وهب يزين لهوازن نقض الصلح حتى مكرت هوازن بكنانة وهم على رأس الصلح ، فبعثت خيلا عليها سلمة بن شعل البكائى وخالد بن هوذة فيهم ناس من بنى هلال ، وريسهم ربيعة بن أبى طبان ، وناس من بنى نصر عليهم مالك بن عوف ، فأغاروا على بنى ليث بصحراء الغميم وهم غازون فقاتلوهم ، وجعل مالك يقاتل ويرتجز وهو أمرد يقول :

ـــ أمرد يبدى حلة شيب اللحا .

فقتلت بنو مدلج يومئذ عبيد بن عوف البكائى وسبيع بن أبى المؤمل من بنى محارب ، ثم انهزمت بنو ليث فاستحرَّ القتل ببنى الملوح بن يعمر فقتلوا منهم ثلاثين رجلا ، وساقوا نعماً ، ثم أقبلوا فعرضت لهم خزاعة وطمعوا فيهم فقاتلوهم ، فلما رأوا أنه لا بد لهم منهم قالوا :

— عرضونا من غنيمتكم عراضة .

فأبوا فخلوا سبيلهم .

ثم إن الناس تداعوا إلى الصلح ورهنوا أرهانا للوفاء بديان من كان له المضل فى القتلى ، وتم الصلح ووضعت الحرب أوزارها .

وفى حلقة أخرى كان عتبة بن ربيعة وأخوة شيبة وعثمان بن عفان ورجال من بنى عبد شمس وبنى أمية يتحدثون عن فضل عتبة فى حقن الدماء ، ورثاء أبى سفيان بن أمية أخى حرب ، وسرعان ما طوى الرثاء ليتحدث الناس فى فخر عن العنابس أسود بنى أمية الذين أبوا أن يزولوا يوم شرب ، فكان لهم النصر فى ذلك اليوم .

وفى حلقة أخرى كان بنو مخزوم مجتمعين يتحدثون حديث الحرب وفيهم خالد بن الوليد ، وكان فتى لم يبلغ الحلم يصغى إلى الحديث فى انتباه ، فحديث القتال والكر والفر واللعب بالسيوف يستهويه ، فلعبة الفرسان كانت حتى ذلك الوقت لعبته المفضلة ، وهو فى شوق الآن إلى أن يخرج مع الرجال للقتال عوضا عن الخروج مع فتيان الحى إلى شعاب مكة وجبالها لممارسة لعبة الحرب .

وكان فى حجر الخطاب بن نفيل عمر بن الخطاب يصغى إلى حديث القوم ، فأبوه يصحبه إلى نوادى قومه وإلى الحرم وإلى أعياد الآلـهة فشب متعصبا لدينه ، فهو يخشى عليه الفتنة التى يريد زيد بن عمرو بن نفيل أن

يبعثها فى صبيان بنى مخزوم وشبابها .

وراح الناس يتحدثون عما فعله أبو ربيعة وكيف حارب برمحين ، وراح الشعراء يتغنون بشجاعة ذى الرمحين وبنى المغيرة جميعا ، فانبسطت أسارير أبى الحكم بن هشام (أبى جهل) فهو يزهو بنسبه ويطمع فى أن ترفع الأقدار قبيلته فوق بنى هاشم وبنى أمية ؛ الحيين اللذين ينافسان بنى المغيرة أشد المنافسة .

والتفت بنو تيم حول عبد الله بن جدعان وفيهم أبو قحافة وابنه عتيق ؛ عبد الكعبة (أبو بكر) وكانوا فى سرور ، فأيام الفجار قد انتهت بأن صالح الناس على أن تترك أسلحتهم عند ابن جدعان فى الأشهر الحرم حتى لا يكون فيها قتال ، فازداد بنو تيم شرفا على شرف .

وراح شيوخ بنى تيم يتحدثون فى الأنساب والديات ، فأدلى أبو بكر بدلوه بين الدلاء ، فلم يعد يكتفى بأن يلقى سمعه إلى الأحاديث بل أصبح يشارك فيها بآرائه ، بعد أن اشتهر بمعرفته للأنساب وحسن أحكامه فى الديات .

وفى ركن من الحرم اجتمع بنو أسد بن عبد العزى وكان حكيم بن حزام قطب الرحى ، فقد كان بين الرهائن الذين قدمتهم قريش لهوازن وفاء بعهدهما بعد أن عرض عتبة بن ربيعة الصلح ، وكان الزبير بن العوام طفلا صغيرا فى حجر عمه ، فقد قتل أبوه العوام بن خويلد فى أيام الفجار ، وحزن عليه بنو أسد وبنو هاشم حزن الثكلى على وحيدها .

واجتمع بنو هاشم فى ظل الكعبة حيث كان يجلس عبد المطلب ، وراح الزبير بن عبد المطلب يقص ما أهاج الفجار وما قيل فى كل يوم من أيامها من شعر ، وأبو لهب وحمزة والعباس وأبو طالب وبنوه وشيوخ بنى

هاشم وشبابهم يصغون إلى حديثه ويشاركون فيه .

وشرد أبو طالب طويلا ثم راح يتحدث عن بركة ابن أخيه عبد الله ، فما حضر محمد يوما من أيام قريش إلا كتب لها فيه النصر ، وما اشتكى قومه من الجفاف ورفع يديه إلى السماء حتى هطل الغيث بالحيا .

وراحت الأهواء تعبث بوقائع الأحداث كما تشاء ، تنسب فضلا إلى من ليس له فضل وتسلب الناس أشياءهم ، وراح الشعراء يتشدقون بما لم يفعلوه ، ويزجون المديح إلى كل من وضع الذهب فى أكفهم أو ملأ بالطعام بطونهم ، فما كان للحقائق وزن ، وكانت الأموال تهون فى سبيل وضع أكاليل الغار — وإن كانت من زيف — على هامات القبائل وساداتها .

وجاء رجل من زبيد إلى مكة بسلعة له فباعها من العاص بن وائل ، فظلمه ثمنها ، فراح يطوف على بنى عبد الدار وجمح وسهم ومخزوم وأمية ، فيسألهم أن يعينوه على العاص بن وائل ، فزجروه وعبسوا فى وجهه وأبوا أن يغلبوه على العاص ، فلما نظر إلى سلعته قد حيل دونها رقى على جبل أبى قبيس وقريش فى أنديتها فصاح بأعلى صوته :

يا لفهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحِجر والحجر
هل قائم من بنى سهم بخفرته ... وعادل أو ضلال مال معتمر

وبلغ الصوت آذان الزبير بن عبد المطلب فهب ثائرا وقال :

— إن هذا الأمر لا ينبغى لنا أن نمسك عنه .

وعزم ابن عبد المطلب أن يجمع قريش ليتحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها ، وأن لا يغبن ظالم مظلوما ، فراح يطوف فى بنى هاشم

وزهرة وأسد وتيم ومخزوم وأمية وهو يقول :

حلفت لنعقدن حلفا عليهم وإن كنا جميعا أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا مقربة الغريب لذى الجوار
ويعلم من حوالى البيت أنا أباة الضيم نمنع كل عار

واجتمع بنو هاشم وتيم وزهرة وأسد فى دار عبد الله بن جدعان ، وصنع لهم طعاما كثيرا . وكان فى القوم محمد بن عبد الله وأبو بكر صديقه الوفى الحميم ، وكان محمد منشرح الصدر فهو يشهد مولد حلف من أفضل أحلاف قريش ، فما اجتمعوا إلا ليتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلم حتى تدفع عنه مظلمته .

إنه يمقت البغى ويكره الظلم ، وإنه ليرى فى هذا الاجتماع خطوة نحو غاية أسمى وهى رفع الظلم عن أنفسهم بعد أن يرفعوه عن الناس ، فهم أنفسهم يظلمون بعبادة الأحجار التى لا تنفع ولا تضر ولا تملك لنفسها شيئا .

إنه يحب العدل ، وإن اجتماع قومه على أن يتعاقدوا ويتحالفوا على ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه ويردوا له مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم ، يثلج صدره ويملأ جوانحه رضا .

وراحوا يقسمون بالله ليكونن يدا للمظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ، ما بل بحر صوفة ، وما رسا حراء وثبير فى مكانهما .

ثم عمدوا إلى ماء زمزم فجعلوه فى جفنة ، ثم بعثوا به إلى البيت فغسلت به أركانه ، ثم أتوا به فشربوه ، ثم انطلقوا إلى العاص بن وائل

والزبير بن عبد المطلب يقول :

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا أن لا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا فالجار والمظلوم فيهم سالم

ووقفوا على رأس العاص وقالوا :

ـــ والله لا نفارقك حتى تؤدى إليه حقه .

فأعطى الرجل حقه ، فمكثوا كذلك لا يظلم أحد حقه بمكة إلا أخذوه له ، فكان عتبة بن ربيعة يظهر الندم لعدم دخول بنى عبد شمس فى ذلك الحلف بقوله :

ـــ لو أن رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من بنى عبد شمس حتى أدخل فى حلف الفضول .

وقدم رجل من خثعم مكة تاجرا ومعه ابنة له يقال لها القبول ، أوضأ نساء العالمين ، فلما رآها نبيه بن الحجاج بن عامر السهمى بهره جمالها ، فراح يلف حولها ويدور ، و لم يبرح حتى نقلها إليه وغلب أباها عليها .

و لم يدر الرجل ماذا يفعل فى ذلك الغاصب فقيل له :

ـــ عليك بحلف الفضول .

فأتاهم وشكا ذلك إليهم ، فأتوا نبيه بن الحجاج وهو بناحية مكة وهى معه ، وقالوا :

ـــ أخرج ابنة هذا الرجل وإلا فإنا من قد عرفت .

فقال :

ـــ يا قوم متعونى بها الليلة .

ـــ قبحك الله ما أجهلك ! لا والله ولا شخت لقحة .

فأخرجها إليهم فأعطوها أباها ، وركب معهم الخثعمى .

لم تكن فى مكة حكومة ، كان القوى يلوى حق الضعيف ، وكان السيد يأكل ما يشتهى من حقوق ، وكانت القبائل تساند أبناءها فى ظلمهم ، فرأى محمد بن عبد الله فى حلف الفضول خطوة على طريق العدل والأمن والسلام ، فكان تأييده لذلك الحلف تأييدا مطلقا ، حتى إنه قال فيه بعد أن جاء لقومه بشريعة العدل المطلق والأمن الأسمى والسلام وسعادة الدارين :

ـــ شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت .

التذييل

حاولت فى هذا الجزء كما حاولت فى الأجزاء السابقة على قدر جهدى أن أمحص الروايات المتباينة ، وأن أستبعد الآراء التى لا تتفق مع منطق الحوادث وجلال الرسول الكريم حتى فى أيام طفولته وشبابه قبل مبعثه ، وحاولت ألا أتأثر بأى رأى حتى لو أجمعت عليه كل كتب السيرة العربية أو أغلبها قبل أن أدرسه دراسة فاحصة مقارنة وأستريح إليه .

وقد استبعدت بعض الأحداث التى ليس لها أثر فى تكوين شخصية محمد ﷺ . قال : لقد رأيتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله فى رقبته يحمل عليها الحجارة ، فإنى لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمنى لاكم (أى من الملائكة) ما أراها لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك إزارك . فأخذته فشددته على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى على من بين أصحابى .

ولم أرو فى السيرة مثل هذه الحادثة لأنها ليست ذات دلالة فى حياة الرسول ، ولوضوح أثر الوضع فيها ، فإن كانت قد وقعت فى طفولته فكيف تتكرر فى شبابه ، ثم قبل مبعثه بسنوات قليلة ؟

زعم كتاب السيرة أن قد وقع له ﷺ مثل ذلك عند إصلاح أبى طالب لزمزم ، فعن ابن إسحاق أيضا قال : كان أبو طالب يعالج زمزم ، وكان النبى (ﷺ) ينقل الحجارة وهو غلام ، فأخذ إزاره واتقى به

الحجارة فغشى عليه ، فلما أفاق سأله أبو طالب فقال : آتانى آت عليه ثياب بيض فقال لى : استتر . فما رؤيت عورته من يومئذ .

وعاد ابن إسحاق يروى كيف نهى (ﷺ) عن التعرى وكشف العورة ، من قبل أن يبعث بخمس سنين عند بنيان الكعبة .

والنهى عن التعرى قد يكون مقبولا وهو فى صباه ، أما وهو غلام . أما وهو رجل على أعتاب الرسالة فشىء غير مقبول ولا معقول . والحادثة فى ذاتها غير ذات بال ، وقد سقتها لأدلل على أن ابن إسحاق وغيره من كتاب السيرة كانوا يسجلون كل ما يصل إليهم من آراء دون نقد أو تمحيص ، لذلك ماجت كل كتب السيرة بالقيم والغث ، بالراجح والمرجوح ، وبالصحيح والخطأ والضعيف .

ومن أمثلة التضارب فى الروايات ما جاء عن بركة الحبشية جارية عبد الله ، فالجلال السيوطى يقول فى الخصائص الصغرى : ترك عبد الله جاريته أم أيمن بركة الحبشية ، أسلمت قديما هى وولدها أيمن ، وكان من عبد حبشى يقال له عبيد . ويقول ابن الجوزى : إن النبى ﷺ أعتقها حين تزوج خديجة وزوجها عبيد الحبشى ابن زيد من بنى الحارث ، فولدت له أيمن ، وجاء فى الإصابة فى تمييز الصحابة : كانت أم أيمن تزوجت فى الجاهلية بمكة عبيدا الحبشى ابن زيد ، وكان قدم مكة وأقام بها ، ثم نقل أم أيمن إلى يثرب فولدت له أيمن ، ثم مات عنها فرجعت إلى مكة فتزوجها زيد بن حارثة . وقال البلاذرى : وقد زوجها ﷺ مولاه زيد بن حارثة ، وإنما رغب زيد فيها لما سمعه ﷺ يقول : من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج بأم أيمن ، فجاءت منه بأسامة . فكان يقال له الحب ابن الحب . وقيل : أعتقها عبد الله قبل موته .

وقيل : كانت لأمه ﷺ .

وقد وقفت طويلا عند بركة الحبشية وقد خالجنى شك فى أن تكون بركة هى أم أيمن ، فقد قيل إن أم أيمن كانت من مراضعه وكانت حاضنته ، فلو وضعنا بركة على مقياس الزمن لوجدنا أنها كانت فى الرابعة عشرة على أقل تقدير يوم مولده ﷺ ، وإلا لتعذر عليها أن ترضعه ، فإذا كان الرسول ﷺ قد زوجها مولاه زيد بن حارثة بعد الإسلام ، فمعنى ذلك أن عمرها فى ذلك الوقت كان قريبا من الستين أو الخامسة والخمسين على أحسن الظروف ، والمألوف أن من كانت فى مثل هذه السن لا تصلح لإنجاب ذرية ، فكيف جاءت من زيد بأسامة ؟

هل بركة جارية حبشية لأبيه عبد الله وأنها غير أم أيمن ؟ هناك قول يقول : إن الحبشية إنما هى بركة أخرى جارية أم حبيبة قدمت معها من الحبشة ، وكانت تكنى أم يوسف ، كانت تخدم النبى ﷺ . ترى هل اختلط الأمر على الرواة ؟ أظن أن الأمر كذلك ، وقد حرصت فى هذا الجزء أن أروى قصة بركة الحبشية جارية عبد الله وحضانتها لمحمد ﷺ بعد موت أمه ، ولم أخلط بينها وبين أم أيمن ، وسأروى قصة أم أيمن عندما أقص قصة خديجة بنت خويلد .

قد يحتج على ذلك بأن رسول الله ﷺ كان يقول لأم أيمن : « أنت أمى بعد أمى » ويقول « أم أيمن أمى » وأظن أن ذلك الحديث ضعيف مثل ضعف الحديث الذى يروى عن عائشة أن الرسول ﷺ مر على قبر أمه بالحجون بمكة ، فالمعروف أن قبر آمنة بالأبواء ، ومن ذلك الحديث قال الطبرى : إن قبر آمنة بشعب أبى ذر بمكة . وقال آخر : إن آمنة دفنت بالحجون بشعب أبى ذؤيب .

ودارس السيرة يرتطم بالاختلاف البيّن بين المؤرخين وكتاب السيرة ، فما من حادثة واحدة قبل مبعث الرسول ﷺ قد اتفقوا عليها ، فبينا أحدهم يقول إن محمدا (ﷺ) قد ولد بعد موت أبيه ، فهناك من يقول إن عبد الله قد مات وعمر ابنه سنتان . ويقول أحدهم إن آمنة ماتت قبل جده عبد المطلب . ويقول آخرون إن عبد المطلب مات قبل آمنة . ولهؤلاء الكتاب العذر كل العذر فقد كانوا يعتمدون على الرواة ، فما عرف العرب قبل الرسالة التدوين ، ولولا القرآن ما كان للعرب تاريخ .

وقد أخذت فى ترتيب الحوادث بالمشهور والمتواتر ، وتركت كل غريب ما لم يكن ذلك الغريب يتفق مع منطق الأحداث ، ففى هذه الحالة كنت أفضله على المتواتر الذى يتنافر مع الحوادث ولا يتلاءم مع طبيعة الرسالة والرسول .

واهتم كتّاب السيرة بقصة بحيرا الراهب وأفردوا لها فصولا وجعلوا مناديا (من الملائكة !) ينادى ويقول : ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة : رباب بن البراء ، وبحيرا الراهب ، والثالث المنتظر ، يعنى النبى (ﷺ) ؛ ذكره ابن قتيبة ، وكان قبر رباب وقبر ولده من بعده لا يزال يرى عندهما طش وهو المطر الخفيف !

وإنى أحلف يمينا على عدم صحة هذا الكلام كما حلف الذهبى يمينا على عدم صحة حديث عائشة الذى جاء فيه أن النبى (ﷺ) قال : « ذهبت لقبر أمى فسألت ربى أن يحييها فأحياها فآمنت وردها الله » .

إن كتب السيرة تروى قصصا كثيرة كقصة بحيرا ، فما أكثر القصص التى تدور حول رهبان رأوا محمدا (ﷺ) فى صباه وعرفوا أنه النبى

المنتظر ، وإن قصة بحيرا لا تزيد ولا تنقص عن أية قصة من تلك القصص ، ولكن المستشرقين وقفوا طويلا عند قصة بحيرا وحاولوا أن يؤكدوا أن بحيرا هو الذى وضع فى رأس محمد (ﷺ) فكرة النبوة والرسالة . ومن الغريب أنهم حاولوا أن ينكروا قصص الإرهاصات بالنبوة كلها إلا قصة التقاء محمد بالراهب الذى كان فى صومعته على بعد ستة أميال من بصرى .

إذا كان المسلمون — كما يقول المستشرقون الذين درسوا حياة محمد — هم الذين وضعوا قصص الرهبان الذين تنبئوا برسالة محمد (ﷺ) ليؤكدوا دينهم ، فلماذا يصرون على تمحيص قصة لقائه ببحيرا ؟ إما أن تكون هذه القصص موضوعة كلها بما فيها قصة بحيرا ، وإما أن تكون صحيحة كلها بما فيها قصة بحيرا ، أما أن ننكر كل القصص إلا هذه القصة فأمر غير مفهوم ، ومن العجيب أن المستشرقين الذين ينكرون الإرهاصات التى سبقت مولد محمد ﷺ وبعثه ، هم أنفسهم الذين يتحدثون عن البشارات التى سبقت مولد السيد المسيح كأنما كانت البشارات وقفا على رسول دون رسول !

إنها مسألة إقرار مبدأ ، فإما أن نعترف بالإرهاصات كلها وإما أن ننكرها كلها ، مثلها مثل الوحى ، فإذا كان الوحى قد نزل على إبراهيم وموسى وعيسى ، فلماذا لا ينزل على محمد ؟

وعندى أن لقاء بحيرا بمحمد ﷺ لا أهمية له فى حياة محمد ، فقد كان محمد صغيرا وكان لقاء عابرا لم يتيسر فيه أن يلقن بحيرا محمدا (ﷺ) أصول دين قويم كالدين الإسلامى ! إنه لمن السخرية بالعقول أن يقال إن بحيرا قد ألهم محمدا الحكمة والإيمان والكتاب فى بضع ساعات تناولت

فيها قريش الطعام الذى أعده لهم بحيرا ؛ وإنى أعتقد أن من حسن طالع بحيرا أن التقى بالرسول الكريم ، وإلا لاندثر اسمه كما اندثرت أسماء آلاف الرهبان من قبله ومن بعده .

وسواء أكان بحيرا حقيقة واقعة أم كان من نسج خيال كتاب السيرة . فما كان له من أثر فى محمد بن عبد الله وما ألهمه الرسالة ، ولو كان عند بحيرا قبس من العلم الذى كان عند محمد ﷺ ، ما اعتكف فى صومعته ولخرج لهداية البشر .

وقد ظهرت طائفة من النساك قبيل بعثة محمد ﷺ كانت تبحث عن دين إبراهيم الخليل ، فعرفت الله الواحد وهجرت عبادة الأصنام ولم تعتنق اليهودية ولا النصرانية ، وعرفت هذه الطائفة بالحنفاء ، ولم يكن الحنفاء على رأى واحد ودين واحد ، بل كان كل منهم يجتهد فى الاهتداء إلى الله وعبادته على طريقته ، حتى إن زيد بن عمرو بن نفيل كان يقول : والله ما أحد على دين إبراهيم غيرى !

لم تكن كلمة الحنفاء تعنى ديانة معينة ولا جماعة معينة ، فهى ليست اسم علم إنما هى صفة أطلقت على من عرف بنبذه الشرك وميله للتوحيد ، ولو كانت ديانة خاصة كالصابئة واليهودية والمجوسية لذكرت فى القرآن مع هذه الديانات التى أشار إليها كثيرا القرآن الكريم .

ولم يكن لهؤلاء الحنفاء أثر أى أثر فى ظهور الإسلام ، ولكن قبائل هؤلاء الحنفاء قد أضافوا إليهم فى عصر التدوين بعد الإسلام بسنين أفعالا وأشعارا توحى بأن الإسلام قد تأثر بأقوال بعضهم ، أو اقتبس من أفكارهم وأخذ عنهم ، وقد يكون ذلك بحسن نية أو لإثبات فخر للقبيلة تتيه به على القبائل الأخرى . وقد كانت القبائل تنفق الأموال على الرواة

ليرووا أن شاعرا من شعرائها قد روى شعره أيام الرسول ﷺ ، وكان في ذلك شرف للشاعر وشرف للقبيلة التي تزهو به على القبائل كلها ، من ذلك ما جاء في الأغاني من أن أبا نهشل قال :

— قال لي أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وجئته أطلب منه مغرما : يا خال ، هذه أربعة آلاف درهم وأنشد هذه الأبيات الأربعة :

ألا لله قـــــوم وَ لدت أخت بني سَهم

هشام وأبـو عبـــد مناف مدره الـخَصم

وذو الـرمحين أشبـال على القـــوة والحزم

فهـــذان يـــذودان وذا من كشب يرمي

وقل : سمعت حسان ينشدها رسول الله ﷺ ، فقلت : أعوذ بالله أن أفتري على الله ورسوله ، ولكن إن شئت أن أقول سمعت عائشة تنشدها فعلت ، فقال : لا ، إلا أن تقول : سمعت حسان ينشدها رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ جالس ، فأبى علي وأبيت عليه ، فأقمنا لذلك لا نتكلم عدة ليال ، فأرسل إلي فقال : قل أبياتا تمدح بها هشاما — يعني ابن المغيرة — وبني أمية ، فقلت : سمِّهم لي ، فسماهم وقال : اجعلها في عكاظ واجعلها لأبيك : فقلت :

ألا لله قـــــوم و لدت أخت بني سهم

ثم جئت فقلت : هذه قالها أبي ، فقال : لا ، ولكن قل : قاله ابن الزبعرى ، قال : فهي إلى الآن منسوبة في كتب الناس إلى ابن الزبعرى .

قال الزبير بن بكار : وأخبرني محمد بن الحسن المخزومي قال : أخبرني محمد بن طلحة أن عمر بن أبي ربيعة قائل هذه الأبيات .

وعمر بن أبى ربيعة هو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة ، فمدحه لأهله آل المغيرة ليس كمدح غيره لهم ، ولو أن هذا الشعر قد نسب إلى حسان بن ثابت ، ولو أن الرواة قبلوا أن يقولوا إن حسان أنشد هذا الشعر رسول الله ﷺ ، لعلا ذكر بنى المغيرة ولكانوا كما قال عنهم حفيدهم عمر بن أبى ربيعة :

أسود تزدهى الأقرا ن مناعون للهضم
وهم يومَ عكاظٍ ما نعو الناس من الهزْم

فإن كانت أربعة آلاف درهم تدفع ليقول قائل : إن أربعة أبيات من الشعر قد أنشدها حسان رسول الله ﷺ ، فكم يدفع للرواة لينسبوا أفعالا أو لينتحلوا أشعارا لأناس من قبائلهم عرفوا الله الواحد القهار قبل الإسلام ، بل وعرفوا الجنة والنار والبعث والحساب قبل أن ينزل بها القرآن !

وإنى سأحاول فى الصحفات التالية أن أثبت أثر الوضع فيما نسب لهؤلاء الحنفاء من أقوال ، وسأبدا بقس بن ساعدة .

جعل الإخباريون قس بن ساعدة الأيادى من المعمرين الذين عاشوا سبعمائة سنة أو خمسمائة سنة على أقل تقدير ، وقالوا إنه اتصل بسمعان رأس حواريى السيد المسيح ، ولو أخذنا بهذا الزعم لأخرجنا قسا من الحنفاء وجعلناه فى النصارى الذين كانوا على دين ، وقال بعض الإخباريين إن قس بن ساعدة انطلق إلى القيصر ، وأن القيصر أكرمه وسأله عن العلم ، قال :

— ما أفضل العلم ؟

قال قس :

ـــ معرفة الرجل بنفسه .

ـــ ما أفضل العقل ؟

ـــ وقوف المرء عند علمه .

ـــ فما أفضل الأدب ؟

ـــ استبقاء المرء ماء وجهه .

ـــ ما أفضل المروءة ؟

ـــ قلة رغبة المرء فى إخلاف وعده .

ـــ فما أفضل المال ؟

ـــ ما قضى به الحق .

ومثل هذا الكلام منتشر فى كتب الأدب العربى ، وله أصل يرجع إلى فلاسفة اليونان ، وأثر الوضع فيه واضح .

وقيل : إن قس أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، ولا غرو فهو قد اتصل بحوارى السيد المسيح ونهل من الدين القيم قبل أن يختلط بأساطير الشعوب ، وأول من توكأ على سيف أو عصا ، وأول من علا على شرف وخطب عليه ، وأول ما قال « أما بعد » ، وأول من كتب « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » .

وذكروا أن له ولقومه فضيلة ليست لأحد من العرب ، لأن الرسول روى كلامه وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته ، وعجب من حسن كلامه ، وأظهر تصويبه ، وأنه قال فيه : « يُحشر أمة وحده » .

وسأذكر الحديث من وجوهه المختلفة لنرى فيه رأيا .

قال الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى فى كتاب هواتف الجان : حدثنا داود القنطرى ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا

أبو عبد الله المشرق عن أبى الحارث الوراق عن ثور بن يزيد عن مورق العجلى عن عبادة بن الصامت ، قال : لما قدم وفد أياد على النبى ﷺ : قال : يا معشر وفد أياد ، ما فعل قيس بن ساعدة الأيادى ؟ هلك يا رسول الله . قال : لقد شهدته يوما بسوق عكاظ على جمل أحمر ، يتكلم بكلام معجب مونق لا أجدنى أحفظه .

فقام إليه أعرابى من أقاصى القوم فقال : أنا أحفظه يا رسول الله . قال : فسر النبى ﷺ بذلك ، قال : فكان بسوق عكاظ على جمل أحمر ، وهو يقول : يا معشر الناس اجتمعوا ، فكل من فات فات ، وكل شىء آت آت ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وبحر عجاج ، نجوم تزهر ، وجبال مرسية ، وأنهار مجرية ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا . ما لى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ؟ أرضوا بالإقامة فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ أقسم قس بالله قسما لا ريب فيه ، أن لله دينا هو أرضى من دينكم هذا ، ثم أنشأ يقول :

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها يمضى الأصاغر والأكابر
لا من مضى يأتى إليك ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا له حيث صار القوم صائر

وهذا إسناد غريب من هذا الوجه ، وقد رواه الطبرانى من وجه آخر ، فقال فى كتابه المعجم الكبير :

حدثنا محمد بن السرى بن مهران بن الناقد البغدادى ، حدثنا محمد بن حسان السهمى ، حدثنا محمد بن الحجاج ، عن مجاهد عن الشعبى

عن ابن عباس ، قال :

قدم وفد عبد القيس على النبى ﷺ ، فقال : أيكم يعرف القس بن ساعدة الأيادى ؟ قالوا : كلنا يعرفه يا رسول الله . قال فما فعل ؟ قالوا هلك . قال : فما أنساه بعكاظ فى الشهر الحرام ، وهو على جمل أحمر ، وهو يخطب الناس وهو يقول : يا أيها الناس اجتمعوا ، واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تغور . وأقسم قس قسما حقا لئن كان فى الأمر رضى ليكون بعده سخط . إن لله لدينا هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه . ما لى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ ثم قال رسول الله ﷺ : أفيكم من يروى شعره ؟ فأنشده بعضهم :

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

وهكذا أورده الحافظ البيهقى فى كتابه دلائل النبوة من طريق محمد بن حسان السلمى به . وقد كذبه يحيى بن معين وأبو حاتم الرازى والدارقطنى ، واتهمه غير واحد منهم ابن عدى بوضع الحديث .

وقد رواه البزار وأبو نعيم من حديث محمد بن الحجاج ، ورواه ابن درستويه وأبو نعيم من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ، وفيه : إن أبا بكر هو الذى أورد القصة بكمالها نظمها ونثرها بين يدى الرسول .

وابن الكلبى عرف عنه أنه قصاص ، ولا أقول : كذاب كما يقول علماء الحديث .

وأخبرنا الشيخ المسند الرحلة أحمد بن أبى طالب الحجار إجازة إن لم يكن سماعا ، قال : إجاز لنا جعفر بن على الهمدانى ، قال : أخبرنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السلفى سماعا ، وقرأت على شيخنا الحافظ أبى عبد الله الذهبى ، أخبرنا أبو على الحسن ابن على بن أبى بكر الخلال سماعا ، قال : حدثنا جعفر بن على سماعا ، قال : حدثنا السلفى سماعا ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازى ، حدثنا أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى السعدى ، حدثنا أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن على المقرىء ، حدثنا أبو محمد عبد الله ابن جعفر بن درستويه النحوى ، قال : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن أحمد السعدى — قاضى فارس — حدثنا أبو داود سليمان بن سيف بن يحيى بن درهم الطائىّ من أهل حران ، أبو عمرو سعيد بن يربع عن محمد ابن إسحاق ، حدثنى بعض أصحابنا من أهل العلم عن الحسن بن أبى الحسن البصرى أنه قال : كان الجارود بن المعلى بن حنش بن معلى العبدى نصرانيا ، حسن المعرفة بتفسير الكتب وتأويلها ، عالما بسير الفرس وأقاويلها ، بصيرا بالفلسفة والطب ، ظاهر الدهاء والأدب ، كامل الجمال ، ذا ثروة ومال ، وأنه قدم على النبى ﷺ وافدا فى رجال بنى عبد القيس ذوى آراء وأسنان ، وفصاحة وبيان ، وحجج وبرهان ، فلما قدم على النبى ﷺ وقف بين يديه ، وأشار إليه وأنشأ يقول :

يا نبى الهدى أتتك رجال
قطعت فدفدا وآلا فآلا
وطوت نحوك الصحاصح تهدى
لا تعد الكلال فيك كلالا

كل بهمـــاء قصَّر الطـــرف عنها
أرقـــلتها قلاصنـــا إرقـــالا
وطـــوتها العتـــاق يجمـــع فيها
بكمـــاة كـــأنجم تتـــلالا
تبتغـى دفـع بـأس يـوم عـظيم
هائـل أوجـع القلـوب وهـــالا
ومـــزادا لمحشر الخلـــق طـــرا
وفراقـــــا لمن تمادى ضلالا
نحو نـور مـن الإلـٰـه وبرهـــا
نٍ وبـــر ونعمـــة أن تنـــالا
خصك الله يـا بـن آمنـة الخيـــ
ـــر بها إذ أتت سجـالا سجـالا
فاجعـل الحظ منك ياحجـة اللـــ
ـه جزيلا لا حـظ خلـف أحـالا

قال : فأدناه النبى ﷺ وقرب مجلسه ، وقال له : يا جارود لقد تأخر الموعود بك وبقومك . فقال الجارود : فداك أبى وأمى . أما من تأخر عنك فقد فاته حظه ، وتلك أعظم حوبة ، وأغلظ عقوبة ، وما كنت فيمن رآك ، أو سمع بك فعداك ، واتبع سواك ، وإنى الآن على دين قد علمت به قد جئتك ، وها أنا تاركه لدينك ، أفذلك مما يمحص الذنوب ، والمآثم والحوب ، ويرضى الرب على المربوب ؟ فقال له رسول الله ﷺ : أنا ضامن لك ذلك ، وأخلص الآن لله بالوحدانية ، ودع عنك دين النصرانية . فقال الجارود : فداك أبى وأمى ، مد يدك ،

فأنا أشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك محمد عبده ورسوله . قال فأسلم وأسلم معه أناس من قومه ، فسر النبى (ﷺ) بإسلامهم وأظهر من إكرامهم ما سروا به وابتهجو به . ثم أقبل عليهم رسول الله (ﷺ) فقال : أفيكم من يعرف قس بن ساعدة الأيادى ؟ فقال الجارود : فداك أبى وأمى كلنا نعرفه ، وإنى من بينهم لعالم بخبره ، واقف على أمره . كان قس يا رسول الله سبطا من أسباط العرب عمر ستمائة سنة ، تقفز منه خمسة أعمـار ، فى البرارى والقفـار ، يضج بالتسبيح ، على مثال المسيح ، لا يقره قرار ، ولا تكنه دار ، ولا يستمتع به جار . كان يلبس الأمساح ، ويفوق السياح ، ولا يفتر من رهبانيته ، يتحسى فى سياحته بيض النعام ، ويأنس بالهوام ، ويستمتع بالظلام ، يبصر فيعتبر ، ويفكر فيختبر ، فصار لذلك واحدا تضرب بحكمته الأمثال ، وتكشف به الأهوال ، أدرك رأس الحواريين سمعان ، وهو أول رجل تأله من العرب ووحّد ، وأقر وتعبد ، وأيقن بالبعث والحساب ، وحذر سوء المآب ، وأمر بالعمل قبل الفوت ، ووعظ بالموت ، وسلم بالقضا ، على السخط والرضا ، وزار القبور ، وذكر النشور ، وندب بالأشعار ، وفكر فى الأقدار، وأنبأ عن السماء والنماء ، وذكر النجوم وكشف الماء ، ووصف البحار ، وعرف الآثار ، وخطب راكبا ، ووعظ دائبا ، وحذر من الكـرب ، ومـن شدة الـغضب ، ورسل الرسائل ، وذكر كل هائل ، وأرغم فى خطبه ، وبين فى كتبه ، وخوف الدهر ، وحذر الأزر ، وعظم الأمر ، وجنب الكفـر ، وشوق فى الحنيفية ، ودعا إلى اللاهوتية ، وهو القائل فى يوم عكاظ :

شرق وغرب ، ويتم وضرب ، وسلم وحرب ، ويابس ورطب ،

وأجاج وعذب ، وشموس وأقمار ، ورياح وأمطار ، وليـل ونهار ، وإناث وذكور ، وبرار وبحور ، وحب ونبات ، وآباء وأمهات ، وجمع وأشتات ، وآيات فى إثرها آيات ، ونور وظلام ، ويسر وإعدام ، ورب وأصنام ، لقد ضل الأنام ، نشوّ مولود ، ووأد مفقود ، وتربية محصود ، وفقير وغنى ، ومحسن ومسىء ، تبا لأرباب الغفلة ، ليصلحن العامل عمله ، وليفقدن الآمل أمله ، كلا بل هو إلـه واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أباد وأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والأنثـى ، رب الآخرة والأولى ، أما بعد : فيا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ، وأين العليل والعواد ؟ كل له معاد ، يقسم قس برب العباد ، وساطح المهاد ، لتحشرن على الانفراد ، فى يوم التناد ، إذا نفخ فى الصور ، ونقر فى الناقور ، وأشرقت الأرض ووعظ الواعظ ، فانتبذ القانط وأبصر اللاحظ ، فويل لمن صرف عن الحق الأشهر ، والنور الأزهر ، والعرض الأكبر ، فى يوم الفصل ، وميزان العدل ، إذا حكم القدير ، وشهد النذير ، وبعد النصير ، وظهر التقصير ؛ ففريق فى الجنة وفريق فى السعير .

إذا لم يكن هذا الكلام موضوعا فماذا يكون ؟ إنه يتضوع بأريج القرآن ، وإنه يصرخ بأعلى صوت يعلن أنه كتب فى عهد التدوين بعد الإسلام وبعد أن نزل القرآن ، وبعد أن عرف الناس يوم الفصل وميزان العدل والجنة والسعير .

إن بعض المستشرقين يرى أن قس بن ساعدة شخصية خرافية ، وإنى لا أرى هذا الرأى . ويروى بعض رواة الحديث أن الحديث ضعيف ، وإنى أرى أنه على الرغم من ضعفه أن له أصلا ، وأن قس بن ساعدة

شخصية حقيقية ، ولكن الرواة أضافوا إليه من المبالغات ما جعله قريبا من الأسطورة ، وأضافوا إلى حديثه ما وصل إليهم من علم الإسلام ، فجاء كأنما كان يستمد أصوله بل ألفاظه من القرآن الكريم .

وجعل لبيد لقمان دون قس فى الحكم ، قال :

وأخلف قسًّا ليتنى ولعلنى   وأعيا على لقمان حكم التدبر

وقال الأعشى :

وأحلم من قس وأجرى من الذى
بذى الغيل من خفان أصبح جاردا

وقال الحطيئة :

وأقول من قس وأمضى إذا مضى
من الرمح إذ مس النفوس نكالها

وكان زيد بن عمرو بن نُفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر من الحنفاء ، فهو من قريش من بنى عدى ، وهو شخصية لا شك فيها فابنه سعيد بن زيد تزوج فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب ، وكان زيد رابع من أسلم ، ولعل من أسباب سبقه إلى الدخول فى دين الله ما كان يسمعه من أبيه من تسفيه أحلام قومه ولومهم على عبادة ما لا يضر ولا ينفع .

وقد قصصت قصة زيد بن عمرو فى هذا الجزء ، وسأقص باقى قصته فى الجزء التالى ، ويلاحظ أن حياته لم يكن فيها مثل المبالغات التى رويت عن قس بن ساعدة أو أمية بن أبى الصلت ، ولعل السبب أن قوم زيد بن عمرو قد حسن إسلامهم فطلبوا الآخرة وأعرضوا عن الدنيا وزينتها ، ولم يبحثوا عن مجد زائف للقبيلة بعد أن نبذوا عصبية الجاهلية ، ولو

كانوايبحثون عن فخر دنيوى فقد كان فى مجد عمر بن الخطاب ما يشبع نهم بنى عدى إلى المجد والفخار .

وكان أمية بن أبى الصلت أحسن الحنفاء حظا فى بقاء الذكر ، بقى كثير من شعره[١] وحفظ قسط لا بأس به من أخباره ، وسبب ذلك بقاؤه إلى ما بعد البعث واتصاله بتأريخ النبوة والإسلام اتصالا مباشرا ، وملاءمة شعره بوجه عام لروح الإسلام . لم يكن مسلما و لم يرض أن يدخل فى الإسلام لأنه كان يأمل أن تكون النبوة فيه ، وأن ينزل الوحى عليه فيكون نبى العرب والعالم أجمعين ، فلما رأى النبوة فى الرسول حسده وأثار المشركين عليه ورثى قتلاهم فى معركة بدر وحرض قريشا عليه ، حتى مات على حسده وعناده سنة تسع للهجرة بالطائف قبل أن يسلم قومه الثقفيون ، و لم يمت مسلما و لم يمت على دين الوثنيين من قومه بل مات كافرا بالديانتين .

ورثاؤه قتلى معركة بدر ، محفوظ فى قصيدة حائية مطلعها :

هـلا بكـيت على الكـرا م بنى الكـرام أولى الممـادح
كبكـا الحمـام على فـرو ع الأيك فى الغصن الصوادح

وهى قصيدة يتوجع فيها أمية لسقوط قتلى المشركين ودفنهم فى القليب، وفيهم « عتبة » و « شيبة » ابنا « ربيعة بن عبد شمس » وهما ابنا خالة أمية . وقد ذكر بعض الرواة أن الذى حمله على قول هذا الشعر هو أنه لما وصل إلى القليب موضع مدفن قتلى قريش فى بدر وكان ذاهبا إلى

---

(١) من هنا حتى نهاية أمية بن أبى الصلت من كتاب « تاريخ العرب قبل الإسلام » للدكتور جواد على .

المدينة يريد الدخول فى الإسلام ، قال له بعض من كان معه من غلاظ الأكباد من المشركين : هل تدرى ما فى هذا القليب ؟ قال : لا ، قيل : فيه شيبة وعتبة وفلان وفلان . فجدع أنف ناقته وشق ثوبه وبكى وعاد إلى الطائف .

وذكر أن أمية نال فى بيتين من هذه القصيدة من أصحاب رسول الله ، ولذلك أهملهما « ابن هشام » صاحب السيرة ، وذكر أيضا أن النبى نهى عن روايتهما . ولكن الرواة رووهما وحفظوهما ودونوهما فى الكتب ، فكيف تجرءوا على حفظهما وتدوينهما لو صح أن النبى نهى عن روايتهما على نحو ما يزعمه أهل الأخبار .

وأمية مثل سائر المتألهين الآخرين من طبقة الحنفاء ، سافر إلى الشام واتصل بأهلها ، وآوى إلى الأديرة ورجال الدين يسأل منهم عما يهمه من مشكلات دينية ، وعما كان يجول فى خاطره من عبادة قومه وحقيقة العالم . وكان تاجرا يذهب مع التجار فى قوافلهم إلى تلك الديار التى كانت فى أيدى الروم . ثم إنه كان على ما يظهر من الروايات التى وردت فى ترجمته وسيرته قارئا كاتبا ، قرأ الكتب ووقف عليها ، ومنها ومن اتصاله برجال الدين وبأهل الكتاب تكونت عنده فكرته عن الدين ، وشكه فى عبادة قومه وفيما كانوا عليه من عقائد وعبادات . وقد بدا هذا التأثر فى الكلمات والمصطلحات الأعجمية والغريبة المستعملة فى شعره ، وفى الأمثلة والقصص المنتزع من الكتابين العهد القديم والعهد الجديد ، ومن موارد عديدة من الموارد الشائعة المستعملة عند أهل الكتاب .

ومما ذكره الإخباريون ورواة شعر أمية لنا أمثلة على استعماله للكلام الغريب ، أنه استعمل « الساهور » للقمر وهى كلمة لا تعرفها العربية ،

وأنه ذكر « السلطيط » اسما لله تعالى ، وأنه أطلق كلمة « التغرور » على الله تعالى فى موضع آخره من شعره ، وأنه سمى السماء « صافورة » و « حاقورة » ، وأنه استعمل أشياء أخرى من هذا القبيل . ولولعه باستعمال الغريب رفض علماء اللغة الاحتجاج بشعره . وهذا الشعر المنسوب إلى أمية وغريبه خاصة مادة مهمة جدا تجب دراستها بعناية ، لمعرفة مبلغ صحة ما جاء فى أخبار الرواة عن هذه الكلمات ، وعن أصولها ومواردها الأولى إن صح أنها من شعر تلك الأيام حقا . إذ ترشدنا أمثال هذه الدراسات إلى معرفة المنابع التى استقى منها هذا الشاعر علمه وإلهامه ، ومدى تأثره وتأثر أمثاله من الجاهليين بالآراء والتيارات الفكرية التى كانت فى مكة وفى خارج جزيرة العرب قبيل الإسلام .

ولا يمكن بالطبع دراسة هذه إلا بالوقوف على اللغات الأعجمية : الآرامية والعبرية واليونانية والحبشية ، وهى لغات أثرت فى الجاهليين بواسطة التجارة والدين ، لاستخراج أصول الكلمات المنسوبة إلى هذا الشاعر ومشابهاتها من تلك اللغات .

وقد روى الأخباريون قصصا عن التقاء أمية بالرهبان ، وعن توسمهم معالم النبوة فية ، فكانوا يسألونه أسئلة تستخرج أجوبتها فى نظرهم معالم النبوة . فلما كانوا يقفون على الأجوبة يقولون له : كادت النبوة تكون فيه لولا بعض النقص فى علاماتها عنده ، كما رووا قصصا عن شق طيرين لقلب هذا الشاعر لتنظيفة وتهيئة النبوة فيه . ولكنهما عندما وقفا عليه لم يجدا أن النبوة خلقت له . وقد حاكى أهل الإخبار فى قصصهم هذا ما رواه رجال السير عن علامات النبوة عند الرسول . كذلك رووا أنه كان يتفرس فى لغات الحيوان فيعرف ما تقوله وما تريده ويقصه على الناس ،

وأنه تنبأ بموته حينما نعب عليه الغراب ، فجعلوه بأخبارهم هذه فى مرتبة تضاهى مرتبة سليمان .

وهذا القصص الوارد عن أمية ، هو — بالطبع — من القصص المصنوع الموضوع مثل كثير من أخباره وأخبار غيره ، قص على ذوى القلوب الطيبة من الرواة والأخباريين فأخذوه ونقلوه كما نقلوا ما شاء الله من الإسرائيليات والأساطير ، وروى على أنه مما كان يعلمه الأحبار والرهبان والخاصة من أهل الكتاب .

ولا أستبعد أن يكون هذا القصص قد ظهر فى أيام الحجاج عصبية وتقربا إليه ، فقد كان الحجاج من ثقيف وكان أمية من ثقيف كذلك . وقد أنتج الوضاعون فى أيامه شيئا كثيرا من الأخبار فى قبيلة ثقيف ، كما أنتجوا فى ذمها وفى ذم رجالها نكاية به .

ويذكرون عنه أنه بعد أن صبأ عن قومه وتحنف لبس المسوح على زى المترهبين الزاهدين فى هذه الدنيا ، ورافق الكتب ونظر فيها ليستلهم منها العلم والحكمة والرأى الصحيح ، ثم حرم الخمر على نفسه مثل بقية المتألهين ، وتجنب الأصنام وصام والتمس الدين وذكر إبراهيم وإسماعيل ، وأنه كان أول من أشاع بين قريش افتتاح الكتب والمعاهدات والمراسلات بجملة : « باسمك اللهم » وهى الجملة التى نسخت فى الإسلام بجملة : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وفى رواية أنه : « كان قد قرأ الكتب القديمة ، وعلم أن الله تعالى مرسل رسولا ، فرجا أن يكون هو ذلك الرسول ، فاتفق أن خرج إلى البحرين وتنبأ رسول الله ﷺ ، فى جماعة من أصحابه ، فدعاه إلى الإسلام وقرأ عليه (سورة يس) ، حتى إذا فرغ منها وثب أمية يجر

رجليه فتبعته قريش تقول : ما تقول يا أمية ؟ فقال : أشهد أنه على الحق . قالوا : فهل تتبعه ؟ قال : حتى أنظر فى أمره . فخرج إلى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بها ترك الإسلام ، وقال : لو كان نبيا ما قتل ذوى قرابته ، فذهب إلى الطائف ومات .

وفى هذه الرواية المنسوبة إلى الزهرى عن سماع أمية بن أبى الصلت بنبوة النبى وهو فى البحرين ، ثم مجيئه إلى مكة والتقائه بالرسول ومحاجته له فى ظل الكعبة ، ثم انكسافه وتراجعه وذهابه إلى الشام ثم عودته منها ، تكلف ظاهر ، وفى تفاصيلها ما يناقض بعضه بعضا .

وذكر أنه كان الشخص الذى نزلت فى حقه الآية « واتلُ عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها »[1] وهى آية قيل أيضا إنها نزلت فى « بلعام بن باعر » أو فى زوج البسوس أو فى « النعمان بن صيفى الراهب » وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح ، فقدم المدينة فقال للنبى ﷺ : ما هذا الذى جئت به ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام . قال : فأنا عليها . فقال عليه الصلاة والسلام : لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها ، فقال : أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا ، ثم خرج إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا السلاح . ثم أتى قيصر وطلب منه جندا ليخرج النبى ﷺ من المدينة ، فمات بالشام طريدا وحيدا » .

وأمية كأكثر الشعراء له شعر فى المدح وله تعريض . وأكثر مدحه فى

---

(١) الأعراف : ١٧٥

« ابن جدعان » من أجواد العرب المعروفين المشهورين فى الجاهلية .

وهو فى المدح أو الرثاء أو فى كل مناسبة أخرى مستعمل لكلمات ذات صلة بالدين بالأفكار الدينية ، ولمصطلحات لا ترد إلا نادرا فى الأشعار المنسوبة إلى الشعراء الجاهليين ، مما يدل على غلبة التفكير الدينى عليه ، وتأثير ما قرأه أو ما أخذه من غير العرب فيه .

ويتلخص ما جاء فى شعر هذا الشاعر من عقائد وآراء فى الاعتقاد بوجود إلٰه واحد خلق الكون وسواه وعدله ، وأرسى الجبال على الأرض وأنبت النبات فيه ، وهو الذى يحيى ويميت ، ثم يبعث الناس بعد الموت ويحاسبهم على أعمالهم وليجازيهم بما كسبت أيديهم ، فريق فى الجنة وفريق فى النار ، يساق المجرمون عراة إلى ذات المقامع والنكال مكبلين بالسلاسل الطويلة والأغلال ، ثم يلقى بهم فى النار يصلونها يوم الدين يبقون فيها معذبين بها ، ليسوا بميتين ، لأن فى الموت راحة لهم ، بل قضى الله أن يمكثوا فيها خالدين أبدا .

وسيق المجرمون وهم عراة إلى ذات المقامع والنكال

أما المتقون فإنهم بدار صدق ناعمون تحت الظلال ، لهم ما يشتهون ، فيها عسل ولبن وخمر وقمح ورطب وتفاح ورمان وتين وماء بارد عذب سليم ، وفيها كل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، وحور لا يرين الشمس فيها ، نواعم فى الأرائك قاصرات ، على سرر متقابلات ، عليهم سندس وجياد رَيْط وديباج ، حلُّوا بأساور من لجين ومن ذهب وعسجد كريم ، لا لغو فيها ولا تأثيم ، ولا غول فيها مليم ، وكأس لا تصدع شاربيها ، يلذ بحسن رؤيتها النديم ، تحتهم نمارق من دمقس ، فلا أحد

يرى فيها سئيم(١) .

ويروى أن النبى كان يسمع شعر أمية ، وأن « الشريد بن سويد » كان ينشد له شيئا منه فى أثناء أحد أسفاره ، فكان كلما أنشد له شيئا منه طلب منه المزيد ، حتى إذا ما أنشده مائة بيت قال النبى له : كاد يسلم ، أو كاد ليسلم فى شعره . وذكر أن الرسول قال فى حديث له عنه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، وأنه قال : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

وكاد أمية بن أبى الصلت أن يسلم .

وللوقوف على آراء « أمية » وعلى معتقداته الدينية ، يجب الرجوع بالطبع إلى أشعاره وما نسب إليه من كلام . ففى هذا التراث الذى تغلب عليه النزعة الدينية والحكمية ، نتمثل آراء ذاك الشاعر الجاهلى الذى أدرك أوائل البعث ، وهى آراء قريبة جدا من الإسلام ، وبعضها يكاد يكون قولا إسلاميا فى لفظة وفى معناه مسبوكا فى الشعر . وفى هذا الشعر قصص الرسل والأنبياء :

آدم ونوح وقصة طوفانه :

جزى الله الأجل المرء نوحا   جزاء البر ليس له كذاب

وقصة ذى القرنين :

---

(١) راجع القصيدة المنسوبة إليه فى وصف الجنة والنار :

جهنم تلك لا تبغى بغيا   وعدن لا يطالعها رجيم

ديوان أمية ص ٥٣ (يشير يموت)

قد كان ذو القرنين قبلى مسلما ملكاً علا فى الأرض غير معبد

وبلقيس وحكاية الهدهد :

من قبله بلقيس كانت عمتى حتى تقضى ملكها بالهدهد

وقصة إبراهيم وتقديم ابنه للذبح وداود وفرعون وموسى وابن عاد :

حى داود وابن عاد وموسى وفريع بنيانه بالثقال

إننى زارد الحديد على النا س دروعا سوابغ الأذيال

وعيسى وأمه مريم وكيفية حملها به ، فوصف ذلك بانيا وصفه على نحو ما جاء فى القرآن الكريم عن تكون عيسى ، مضيفا إلى ذلك زيادات فى حديث مريم مع الملائكة وجواب الملائكة لها ، كما أورد فى هذا الشعر قصة « لوط أخى سدوم » وهى من القصص المذكورة فى التوراة :

ثم لوط أخو سدوم أتاها إذ أتاها برشدها وهداها

وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل .

وفى أكثر ما نسب إلى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات دينية ووصف ليوم القيامة والجنة والنار ، تشابه كبير وتطابق فى الرأى جملة وتفصيلا لما ورد عنها فى القرآن الكريم ، بل نجد فى شعر أمية استخداما لألفاظ وتراكيب واردة فى كتاب الله وفى الحديث النبوى فكيف وقع ذلك ؟ وكيف حدث هذا التشابه ؟ هل حدث ذلك على سبيل الاتفاق ، أو أن أمية أخذ مادته من القرآن الكريم ، أو كان العكس ، أى القرآن الكريم هو الذى أخذ من شعر أمية فظهرت الأفكار والألفاظ التى استعملها أمية فى آيات الله وسوره ، فكتاب الله إذن هو صدى وترديد لآراء ذلك الشاعر المتأله ، أو أن هذا التشابه مرده شىء آخر هو تشابه الدعوتين واتفاقهما فى العقيدة والرأى ، أو اعتماد الاثنين على مورد أقدم هو

الكتابان المقدسان : التوراة والإنجيل وما لهما من شروح وتفاسير ، أو كتب أو موارد عربية قديمة كانت معروفة ثم بادت وبقى أثرها فى القرآن وفى شعر أمية بن أبى الصلت ، أو أن كل شيء من هذا الذى نذكره ونفترضه افتراضا لم يقع ، وأن ما وقع ونشاهده سببه أن هذا الشعر وضع على لسان أمية فى الإسلام . وأن واضعيه حاكوا فى ذلك ما جاء فى القرآن الكريم فحدث لهذا السبب هذا التشابه .

أما الاحتمال الأول وهو فرض أخذ أمية من القرآن ، فهو احتمال إن قلنا بجوازه ووقوعه وجب حصر هذا الجواز فى مدة معينة وفى فترة محدودة تبتدىء بمبعث الرسول وتنتهى فى السنة التاسعة من الهجرة ، وهى سنة وفاة أمية بن أبى الصلت . أما ما قبل المبعث فلا يمكن بالطبع أن يكون أمية قد اقتبس من القرآن لأنه لم يكن منزلا يومئذ ، وأما ما بعد السنة التاسعة فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضا لأنه لم يكن حيا فلم يشهد بقية الوحى . ولن يكون هذا الفرض مقبولا معقولا فى هذه الحالة إلا إذا أثبتنا بصورة جازمة أن شعر أمية الموافق لمبادىء الإسلام قد نظم فى هذه المدة المذكورة ، أى بين المبعث والسنة التاسعة من الهجرة ، وإلا سقط الفرض . فإذا أثبتنا ذلك وثبتنا تأريخ نظم هذا الشعر أمكنت المقابلة عندئذ بين شعر أمية وما جاء فى معناه وفى موضوعه من آيات نزلت بين ابتداء نزول الوحى على الرسول وبين السنة التاسعة ، أما الآيات التى نزلت بعد هذه السنة فلا تكون شاهدا على أخذ أمية منها ، لأنه كان قد توفى فى السنة التاسعة فلا يقع هذا الافتراض .

ولكن من فى استطاعته تثبيت تواريخ شعر أمية وتعيينه وتعيين أوقات نظمه ؟ إن فى استطاعتنا تعيين بعضه من مثل الشعر الذى قاله فى مدح

عبد الله بن جُدعان أو معركة بدر ، ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بالغالبية منه وهى غالبية لم يتطرق الرواة إلى ذكر المناسبات التى قيلت فيها . ثم إن بعض هذا الكثير مدسوس عليه مروى لغيره ، وبعضه إسلامى فيه مصطلحات لم تُعرف إلا فى الإسلام ، فليس من الممكن الحكم على آراء أمية الممثلة فى شعره هذا بهذه الطريقة . ثم إن أحدا من الرواة لم يذكر أن أمية كان ينتحل معانى القرآن الكريم وينسبها إلى نفسه ، ولو كان فعل لما سكت المسلمون عن ذلك ولكان الرسول نفسه أول الفاضحين له .

بقى لدينا افتراض آخر هو أخذ القرآن الكريم من أمية ، وهو افتراض ليس من الممكن تصوُّره ، فعلى قائله إثبات أن شعر أمية فى هذا الباب هو أقدم عهدا من القرآن الكريم ، وتلك قضية لا يمكن إثباتها أبدا . ثم إن قريشا ومن لف لفها ممن عارض الرسول لو كانوا يعلمون ذلك ويعرفونه لما سكتوا عنه ولقالوا له إنك تأخذ من أمية كما قالوا له : إنك تتعلم من غلام نصرانى كان مقيما بمكة ، وإليه أشير فى القرآن الكريم بقوله : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين »(١) ولقد أشار المفسرون إلى اسم الغلام ولم يشيروا إلى أمية بن أبى الصلت ، ثم إن أمية نفسه لو كان يعلم ذلك أن يظن أن محمدا إنما أخذ منه لما سكت عنه وهو خصم له منافس عنيد ، أراد أن تكون النبوة له وإذا بها عند شخص آخر ينزل الوحى عليه ثم يتبعه الناس فيؤمنوا بدعوته . أما هو فلا يتبعه أحد . هل يعقل سكوت أمية لو

---

(١) النحل : ١٠٣

كان قد وجد أى ظن وإن كان بعيدا يفيد أن الرسول قد أخذ فكرة منه أو من المورد الذى أخذ أمية نفسه منه ؟ لو كان شعر بذلك لنادى به حتما ولأعلن للناس أنه هو ومحمد أخذا من منبع واحد ، وأن محمدا أخذ منه ، فليس له من الدعوة شيء ، ولكانت قريش وثقيف أول القائلين بهذا القول والمنادين به .

نعم ، لقد ورد فى الحديث كما قلت قبل قليل أن الشريد بن سويد كان قد أنشد الرسول شعر أمية ، وأنه كان كلما أنشده شيئا منه طلب منه المزيد ، حتى إذا ما أنشده مائة بيت قال له الرسول : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، ولكننا هنا بنا حاجة إلى تثبيت الإنشاد وإثبات صحة الرواية وتدقيق رجال السند ، لاثبات أن ما أنشد لم يكن قد نزل بمثله الوحى .

ومن ذهب إلى هذا الافتراض من المستشرقين « كليمان هوار » الفرنسي و« بور Porwe » . زعم بور « أنه حيث يوجد تشابه بين شعر أمية والقرآن الكريم فإن ذلك يدل على أن الرسول أخذ من (أمية) ، لأن أمية أقدم من الرسول » . وهذا الافتراض مقبول كما قلت لو أثبتنا أن هذا النظم شعر أصيل صحيح وأنه نظم قبل نزول مشابهه فى القرآن الكريم وأنه لم يضف إليه فى الإسلام ، فإن أثبتنا أنه له جاز لهما هذا الادعاء .

وأما الرأى الثالث ــ وأعنى به رأى من يُرجع التشابه بين شعر أمية وما ورد من مثل معانيه فى القرآن الكريم إلى أحد الاثنين من التوراة والإنجيل وتفاسيرهما وإلى بعض « الصحف » و « المجلات » التى أشير

إلى وجودها عند العرب — فهو رأى قديم وليس بجديد ، رأى قيل عن الوحى كله لا عن القرآن وشعر أمية أو غير أمية قبل أن يخلق المستشرقون بأكثر من ١٣٠٠ سنة ، فقد زعُم « أن النبى يتعلم من غلام نصرانى اسمه جبر !! » وقد أشير إلى هذا الزعم فى كتاب الله ، وجاء الرد عليه فى قوله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » . فلم يُخف القرآن الكريم ذلك الطعن والغمز ، ولم يتجاهل المفسرون اسم من قيل إنه كان يعلمه ، فذكروا « جبرا » هذا وكان غلاما مقيما بمكة ، وقال بعضهم بل هو رجل رومى اسمه غير ذلك .

ولو كان الرسول وأمية قد أخذا من منهل واحد واستقيا من مورد واحد لما سكتت قريش عن القول به ولما سكت أمية نفسه وهو الغاضب الحاقد على الرسول عن الجهر به ، وكيف يعقل سكوته عن هذا وهو أمر مهم جدا بالنسبة إليه ، وسيف يحارب به الإسلام ؟ ولما سكت مسيلمة ومن كان على شاكلته من المتنبئين من الإشارة إليه فى أثناء حروب الردة ، وقد كانت فرصة سانحة لإظهار هذه المقالة .

ثم إن التشابه على ما يتبين من نقده وتمحيصه ليس من نوع ما يحصل عن أخذ شخصين مستقلين من مورد معين . إنما هو من قبيل ما يحدث من اعتماد أحد الشخصين على الآخر ، بدليل ورود أمور فى القرآن الكريم لم ترد فى التوراة ولا فى الإنجيل ولكنها وردت فى شعر أمية ، وبدليل ورود أكثر قصص الأنبياء والآراء والمعتقدات فى شعر أمية على شكل إسلامى لا على النحو الوارد عند أهل الكتاب ، واستعمال هذا الشعر لجمل وألفاظ وتراكيب إسلامية واردة فى القرآن الكريم وفى

الحديث لا فى الكتب السماوية المذكورة . فلو كان مرد هذا التشابه الأخذ من مورد واحد لوجب انحصار هذا التشابه فى الأمور المشتركة التى ترد فى الكتب المقدسة : التوراة والإنجيل والقرآن وفى شعر أمية وحسب ، لا فى المسائل التى ترد فى شعر أمية وفى القرآن الكريم ولا ترد فى الكتابين المقدسين أو فى الكتب الأخرى .

ثم إن المقابلة بين نصين لمعرفة أصل أحدهما بالآخر وأخذ أحدهما من الآخر تستوجب التأكد من صحة نسب هذا الشعر لأمية . ففى هذا الشعر مقدار لا يمكن أن يشك فى وصفه وصنعه ، ومقدار نص العلماء نصا على أنه لغيره ، وهم إنما ذكروه فى شعر أمية لأن بعض أهل الأخبار نسبه إليه ، ولذلك استدركوا هذا الخبر بالإشارة إلى اسم قائله الصحيح . فلم يبق من هذا الشعر ما يصلح للمقابلة غير القليل منه وهو القليل الذى له صلة بعقيدة ودين . وهذا القليل هو فى الغالب أيضا تبع لما ورد فى القرآن وحده ، لا لما ورد فى الكتابين المقدسين . ولما كان القرآن محفوظا ثابتا فلم يرتق إليه الشك . أما شعر أمية فليس كذلك ، وهو غير معروف من حيث تعيين تأريخ النظم . فهذه المقابلة إن جازت فإنها تكون حجة على القائلين بالرأى المذكور لا لهم . وقد كان عليهم أن يثبتوا أولا إثباتا قاطعا صحة رأيهم فى أصالة هذا الشعر ، لا أن يفترضوا مقدما أنه شعر أصيل صحيح وأن يذهبوا رأسا إلى أنه هو والقرآن الكريم من وقت واحد ، بل إنه على حد قول بعضهم أقدم منه ، فكتاب الله منتزع منه . والحق أن العصبية تلعب بعقول بعض المستشرقين ، ومتى لعبت العصبية بعقل إنسان أبعدته عن فقه أبسط قواعد النقد .

ومن قال باحتمال أخذ القرآن الكريم وأمية من مورد مشترك واحد ،

« فردرش شولشيس » ناشر ديوان أمية . وقد زعم أيضا احتمال أخذ أمية من بعض آيات الله التى كانت منزلة يومئذ ونظمها فى شعره . استند فى زعمه القائل باقتباس الرسول من مورد مشترك إلى ورود بعض كلمات فى القرآن الكريم وفى الحديث وفى كتب السير يفهم منها على زعمه أن الرسول كان قارئا كاتبا ، ولكنه لم يشترط فى هذه المؤلفات كونها الإنجيل والتوراة بل ذهب إلى أنها « مجلة » و « صحيفة » تتضمن أحاديث وتفاسير وقصصا دينيا قديما . أما دليله فافتراض واحتمال وليس له غير هذين ولا يقوم علم إلا على دليل ملموس ، أما أنا[1] فأظن أن مرد هذا التشابه والاتفاق إلى الصنعة والافتعال . لقد كان أمية شاعرا ما فى ذلك شك لإجماع الرواة على القول به ، وقد كان ثائرا على قومه ناقما عليهم لتعبدهم للأوثان ، وقد كان على شىء من التوحيد والمعرفة باليهودية والنصرانية ، ولكن لا أظن أنه كان واقفا على كل التفاصيل المذكورة فى القرآن وفى الحديث عن العرش والكرسى وعن الله وملائكته وعن القيامة والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب ونحو ذلك . إن هذا الذى أذكره هو شىء إسلامى خالص لم ترد تفاصيله عند اليهود ولا النصارى ولا عند الأحناف ، فوروده فى شعر أمية وبالكلمات والتعابير الإسلامية هو عمل جماعة فعلته فى عهد الإسلام وضعته على لسانه ، كما وضعوا أو وضع غيرهم على ألسنة غيره من الشعراء والخطباء لاعتقادها أن ذلك مما يفيد الإسلام ، ويثبت أن جماعة من الجاهليين كانوا عليه وأنه لم يكن لذلك غريبا ، وأن هؤلاء كانوا يعلمون الغيب ، يعلمون بقرب ظهور

---

(١) الدكتور جواد على .

نبى عربى وأنهم لذلك بشروا به ، وأنهم كانوا يتمنون لو عادوا فولدوا فى أيامه أو طال بهم العمر حتى يدركوه فيسلموا ، وأمثال ذلك من قصص راج أمثاله فى كل دين من الأديان .

ويتبين آية الوضع فى شعر أمية فى عدم اتساقه وفى اختلاف أسلوبه وروحه ، فبينما نجد المنسوب إليه فى المدح أو فى الرثاء أو فى الأغراض الأخرى مما ليس لها صلة مباشرة بالدين فى ديباجة جاهلية على نسق الشعر المنسوب إلى شعراء الجاهلية ، نجد القسم الدينى منه والحكمى فى أسلوب بعيد عن هذا الأسلوب ، بعيد عن الأساليب المعروفة عن الجاهليين ، أسلوب يجعله قريبا من شعر الفقهاء والصوفيين المتزمتين ونساك النصارى ، فهو بعيد جدا من أسلوب الجاهليين ، حتى أسلوب مثل عدى بن زيد العبادى وبقية من نسب إلى النصرانية من شعراء الجاهلية القريبين من الإسلام . يضاف إلى ذلك ما ذكره الرواة وأهل الأخبار من نسبة بعض ذلك الشعر إلى غيره من الشعراء . ولكن من الذى وضع هذا الشعر ثم أنكره على نفسه وأسنده إلى أمية ؟ ومن الذى رصع شعر أمية بأبيات من وزنه وقافيته ولكنها أبيات إسلامية ؟ ومن كان أول من جمع شعر ذلك الشاعر فى ديوان نسبه إليه ؟ هذه أسئلة يجب أن توجد لها أجوبة ولكن أجوبتها مكانها كتاب يؤلف فى حياة هذا الشاعر وفى شعره وديوانه ، عندئذ يكون هناك مجال واسع للتنقيب عن هذه الأمور . رُوى أن الحجاج قال وهو على المنبر : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية » فهل ذهب العالمون به حقا قبل أيام الحجاج ؟ وهل كان شعره ضخما واسعا ؟ أو هو قول وزعم من زعم الرواة وما أكثر مزاعم الرواة وحملة الأخبار .

وأثر الوضع على بعض شعر أمية واضح ظاهر لا يحتاج إلى دليل ، وهو وضع يثبت أن صاحبه لم يكن يتقن صنعة الوضع جيدا ، فالقصيدة التى مطلعها :

لك الحمد والمن رب العبا   د أنت المليك وأنت الحكَمْ
محمد أرسلته بالهدى   فعاش غنيا ولم يُهتضَم

ثم خذ الأبيات التالية له وفيها :

عطاء من الله أعطينه   وخصَّ به الله أهل الحرم
وقد علموا أنه خَيْرهم   وفى بيتهم ذى الندى والكرم
يعيبون ما قال لما دعا   وقد فرج الله إحدى البُهَمْ
به وهو يدعو بصدق الحديـ   ـث إلى الله من قبل زيغ القدم
أطيعوا الرسول عباد الإلـ   ـه تنجون من شر يوم ألَمْ
تنجون من ظلمات العذاب   ومن حرِّ نار على من ظلم
دعانا النبى به خاتم   فمن لم يجبه أسرَّ الندم
نبى هدًى صادق طيب   رحيم رءوف بوصل الرحم
به ختم الله من قبله   ومن بعده من نبى ختم
يموت كما مات من قد مضى   يرد إلى الله بارى النسم
مع الأنبيا فى جنان الخلود   هُمُ أهلها غير حل القسم
وقدس فينا بحب الصلاة   جميعا وعلم خط القلم
كتابا من الله نقرا به   فمن يعتريه فقدما أثم

أقرأ هذه المنظومة ثم احكم على صاحبها ، هل تستطيع أن تقول إنه كان شاعرا مغاضبا للرسول وأنه مات كافرا وأن صاحبه رثى كفار قريش فى معركة بدر وأنه قال ما قال فى الإسلام وفى الرسول ؟ اللهم لا يمكن

أن يقال ذلك أبدا ، فصاحب هذا النظم رجل مؤمن عميق الإيمان ، هو واعظ مبشر يخاطب قومه فيدعوهم إلى الإسلام وإلى طاعة الله والرسول . إنه مؤمن قلبا ولسانا مع أنهم يذكرون أن الرسول قال فيه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، وأنه مات وهو على كفره وعناده وحسده للرسول . ثم إن صاحب المنظومة رجل يتحدث عن وفاة الرسول ، مع أن أمية كان قد توفى فى السنة التاسعة من الهجرة ، فهل يعقل أن يكون إذن هو صاحبها وناظمها ؟

أليست هذه المنظومة وأمثالها إذن دليلا على وجود أيد لصناع الشعر ومنتجيه فى شعر أمية . نحمد الله على أن صناعها لم يتقنوا صنعها ففضحوا أنفسهم بها ودلوا على مقاتل النظم .

ثم خذ قصيدة أخرى من القصائد المنسوبة لأمية وهى فى وصف الجنة والنار ، استهلت بهذا البيت :

جهنم تلك لا تبقى بغيًّا   وعدن لا يطالعها رجيمُ

ثم استمر فى قراءتها ، وفيما جاء فيها من وصف للجنة والنار ، ثم أنعم النظر فى عبارات هذه الأبيات :

فذا عسل وذا لبن وخمرٌ   وقمح فى منابته صريم
ونخل ساقط الأكتاف عد   خلال أصوله رطب قميم
وتفاحٌ ورمان وموز   وماء بارد عذب سليمُ
وفيها لحم ساهرة وبحر   وما فاهوا به لهُمُ مقيمُ
وحور لا يرين الشمس فيها   على صور الدُّمى فيها سموم
نواعم فى الأرائك قاصرات   فهن عقائلٌ وهمُ قروم
على سرُر تُرى متقابلات   ألا ، ثم النضارةُ والنعيمُ

عليهم سندس وجياد رَيط ... وديباجٌ يرى فيها قتومُ
وحلوا من أساور من لُجين ... ومن ذهب وعَسْجده كريم
ولا لغوٌ ولا تأثيم فيها ... ولا غولٌ ولا فيها مُليمُ
وكأس لا تصَدع شاربيها ... يلذُّ بحسن رؤيتها النديم
تصفّق فى صحاف من لجين ... ومن ذهب مباركة رذوم

ثم احكم بعد ذلك على صاحب هذه الأبيات . لقد حاول ناظمها إدخال بعض الكلمات الجاهلية فيها لإلباسها ثوبا جاهليا ولإظهارها بمظهر الشعر الجاهلى الأصيل ، ولكنه لم يتمكن من ذلك بل صيرها فى الواقع نظما لوصف الجنة والنار فى الإسلام . وما بى حاجة إلى أن أحيلك على الآيات التى أخذ منها صاحب هذا الشعر وصفه من القرآن الكريم .

ومن الغريب أن بعض الإخباريين اتخذ هذا النظم وأمثاله حجة لتبيان عقائد الجاهليين ، فذكر مثلا أن العرب فى جاهليتها كانت تؤمن بالجزاء ، وأن منهم من نظر فى الكتب وكان مقرا بالجنة والنار ، وحجته فى ذلك هذه المنظومة المنسوبة إلى أمية ، وقد نسى أن ما قاله على سبيل التعميم أو التغليب يناقض ما جاء فى القرآن الكريم وما أورده الإخباريون عن الجاهليين .

وقد كتبت قصة وكيع بن سلمة بن زهير الأيادى فى الجزء الرابع « العدنانيون » ، ورويت ما كان من تبان أسعد وسيف بن ذى يزن وهم ممن كانوا على دين فى الجاهلية ، وسأكتفى بهذا القدر عن الحنفاء فى هذا الجزء وسأعاود الكتابة عنهم إن شاء الله فى الجزء التالى « خديجة بنت خويلد » .

المراجــع

القرآن الكريم

صحيح البخارى

تارخ الأمم والملوك — للطبرى

جمهرة نسب قريش وأخبارها — للزبير بن بكار

إنسان العيون (السيرة الحلبية) — لعلى بن برهان الدين الحلبى

السيرة النبوية — لابن هشام

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — لتقى الدين محمد بن أحمد الفارسى

البداية والنهاية — لابن كثير

الأغانى — لأبى فرج الأصفهانى

نهاية الأرب — للنوريرى

بلوغ الأرب — للألوسى

وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى — للسمهودى

تاريخ العرب قبل الإسلام — للدكتور جواد على

الروض الأنف — للسهيلى

Ency . Religion By Hastings

Philosophy 8 Theology ,

Rodwell .

فجر الإسلام — لأحمد أمين

مشكلة الإنسان	للدكتور زكريا إبراهيم
مشكلة الحرية	للدكتور زكريا إبراهيم
إيران فى عهد الساسانيين	لكريستينس — ترجمة يحيى الخشاب
موقع عكاظ	للدكتور عبد الوهاب عزام
الحضارة البيزنطية	لستيفن رنسيمان — ترجمة جاويد
الملل والنحل	للشهرستانى
مختصر للتاريخ	توينبى
العقد الفريد	لابن عبد ربه

للمؤلف

الطبعة الأولى

احمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
ابو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة اقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن ابى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة اقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
ابناء ابى بكر الصديق		اكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد)	ترجمه مع محمد محمد فرج	يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
اهل البيت		مايو سنة ١٩٤٨
قميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة اقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧

		الطبعة الأولى
ام العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
اذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨
ارملة من فلسطين	مجموعة اقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩
القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	اكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة اقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الاخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله واسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	اكتوبر سنة ١٩٧٢

القصص الديني

(للأطفال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٤ «
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ «
العرب فى أوروبا	فى ٢٤ جزءا

محمد رسول الله والذين معه

١ ـ ابراهيم ابو الانبياء	اكتوبر ١٩٦٥
٢ ـ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣ ـ بنو اسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤ ـ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥ ـ قريش	مايو ١٩٦٧
٦ ـ مولد الرسول	يوليو ١٩٦٧
٧ ـ اليتيم	اكتوبر ١٩٦٧
٨ ـ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩ ـ دعوة ابراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠ ـ عام الحزن	يونية ١٩٦٨
١١ ـ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢ ـ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣ ـ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤ ـ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥ ـ صلح الحديبية	يونية ١٩٦٩
١٦ ـ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧ ـ غزوة تبوك	فبراير ١٩٧٠
١٨ ـ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩ ـ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠ ـ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

رقم الإيداع ٢١٨٧
الرقم الدولى ٣ ــ ١١٥ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧